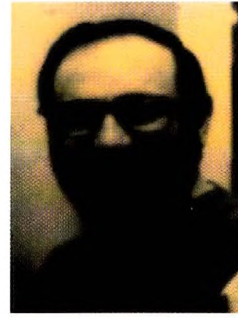
أومبرتو إيكو

جزيرة اليوم السابق

نقله عن الإيطالية
د. أحمد الصمعي

أويا



أومبرتو إيكو (أليسّاندريا (ايطاليا) - 1932)

تحصل على الأستاذية في الفلسفة بجامعة تورينو سنة 1954 برسالة حول «الجمالية عند توما الأكويني» أعادت نشرها دار بومبياني تحت عنوان «المسألة الجمالية عند توما الأكويني» (1970). اشتغل في الإذاعة والتلفزة الإيطالية (RAI) الى حدود سنة 1959 مهتمّا بالبرامج الثقافية، وقام بدروس حرّة في جامعة تورينو الى أن عهدت اليه جامعة بولونيا سنة 1971 استاذية السيميوطيقا. الى جانب نشاطه الجامعي يساهم ايكو بصفة متواصلة في صحيفتي «La Repubblica» و«L'Espresso»، وقد صدرت له مجموعة أولى من هذه المساهمات في كتاب يحمل عنوان «سبع سنوات من الأماني» «Sette anni di desiderio، 1983»، بينما مقالاته في مجلة L'Espresso الأسبوعية نشرت أخيرا لدى بومبياني بعنوان «رسالة مينارفا» (La bustine di Minerva, 2000). بدأ منذ سنة 1971 في نشر المجلة الدولية للدراسات السيميوطيقية «VS».

من أهمّ مؤلفاته النظريّة: Opera aperta، 1962 (العمل المفتوح)، La struttura assente، 1968 (البنية الغائبة)، Trattato di semiotica general، 1975 (دراسة في السيميوطيقا العامّة)، Lector in fabula، 1979 (ترجم الى العربية بعنوان القارىء في الحكاية، عن المركز الثقافي العربي-الدار البيضاء وبيروت، 1996)، I limiti dell'interpretazione 1990 (حدود التأويل) Sei passeggiate nei boschi narrativi، 1994 (ستّ رحلات في أدغال السردية). وأخيراً ترجم له كتاب بعنوان - «التأويل بين السيميائيات والتفكيكية».

نشر أولّ رواية له سنة Il nome della rosa 1980، (جائزة ستريغا 1981) (ترجمت الى العربية بعنوان اسم الوردة عن دار التركي للنشر-تونس 1991, ثم عن دار أويا- طرابلس ليبيا 1998)، ثم Il pendolo di Foucault، 1988 (جائزة بانكاريلا 1989) (بندول فوكو) وأخيرا L'isola del giorno prima، 1994 (جزيرة اليوم السابق).

جزيرة
اليوم السابق

أومبرتو إيكو

جزيرة اليوم السابق

نقله عن الإيطالية
أحمد الصمعي

دار أويـــا للنشر

الطبعة الأولى

نيسان/ابريل/الطير 2000 إفرنجي

رقم الإيداع المحلي **4789/ 2000**

رقم الإيداع الدولي (ردمك) **ISBN 9959-29-034-4**

دار الكتب الوطنية/ بنغازي ـ ليبيا

تصميم الغلاف : محمد حماده

دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع والتنمية الثقافية

زاوية الدهماني، السوق الأخضر، هاتف: 4448750 ـ 4449903 ـ 3338571. 21 . 00218 ـ

فاكس: 4442758 . 21 . 00218، ـ ص.ب.: 13498 ـ طرابلس ـ الجماهيرية العظمى

توزيع **دار الكتاب الجديد المتحدة** أوتوستراد شاتيلا ـ الطيونة، شارع هادي نصر الله ـ بناية فرحات وحجيج، طابق 5، خليوي: 933989ـ03 ـ هاتف وفاكس: 542778ـ1ـ00961ـ بيروت ـ لبنان

في البال جزيرة

من منّا لم يحلم يوماً بجزيرة نائية، واقعة في أطراف الدنيا، نائمة بين زرقة السماء ولازورد البحر؟ «أين منّي جزيرة نائية لم تطأها قدم رجل؟» كما يقول أحد أبطال نجيب محفوظ في رواية السراب.

الخيال الإنساني، والأدبي، عامر بالجزر. فهي إمّا فضاءات للوحدة والتأمل، أو سجون مفتوحة يقصى إليها من حكمت عليه عدالة الإنسان بالنفي والحرمان، أو مخبأ لكنوز يعجز عن وصفها اللسان أو وكر للقراصنة والمتوحشين آكلي لحوم البشر. هذه الجزر تطلّ علينا من صفحات الكتب ومن خرافات الجدّات فتجعلنا نحلم بالطبيعة العذراء وبالمخلوقات العجيبة وتحيي فينا روح المغامرة. وجميعنا يتذكر مغامرات جزيرة الكنز ورحلات السندباد وأوليس بجزرها الغريبة ومخلوقاتها الخيالية. فالجزيرة مثل الوردة صارت موقعاً ثرياً بالمعاني والرموز والخيالات.

كل منا يبحث عن جزيرته، وكل منا يريدها ويتصورها حسب الآمال التي يجري وراءها، دون الفوز بها. فمثلنا مثل «الفارس المالطي» في هذه الرواية، الذي يبحث عن جزيرة «إسكونديدا» وكلما بدا له أنه عثر عليها، بقي شيء في دخيلته يتنازعه ويجعله يقطع بأن تلك الجزيرة ليست «إسكونديدا» التي يبحث عنها، أو أولئك الذي يبحثون عن جزيرة سليمان للظفر بالكنز العظيم الذي يقال أن سيدنا سليمان جمّعه فيها، فيقضون حياتهم وراء هذا الأمل ويموتون من أجله. وجميعنا يقضي كامل العمر في البحث عن جزيرته دون بلوغها، وكثيرون تقف مراكبهم أمام الجزيرة المأمولة، دون القدرة على النزول إليها، فتمر بهم الأيام بين الحسرة على الأمس وحيرة اليوم والرجاء في الغد.

هكذا يقف روبارتو في الرواية متأملاً جزيرته، دون أن يتمكن من بلوغها، فتصير الجزيرة رمزاً لماضيه، بما أنها تقع وراء خط الهاجرة الذي يفصل يومه عن أمسه، وأملاً في إعادة كتابة حياته لو تمكن من عبور خط الزمن، وتصير دافني، السفينة المهجورة التي يجد روبرتو نفسه على متنها،

النقطة الثابتة التي تبثّ فيها بندول حياته بين ماضيه وحاضره ومستقبله، فتعود إليه ذكريات طفولته في «مونفيراتو» وحصار «كزالي» الذي شارك فيه صحبة أبيه. وأيام باريس وصالوناتها التي عرّفته بحبيبته «ليليا» إلى أن يصل إلى الظروف التي جعلته يركب البحر، إلى أن غرقت سفينته وقذفت به الأمواج فوق سفينة أخرى راسية أمام جزيرة. وهنا يرتبط الماضي بالحاضر ويعيش روبارتو تجربة حياتية جديدة صحبة شيخ عالم كان مختفياً في السفينة، فيفسّر له الشيخ الكون من منظار جديد، ويكشف له أسرار الدنيا من زوايا لم تكن تخطر له على بال وبعد وفاة الشيخ أثناء تجربة علمية يعود روبارتو إلى سابق وحدته فيتصور تواصلاً لقصته ليصبح لها غد، ويصير بهذه الطريقة مؤلفاً لرواية داخل الرواية. فها هو إذن يتحرّر من قيود الزمن التي تربطه إلى ماضيه وحاضره، ويعبر بخياله خط الهاجرة الذي يفصل يومه عن أمسه ليعيد كتابة حياته، وليعطيها الخاتمة التي تليق بها.

ما هي العبرة من كل هذا؟ ربما ليست هناك أي عبرة، أو أن كل واحد منا يستخلص العبرة التي تتماشى أكثر من تطلّعاته. ربما نحن مثل «روبارتو» نعيش حياتنا فوق سفينة لا نقدر على الابتعاد عنها، ونأمل في بلوغ جزيرة لا نستطيع الوصول إليها إلى أن نرمي بأنفسنا إلى البحر ليفعل بنا ما يشاء.

اسم الوردة (1981)، بندول فوكو (1989)(*) وأخيراً جزيرة اليوم السابق (1994): ثلاث روايات «ضخمة»، ثلاثة عوالم لامتناهية، ماذا يربط بينها. كل شيء ولا شيء. ما يربط بينها هو إيكو السيميوطيقي، ذو الاطلاع الموسوعي والتقنية السردية الدقيقة. اللغة كعادتها ثرية فوق اللزوم كأن صاحبها يريد أن يبهر بسعة علمه وببلاغته ولكنه ليس تبجحاً أو زخرفاً مجانياً، بل مجاراة لإسلوب العصور التي خلقت منها ووضعت في إطارها قصة «أدسو» في اسم الوردة، وقصة «ياكوبو بالبو» في بندول فوكو، وأخيراً قصة «روبارتو» في جزيرة اليوم السابق. وفي جميع هذه العوالم يتحرك إيكو بخفة من اعتاد على الأمكنة وتعرف على أسرارها. فكأنه في اسم الوردة واحد من رهبان الدير، وفي بندول فوكو عضو في مؤامرة كونية، وفي جزيرة اليوم السابق جاسوس أو عالم يبحث عن خط الهاجرة. ومن اختلاف هذه العوالم تنشأ قصص مختلفة،

(*) يعكف الدكتور أحمد الصمعي على ترجمة «بندول فوكو» بتكليف من دار أويا.

منها ما هو قروسطي ومنها ما هو حديث ومنها ما هو معاصر، أو امتزاج لكل هذا. وفي جميع هذه البيئات، ريفية كانت أم حضرية، برية كانت أم بحرية، يقف البطل موقف الحائر، يتساءل ماذا يفعل في هذه الدنيا، وأين مكانه من الكون وأين نقطته في مسار الزمن، ويضع محل الشك معتقداته وثوابته.

ماذا أراد أ. إيكو أن يبلغنا من خلال رواياته الثلاث؟ فكرة أن الكون متعدد وليس واحداً؟ أو أن اليقين ينتج من ألف شك؟ أو انعدام فكرة قوية صالحة لكل زمان ومكان لفائدة أفكار ضعيفة متعددة ومتجددة حسب المكان والزمان؟ أم أنه أراد أن ينظر إلى مشكلات العصر من خلال دروس الماضي وبواسطة روايات تبدو في الظاهر بعيدة في الزمن وفي الأحداث عن مشاغلنا ولكنها في الواقع تجترّ هواجس راسبة في أعماق الذات البشرية؟ جميع هذه الافتراضات مقبولة وهذه الروايات تبقى «أعمالاً مفتوحة» قابلة لشتى القراءات ولأبعد التأويلات. وليس من الصعب علينا تصور الابتسامة الماكرة التي ترتسم على شفتي المؤلف وهو يقرأ جميع الآراء والافتراضات والتأويلات التي أحدثتها روايته الأولى «اسم الوردة» ويهز رأسه أحياناً متعجباً وأحياناً مستنكراً وأحياناً أخرى متشككاً، ولكنه يشعر في قرارة ذاته بأنه نجح في صنع «آلة لخلق المعاني» أو في وضع «مخبر» يتأكد من خلاله من صحة نظرياته السيميوطيقية، أو يوفر له مادة جديدة لمواصلة البحث النظري.

وفعلاً تقع هذه الروايات في منتصف المسار الدراسي ـ الإبداعي لإيكو. فرواياته جاءت دون سابق إنذار، أي دون محاولات سردية تمهّد لعمل كبير، وجاءت في حين كانت شهرته كباحث قد عبرت حدود إيطاليا وأوروبا إلى أمريكا واليابان وغيرهما من البلدان. ولا شك أن فعل المفاجأة إضافة إلى صيته يفسّران القبول الذي حضيت به رواية اسم الوردة، وبنسبة أقل بندول فوكو وجزيرة اليوم السابق. وجاءت في منتصف مساره لتكون حلقة وصل بين التنظير والإبداع، أي لتكتمل عبر النص الروائي وعبر الخلق ما عجز عنه لسان التنظير، وجاءت في منتصف مساره الحياتي والدراسي لتكون أعمالاً ناضجة دسمة، موسوعية تتطلب قارئاً ناضجاً، مستعداً للقيام بهذه الرحلات الشاقة.

كان هذا واحداً من أغراض الكاتب: أن يصنع نصاً يستثير فضول القارئ وحبّ اطلاعه ويشحذ قدراته التأويلية وأن يجرّب بنفسه، وعلى نفسه، إمكانات التأويل ليرى إلى أي مدى يتحرر النص من سلطة مؤلفه وينتج معانيه حسب

القراءات التي تجرى عليه. رواياته ليست «بريئة» وليست «عفوية» بل صنع محكم دقيق حسب فيها المؤلف حساباً لكل شيء وجعل من القارئ مخاطبه المباشر في لعبة يتحداه فيها، أي يستنفد جميع المفاهيم والتلميحات والرموز. وهي مخابر يجرّب فيها إيكو السيميوطيقي تفاعلات القارئ. وليس أدلّ على ذلك من أنه نشر بعد اسم الوردة وبندول فوكو كتابين في العلاقة بين النص والقارئ هما «حدود التأويل [I limiti dell'interpretazione] (1990)، وست رحلات في غابات السردية [Sei passeggiate nei boshi narrativi]، (1994).

إلى جانب كل هذا صنع إيكو رواياته، وخاصة منها الأولى، حسب وصفة تشتمل على جل المكونات التي تستجيب لذوق القارئ المعاصر والتي تجعل من الكتاب، إضافة إلى قيمته الأدبية والفنية، منتوجاً تجارياً رابحاً. فالروايات الثلاث تقوم على حكايات فيها كثير من التشويق البوليسي: سبع جرائم في دير في اسم الوردة، مؤامرة كونية في بندول فوكو، جوسسة دولية للعثور على خط الهاجرة في جزيرة اليوم السابق. وفي جميعها يختفي الكاتب وراء مخطوط عثر عليه، أو وراء ملف في جهاز حاسوب أو وراء يومية تركها المسافر كأنه يقول «لست المسؤول عن هذه البدع» أو «ما ذنبي أنا إن كان الناس يتكلمون بهذه الطريقة في تلك العصور ويعجبهم أن يبهروا الآخرين بسعة علمهم؟» وفي الأثناء يملأ صفحاته بجميع ما يخطر له من أفكار فلسفية وطبيعية ورياضية وفلكية، وبمصطلحات قديمة وحديثة ومعاصرة، نادرة في كثير من الأحيان وأحياناً أخرى منحوتة نحتاً، مما يجعل مهمة القراءة (والترجمة) عسيرة، تكاد تكون مستحيلة.

فكم من قارئ ترك روايات إيكو قبل تجاوز الصفحات الأولى، وكثيرون لم يقدروا تماماً على قراءة بندول فوكو، لما تتطلبة هذه الكتب من جهد ومن طول نفس. ولا يعني هذا أن إيكو أخطأ المرمى بل هذا يؤكد رأيه أن الكتاب رحلة ينبغي أن يستعد لها القارئ وتلك الصفحات المشبعة بالتعاليق والهواجس والأفكار هي مثل الحركات التسخينية التي تهيئ اللاعب لمباراة صعبة. هي فعلاً رحلات شاقة ولكنها جعلت من روايات إيكو غلة غريبة ونادرة لا يلتذ بها إلى المغرمون بالألوان المجهولة من الطعام.

أحمد الصمعي

تونس، مارس 2000

1

دا فـــنــي

«ومع ذلك فأنا أزدهي بذلّتي، وبما أنه حكم عليّ بمثل هذا الحظ، فأنا أكاد ألتذّ بنجاة مقيتة: إذ أنني، حسب اعتقادي، ومنذ أن خلقت البشرية، أول إنسان ينجو من الغرق فوق سفينة مهجورة.»

هذا ما كتبه روبارتو دي لاغريف، بصياغة البليغ المسرف، على ما أظن بين يوليو وأغسطس من سنة 1643.

كم مرّ عليه من يوم والأمواج تتقاذفه، وهو موثوق إلى لوحة، ووجهه نحوالأسفل حتى لا تعميه أشعة الشمس، وعنقه ممتدة بطريقة غير طبيعية حتى لا يبتلع ماء البحر، وقد أحرقه الملح، وبات دون شك فريسة للحمّى؟ لا تذكر رسائله ذلك وتوحي بأنه قضى زمنا لا نهاية له، ولكنني أظن انه لم يتجاوز اليومين على الأكثر، والا لما استطاع ان يبقى على قيد الحياة تحت سطوة فيبو (كما كان يتشكى ببلاغة في الخيال) ـ وهو ضعيف البدن كما يصف نفسه، وحيوان يسعى أثناء الليل لعاهة طبيعية فيه.

لم يكن بوسعه ان يقدّر الزمن، ولكنني أظن ان البحر هدأ حالا بعد العاصفة التي رمت به من على متن أماريلّي، وتلك العوامة أو ما يشبهها التي صنعها له البحار على قياسه حملته مسافة أميال غير كثيرة،

تدفعها الرياح فوق بحر جميل، في فصل يكون فيه الشتاء تحت خط الإستواء معتدلا جدا، إلى أن ساقه التيار إلى ذلك الخليج.

كان الوقت ليلا، وأخذته غفوة، فلم يتفطن إلى اقترابه من السفينة إلى ان اصطدمت اللوحة بمقدمة دافني.

ولما وجد نفسه يطفو تحت الصاري - في نور القمر الذي كان ليلتها في تمامه - محاذيا طرف السفينة الأمامي الذي كان يتدلى منه سلماً صغيراً من الحبال غير بعيد عن سلسلة المرساة (أو سلّم يعقوب حسب عبارة الأب كسبار!)، عندئذ رجع اليه في الحال إدراكه كاملا. قد يكون ذلك نابعا من شدة اليأس: وتساءل إن كانت له القوة لكي يصيح (ولكن حلقه كان جافا ملتهبا) ام يتحرّر قبل كلّ شيء من الحبال التي جرحت بدنه بخطوط داكنة ويحاول تسلق السلم. أظن انه في مثل تلك الحالات يتحول المحتضر إلى هرقل يخنق التنانين وهو لا يزال في المهد. يروي روبارتو كلّ هذا بصفة غامضة، الا انه لا يمكننا الاّ قبول فكرة انه بحال من الأحوال تسلق ذلك السلم، بما اننا نجده في نهاية الأمر فوق مقدمة السفينة. ربما صعد على عدة مراحل، ينهكه التعب في كل مرحلة، إلى ان رمى نفسه وراء الحاجز، ثم زحف فوق الحبال، ووجد باب طرف السفينة مفتوحا... وقادته غريزته في الظلام إلى برميل الماء، فأمسك بحرفه لينتصب واقفا ثمّ وجد طستا مربوطا بسلسة صغيرة. وشرب قدر ما استطاع، إلى ان سقط متخما، وقد يكون بالمعنى الصحيح للكلمة، ربما لأن ذلك الماء كان يحتوي على عدد لا حدّ له من مختلف الحشرات التي غرقت فيه فكان له طعاما وشرابا في الآن نفسه.

قد يكون نام لمدة اربع وعشرين ساعة، وهو حساب صحيح بما انه استفاق عندما كان الوقت ليلا، ولكنه كان كمن ولد من جديد. اذن كان ليلا من جديد.

ولكنه ظن انها نفس الليلة، والا فبعد مضي يوم كامل يكون قد

انتبه أحد لوجوده. وكان نور القمر ينفذ من سطح السفينة، وينير ذلك المكان، الذي بان كأنه المطبخ، بقدره المعلقة فوق الفرن.

وكان للمكان بابان، واحد يفتح ناحية الصاري المائل، والآخر على السطح. وأطل من الباب الثاني، فرأى بوضوح كما لو كان نهارا، أكبال الأعمدة في نظام جميل، والرافعة، والصواري بأشرعتها المطوية، ومدافع قليلة في الكوَّات، وشبح طرف المؤخرة. أحدث ضجيجا ولكن لم يجبه أحد. وأطل من الحاجز، فرأى على يمينه، على بعد ميل تقريبا، ملامح الجزيرة، بنخلاتها على الشاطىء تحركها النسمة البحرية.

كانت اليابسة تكوّن شبه منعطف يحده شريط من الرمال يتراءى بياضه في العتمة الشاحبة، إلا أنه، كما يحدث لمن نجا من الغرق، لم يكن روبارتو يعرف ان كانت جزيرة أم قارة.

ثم انتقل إلى الجانب المقابل وهنالك بدت له ـ ولكن هذه المرة من بعيد، كأنها على خط الأفق ـ قمم ربوع اخرى، يحدها هي الأخرى مرتفعان والباقي بحر، مما يجعل المرء يتصور ان السفينة توقفت في مرسى بعد عبورها قناة واسعة تفصل بين اليابستين. واستخلص روبارتو من ذلك انه، ان لم تكونا جزيرتين، فهي دون شك جزيرة مواجهة لأرض اكثر اتساعا. ولا أظنه جازف بافتراض آخر، بما انه لم ير قط في حياته جوناً في مثل ذلك الإتساع مما يوحي لمن يجد نفسه في وسطه انه تجاه يابستين متماثلتين. وهكذا، لجهله بقارات شاسعة، كان تخمينه صحيحا.

شيء جميل بالنسبة لإنسان نجا من الغرق: قدماه على متن راسخ واليابسة في متناول يده. ولكن روبارتو لم يكن يتقن السباحة، وسيكتشف بعد حين انه لا يوجد فوق السفينة أي قارب نجاة، وفي الأثناء كان التيار قد أبعد اللوحة التي حملته إلى السفينة. مما جعل عزاؤه بالنجاة من الموت يترك المجال الآن للهلع، للوحدة التي يجد

نفسه ثلاث مرات فيها: وحدته في البحر، وفي الجزيرة القريبة، وفي السفينة. ربما صاح عدة مرات مناديا أهل السفينة، بجميع اللغات التي كان يعرفها، مكتشفا نفسه ضعيفا جدا. لم يجبه الا الصمت. كما لو كان جميع نوتييها قد فقدوا الحياة. ولم يعبّر قط ـ وهو الذي لا يبخل قط بالصور المجازية ـ تعبيرا أكثر مطابقة للحرف. أو كاد ـ وبخصوص هذا الإحتراز أريد أن أتحدّث، ولكنني لا أدري من اين أبدأ.

ومع ذلك فقد بدأت. انسان يطفو منهك القوى وسط المحيط والمياه بإشفاق منها ترميه فوق سفينة تبدو خالية. خالية كما لو هجرها ملاحوها منذ وقت قريب، لأن روبارتو يعود بمشقة إلى المطبخ ويجد هنالك قنديلا وقداحة، كما لو وضعها الطباخ في مكانها قبل الذهاب للنوم. ولكنه يجد قرب المدفأة فراشين أحدهما فوق الأخر، خاليين. ويشعل روبارتو القنديل، وينظر حواليه، فيعثر على كمية كبيرة من المؤن: سمك مجفف، وخبز مجفف، كسته الرطوبة بقشرة زرقاء رقيقة تكفيها كشطة خفيفة بالموسى. كان السمك مالحاً جداً، ولكن الماء موجود بكمية وافرة.

قد يكون استعاد قواه في وقت قليل، ام انه كان بعافية عندما كتب ذلك، بما أنه يطيل ـ ببلاغة الأديب الكبير ـ في سرد مأدبته، التي لم ير أولمب مثلها في مآدبه، رحيق عذب حمل اليّ من أعماق البحر، وحوش صار موتها مصدر حياة لي... ولكن هذا ما كان روبارتو يكتب إلى سيّدة فؤاده:

يا شمسي المضيئة، يا قمري المنير،

لماذا لم تأخذني السماء في تلك العاصفة التي أثارتها بمثل تلك الشدة؟ لماذا حرمت البحر الجشع من جسدي، لكي ترميني بعد ذلك في هذه الوحدة الموحشة لتغرق فيها روحي غرقة شنيعة؟

ربما لن تقرئي ابدا هذه الرسالة التي أكتبها اليك، إذا لم ترسل

السماء الرحيمة اليّ بعون، وأنا محترق مثل شعلة ألهبها ضياء هذه البحار تفقد نورها أمام عينيك، تماما مثل سيلين، التي، واحسرتاه، بعد ان شبعت من نور شمسها، كلّما ابتعد الكوكب في سفرته إلى ما وراء أفق كوكبنا وسرقت منها اشعّة الكوكب ملكها، في البداية تصير نحيلة مثل المنجل الذي يحصد حياتها، ثمّ، فتيلة تذبل شيئا فشيئا إلى ان تذوب تماما في ذلك الدرع اللازوردي الشاسع، حيث ترسم الطبيعة الآريبة شعارات بطولية ورموزا غامضة من أسرارها. محروم من نظرك، فأنا أعمى لأنك لا ترينني، أبكم لأنك لا تتحدّثين اليّ، دون ذاكرة لأنك لا تتذكرينني.

وأحيا فقط، عتامة ملتهبة وشعلة معتمة، خيالا غامضا تتصوّره روحي دائما متساويا في هذه الكتلة المناوئة من الأضداد، وتودّ أن تنسبه اليك. بنجاتي فوق هذه القلعة من خشب، فوق هذا البرج العائم، سجين بحر يحميني من البحر، قد عاقبني رفق السماء، وأخفاني في هذا التابوت العميق المفتوح لجميع الشموس، في هذا الدهليز الفضائي، في هذا السجن المنيع الذي يمنحني الفرار من كلّ الجهات، فأنا أيأس من أن أراك يوما.

سيدتي، إنني أكتب اليك كما لو أهديك، هبة لا تليق بك، وردة يأسي الذابلة. ومع ذلك فأنا أزدهي بذلّتي، وبما أنه حكم عليّ بمثل هذا الحظّ، فأنا أكاد ألتذّ بنجاة مقيتة: اذ انني حسب اعتقادي، ومنذ ان خلقت البشرية، أول انسان ينجو من الغرق فوق سفينة مهجورة.

أيكون ذلك ممكنا؟ حسب التاريخ الموجود فوق هذه الرسالة الأولى، أخذ روبارتو في الكتابة فورا بعد وصوله إلى السفينة، ما ان وجد ورقا وقلما في غرفة القبطان، وقبل ان يشرع في استكشاف باقي السفينة. ومع ذلك فقد كان عليه ان يقضي بعض الوقت وان يسترجع شيئا من قواه، اذ كان كالحيوان الجريح. أم انها كانت حيلة العاشق، الذي يحاول قبل كل شيء ان يعرف اين رمت به المقادير، ثم يكتب،

متظاهرا انه قام بالمراسلة قبل ذلك. كيف ذلك، وهو يعرف، او يخمن، او يخشى ان لا تصل رسائله ابدا وانه يكتبها فقط لتعذيب نفسه (لسلوان معذّب، حسب اسلوبه، ولكن لا ينبغي ان تطغى علينا طريقته في الكلام)؟ انه لمن الصعب ان نعيد تركيب حركات وعواطف شخص تضطرم نفسه بنار وجد حقيقية، ولكننا لا نعرف ان كان يعبر عما يحس ام عما تمليه عليه قواعد الخطاب الغرامي ـ ولكن من ناحية اخرى ماذا نعرف نحن عن الفارق بين الهوى الذي يحسنه المرء والهوى الذي يعبّر عنه، وايهما يأتي قبل الآخر؟ كان في ذلك الوقت يكتب لنفسه، لم يكن أدبا، كان فعلا جالسا هناك يكتب كالمراهق الذي يجري وراء حلم مستحيل، مبللا الورقة بالدموع، لا لغياب الحبيبة، التي كانت مجرد صورة حتى في حضورها، ولكن لتعاطفه مع نفسه، عاشق للهوى...

يمكن ان نستمدّ من كلّ هذا مادّة لرواية، ولكنني أتساءل من جديد، من اين سأبدأ؟

أقول انه كتب هذه الرسالة الأولى من بعد، وقبل ان يفعل ذلك اطّلع على ما يوجد حوله ـ وما رآه سيذكره في الرسائل الموالية. ولكن هنا أيضاً كيف يمكننا ان نترجم يوميات شخص يريد ان يجعل ـ من خلال استعارات ذكية ـ ما كان يراه بصعوبة مرئياً، وهو يطوف أثناء الليل وعيناه مريضتان؟

سيقول روبارتو من بعد انه مرض من عينيه منذ أن اصابته تلك الرصاصة جانبيا على صدغه اثناء حصار «كزالي». ربما كان ذلك صحيحا، ولكنه يقول في مواضع اخرى ان عينيه ضعفتا اكثر من جراء الوباء. كان روبارتو دون شك ذا صحة ضعيفة، وحسب ما بدا لي كان مصابا أيضاً بوسواس المرض ـ وان كان بصفة معقولة؛ نصف خوفه من نور الشمس هو ربما ناتج من سواد المرّة، والنصف الآخر من بعض اشكال التهيج، قد تكون زادت من حدّتها مستحضرات السيّد ديغبي.

يبدو من المؤكد انه قضى كامل السفرة فوق أماريلّي دائما تحت سطح السفينة، بما ان دور الخائف من النور، ان لم يكن في طبيعته اصلا، فهو يتماشى مع مهمة مراقبة التجارب التي كانت تجرى في قاع السفينة. بضعة أشهر اذن قضاها جميعها في الظلمة او على نور فتيلة ـ وما قضاه بعد ذلك من وقت كان فوق تلك العوامة، تبهره اشعة الشمس لا يهم ان كانت استوائية او غير ذلك. عندما وصل إلى دافني، مريضا كان ام لا، اصبح يكره نور الشمس، وقضّى الليلة الأولى في المطبخ، يستعيد قواه ثم حاول في الليلة الموالية القيام باستكشاف أوليّ، وتتوالى الأحداث على هذا المنوال. كان يخاف النهار خوفا شديدا، ليس فقط لأن عينيه لا تطيقانه، بل وللحروق التي توجع ظهره، فكان يختبىء. كان يطمئنه ذلك القمر الجميل الذي يصفه في تلك الليالي، فأثناء النهار تبدو السماء كما هي عليه في كل مكان، بينما اثناء الليل كان يكتشف مجموعات جديدة من النجوم (اعمال بطولية ورموز غامضة، فعلا)، كما لو كان في مسرح: ويترسخ فيه الاعتقاد ان تلك ستكون حياته لأمد طويل وربما حتى الموت، فها هو اذن يخلق من جديد صورة حبيبته على القرطاس حتى لا تضيع منه، ويؤمن انه لم يضع منه أكثر بكثير مما كان في حوزته من قبل.

عند ذلك يلوذ بسهراته الليلية يحتمي بها كما لو كان في رحم أمه، ويستمد منها باعثا أقوى للهروب من الشمس. ربما كان قد قرأ شيئا عن «أشباح موتى اونغاريا»، أو «ليفونيا" أو «فلاكيا»، الذين يطوفون مضطربين بين الغروب والفجر، ويختبئون في قبورهم عند صياح الديكة: ربما كان يعجبه أن يتقمّص ذلك الدور...

ربما بدأ روبارتو استطلاعه في الليلة الثانية. لقد صاح الآن بما فيه الكفاية ليتأكد من عدم وجود أي كان فوق السفينة. ولكن، وهذا ما يخيفه، كان عليه أن يعثر على جثث، او على بعض العلامات التي تبرّر ذلك الغياب. كان حذرا في تحرّكاته، ومن خلال رسائله يصعب التكهن

بالاتجاه الذي أخذه: فهو يسمي السفينة، وأجزاءها والأشياء الموجودة فيها بدون دقة. أجزاء منها كان يعرفها وتعوّد على سماع اسمها من طرف البحارة، وأخرى كانت مجهولة لديه، ويصفها كما كانت تبدو له. ولكن حتى الأشياء المعروفة، وهذا دليل على ان نوتية أماريلّي كانوا لقيطا من البحار السبعة، سمع بعضهم يشير اليها بالفرنسية، وآخر بالهولندية، وثالث بالإنجليزية. فكان يقول في بعض الأحيان - staffe كما علّمه ربما الدكتور بيرد ـ للدلالة على البلاسترية ؛ ويصعب في بعض الأحيان ان نفهم ان كان فوق الكوثل أو «القصر" وأحيانا اخرى فوق طرف المؤخرة، وهي طريقة فرنسية للتعبير عن نفس الشيء؛ ويستعمل كلمة sabordi بمعنى كوّات السفينة،وأقبل منه هذا عن طيب خاطر اذ يذكرني بكتب البحارة التي كنا نقرأها في صغرنا؛ ويذكر كلمة «parrocchetto»، التي تعني بالنسبة الينا شراع الميزان (في مقدمة السفينة)، ولكن بما انه بالنسبة إلى الفرنسيين «perruche» تعني شراع بلفيدير المشدود إلى صاري المؤخرة، فنحن لا ندري إلى ماذا يشير عندما يقول انه كان تحت «parrucchetta». اضف إلى ذلك انه كان احيانا يسمي صاري المؤخرة «artimone»، على الطريقة الفرنسية، ولكن ماذا يعني اذن عندما يكتب «mizzana»، التي هي بالنسبة إلى الفرنسيين شراع الميزان (ولكن بالنسبة إلى الإنجليز، للأسف، هي غير ذلك، اذ يسمون «mizzenmast» صاري المؤخرة، كما هو طبيعي)؟ وعندما يذكر كلمة «gronda» فهو يعني ربما ما نشير اليه نحن بكلمة «ombrinale» أي مصرف المياه على سطح السفينة. مما جعلني اتخذ قرارا: سأحاول فهم ما ينوي قوله، ثم استعمل العبارات التي تعودت على سماعها أكثر. وإن أخطأت فلا بأس: لن يغير شيئا من القصة.

بعد كل هذا، لنقل انه في تلك الليلة الثانية، بعد ان وجد ذخيرة من المؤن في المطبخ، قام روبارتو تحت نور القمر بجولة فوق سطح السفينة.

استحضر ذاكرته بخصوص مقدّمة السفينة وجانبيها الممتلئين، كما تراءت له في الليلة الأولى،وبعد أن تمعن في سطح السفينة الضيق، وفي شكل طرفها وفي مؤخرتها الضيقة والمستديرة، وقارن بينها وبين أماريلّي، استنتج روبارتو ان دافني هي أيضاً «fluyt» هولندية، أو flauto أو flute، أو fluste، أو flyboat، أو fliebote، كما تسمى بطرق مختلفة تلك السفن التجارية ذات الحمولة المتوسطة، والمسلحة في العادة بحوالي عشرة مدافع، للدفاع في حالة تعرضها لهجومات القراصنة، وهي لحجمها المتواضع تكتفي بحوالي اثني عشر من النوتية، ويمكنها ان تحمل الكثير من المسافرين على شرط أن يعدلوا عن أسباب الرفاهية (وهي قليلة)، فتتراكم فيها المراقد حتى يتعثر فيها الركّاب ـ وبعد ذلك، تكثر الوفيات من جراء العفونات من كل شكل ولون ان لم تكن هناك سطول بقدر الحاجة. هي اذن من نوع «فلويت» حتى وان كانت أكبر من أماريلّي، قد اكتفى سطحها بمشبّك واحد، كما لو أن قبطانها أراد تغرف الماء عند أول موجة قوية.

على كل حال، شاء حسن حظ روبارتو أن كانت دافني هي الأخرى من نوع «فلويت»، اذ أمكنه ذلك من التنقل فيها وهو على معرفة بتركيبة الأماكن. كان من المفروض، مثلا، ان يجد وسط السطح قارب النجاة الكبير الذي بإمكانه ان يحمل جميع ملاحي السفينة: وغياب القارب يوحي بأن النوتية ذهبوا إلى مكان آخر. لكن هذا الأمر لم يكن يطمئن روبارتو: لا يترك النوتية أبدا السفينة دون حراسة تحت رحمة البحر حتى وان كانت راسية وأشرعتها مشدودة في خليج آمن.

تلك الليلة قرر ان يبدأ حالا باستكشاف ركن مؤخرة السفينة. فتح باب الحجرة بحذر، كما لو كان يطلب الإذن بالدخول... قرب مقبض الدفة، أفادته البوصلة ان القناة بين اليابستين تمتدّ من الجنوب إلى الشمال. ثم وجد نفسه فيما يسمّى اليوم بالمربّع، وهي قاعة في شكل «L»، وهناك باب آخر دخل منه إلى حجرة القبطان، بشباكها الواسع

فوق الدفة وفتحتيها الجانبيتين على الرواق. فوق أماريلّي لم تكن قاعة القيادة هي نفسها التي ينام فيها القبطان، بينما يبدو هنا انهم حاولوا الاقتصاد في الفضاءات لتوفير مكان لشيء آخر. وفعلا بينما توجد على اليسار غرفتان صغيرتان لإيواء ضابطين، على اليمين هيّئ فضاء آخر، يكاد يكون أوسع من حجرة القبطان، في ركن منه فراش متواضع، ولكنه مرتب كمكان للعمل.

كانت الطاولة محملة بالخرائط، وبدت هذه الأخيرة لروبارتو أكبر عددا من تلك التي تصلح عادة في السفن لقطع البحار. كان ذلك الفضاء يبدو مكان عمل خصّص لبحّاثة: وكانت هناك مع الخرائط، في اوضاع مختلفة، مناظير، ونكترلاب جميل من النحاس يبعث بوميض محمّر كما لو كان هو نفسه مصدر نور، ومحلقة مركزة إلى سطح الطاولة، وأوراق أخرى مليئة بالحسابات، وورقّ عليه رسوم مستديرة بالأسود والأحمر، فهم منها، لأنه كان قد شاهد نسخا منها فوق أماريلّي (ولكنها كانت اقل جودة من هذه)، انها رسم للكسوف القمري لريجيومونتانوس.

بعد ذلك عاد إلى قاعة القيادة: عند الخروج من الرواق كان بإمكانه رؤية الجزيرة، بالإمكان ـ حسب قول روبارتو ـ التحديق في صمتها بعيني نمر. باختصار، كانت الجزيرة هنالك، كما كانت من قبل.

أظن انه وصل إلى السفينة وهو يكاد يكون عاريا: وأعتقد ان أول ما فعله لإزالة ملوحة البحر التي علقت به هو انه اغتسل في المطبخ، دون ان يتساءل ان كان ذلك الماء هو الوحيد فوق السفينة، ثم وجد في أحد الصناديق ثوبا انيقا كان للقبطان، ذلك الذي يلبسه للنزول على اليابسة عند انتهاء الرحلة. ربما تبختر متباهيا في زي القيادة، وأحس، عندما احتذى الجزمتين، انه عاد من جديد إلى عالمه. عند ذلك فقط يمكن لرجل شريف، بلباس محترم ـ لا غريقا هزيلا ـ ان يتملّك رسميا سفينة مهجورة، دون ان يبدو له ذلك اعتداء، بل حقا من حقوقه، وهذا ما فعل روبارتو: بحث فوق الطاولة، وعثر على يوميات السفينة،

مفتوحة كما لو قاطعتها حادثة، بجانب ريشة الإوز والمحبرة. وحال قراءته للورقة الأولى تمكّن من معرفة اسم السفينة، أما ما عدا ذلك فسلسلة غامضة من anker, passer, sterre-kyker,roer، ولم ينفعه شيئا معرفة ان القبطان كان فنلنديا. الا ان السطر الأخير كان يحمل تاريخا يعود إلى قبل ذلك ببضعة اسابيع، وبعد كلمات قليلة غير مفهومة وجد جملة باللاتينية مسطرة: pestis, quae dicitur bubonica.

ها انه قد وجد اثرا، او بداية تفسير. لقد انتشر الوباء على السفينة. وهذا الخبر لم يقلق روبارتو: لقد أصيب بالوباء منذ ثلاث عشرة سنة، والجميع يعرف ان من اصيب مرة بالمرض يحصل على نوع من الحصانة، كما لو ان تلك الحية لا تتجرأ على الدخول ثانية في أحشاء من هزمها في المرة الأولى.

ومن ناحية اخرى كانت تلك الإشارة إلى الوباء لا تفسر شيئا كثيرا، وتترك المجال لتخوفات اخرى. فحتى لو افترضنا انهم هلكوا جميعا، لوجد روبارتو هنا وهنالك على سطح السفينة جثث الموتى الأخيرين، لو قبلنا فكرة انهم رموا قبل ذلك بموتاهم في البحر.

ثم هناك غياب قارب النجاة: آخر من بقي على قيد الحياة، أو جميعهم، ابتعدوا عن السفينة. ماذا يجعل من سفينة موبوئين مكانا لا يقهر خطره؟ فئران، ربما؟ بدا لروبارتو من خلال تأويله لكتابة القبطان الأستروقوطية انه يقرأ كلمة «rottnest»، فأر كبير، أو فأر بالوعة ـ ونظر حواليه رافعا نور القنديل، كأنه سيرى من لحظة إلى أخرى شيئا يسري على جوانب السفينة، وسيسمع ذلك الصفير الذي جمّد دمه عندما كان على متن أماريلّي. ومرّت ببدنه قشعريرة حينما تذكر انه ذات ليلة احس بكائن مشعّر يلمس وجهه بينما كان النوم يراود جفنيه، وانطلقت منه صيحة فزع هرع لها الدكتور بيرد. ثم ضحك منه الجميع: حتى دون طاعون، يوجد دائما في السفن عدد من الفئران يضاهي عدد العصافير في الغابة، ويجب لمن يريد أن يجوب البحار أن يتعوّد على مرافقة الفئران.

الاّ أنه لا رائحة، في طرف السفينة، لوجود فئران. ربما تجمّعت في الفنطاس، تنتظر، وعيونها الحمراء تشع في الظلمة، لحما طازجا. وقال روبارتو في نفسه، ان كانت موجودة فينبغي معرفة ذلك في الحال. وان كانت فئرانا عادية وبعدد مقبول، فبالإمكان التعايش معها. ومن ناحية أخرى، هل يمكن ان تكون غير ذلك؟ طرح السؤال على نفسه، ولم يرد الإجابة عنه.

وجد روبارتو بندقية، وسيفاً عريضاً وموسى قديمة. كان فيما مضى جنديا: كانت البندقية من نوع كاليفار ـ كما يقول الإنجليز ـ يمكن تصويبها دون مثبّت ؛ وتحقق من ان الزند صالح للاستعمال، ليدخل الإطمئنان على نفسه أكثر من ان تكون لديه نية في استعمالها لإبادة الفئران، وفعلا رشق أيضاً في حزامه الموسى، مع انها ذات نفع قليل ضد الفئران.

وقرر ان يستكشف هيكل السفينة من مقدمتها إلى مؤخرتها. بعد ان عاد إلى المطبخ، ونزل سلما صغيرا وراء معلاق صاري المقدّمة، وجد نفسه في الأنبار (أو في المخزن، حسبما أظن)، حيث جمّعت كميات من المؤن لرحلة طويلة. وبما انها كانت غير كافية لإتمام الرحلة، قام النوتية بتزويد السفينة عند وصولها إلى أرض صديقة.

كانت هنالك سلال من السمك، دخّن منذ وقت غير بعيد، وأكوام من جوز الهند، وبراميل من الدرنة ذات شكل غريب ولكنها تبدو صالحة للأكل، وقابلة للاحتفاظ لمدة طويلة. ثم غلال، من تلك التي رآها روبارتو تحمل فوق أماريلّي عند المحطات الأولى في البقاع الإستوائية، وهي أيضاً تصمد تحت تأثير الفصول، مغلّفة بالشوك أو بحراشف، ولكنها ذات رائحة نفّاذة تخفي ثمرة في مأمن من التلف، وعصارة سكرية مغلقة. ومن بعض منتوجات الجزر كانت تأتي ربما تلك الأكياس من الدقيق الرمادي اللون، ذي الرائحة الفليسية، الذي صنع منه

أيضاً على ما يبدو ذلك الخبز، الذي يذكر طعمه بتلك العقد التي لا لذة لها والتي يسميها هنود العالم الجديد بطاطة.

في قاع المخزن رأى أيضاً حوالي عشرة براميل صغيرة ذات حنفية. استمدّ شيئا من الأول فاذا به ماء لم يتعفن بعد، بل العكس، كان يبدو أنه جمّع منذ وقت قريب وتمّت مداواته بالكبريت حتى يحتفظ به لمدة طويلة. لم تكن الكمية كبيرة، ولكن اذا ما اعتبر ان الثمار أيضا ستروي عطشه، بإمكانه ان يبقى وقتا غير قليل فوق السفينة. ومع ذلك فالإكتشافات، التي كانت مبدئيا تطمئنه إلى انه لن يموت جوعا، كانت تزيد من مخاوفه ـ كما يحدث دائما عند ذوي المزاج السوداوي، الذين يرون في كل علامة حظ نذير عواقب مشؤومة.

أن ينجو من الغرق فوق سفينة مهجورة فذلك في حد ذاته أمر غير طبيعي، ولكن لو كانت السفينة قد تركها العباد والربّ كحطام غير قابل للإستعمال، دون اشياء طبيعية أو مصنوعة فوقها تجعل منها ملاذا مقبولا، لكان ذلك من طبيعة الأشياء، وضمن الروايات التي يتناقلها البحارة؛ أما أن تكون مهيأة بتلك الصفة كما لو أعدّت لضيف مستحبّ ومترقّب، او كما لو كانت هبة خداعة، فهذا ما كان ينفح برائحة الكبريت، أكثر من الماء. وتذكر روبارتو عندئذ حكايات مختلفة كانت جدته تقصها عليه، وأخرى بأسلوب أكثر بلاغة كانت تقرأ على مسامع الحاضرين في صالونات باريس، حيث يروى عن أميرات ضللن السبيل في الغاب ثم دخلن إلى مغارات وجدن فيها غرفات ذات كساء وأثاث فاخر فيها أسرّة مفروشة فوقها القباب، وخزائن تطفح بالألبسة الفاخرة، وحتى الموائد المعدة بأشهى المأكولات... ويعلم الجميع، بطبيعة الحال، ان الغرفة الأخيرة تحوي الحقيقة الشيطانية التي تكشف العقل الشرير الذي أعدّ الفخ.

لمس دون قصد جوزة هند في أسفل الكوم، فتخلخل توازن المجموعة، وإذا بتلك الأشكال الكروية المشعرة تتدحرج كلها، كأنها

فئران انتظرت في صمت قابعة على الأرض (او خفافيش معلقة في السقف ورأسها إلى أسفل)، متأهبة لتسلّق جسمه وتشمّم وجهه المالح بالعرق.

كان عليه ان يتأكد انه ليس سحرا: وكان روبارتو قد تعلم في رحلته كيفية تحضير الغلال الآتية من وراء البحار. استعمل الموسى الكبيرة كما لو كانت بلطة، وبضربة واحدة قسم الجوزة، وشرب السائل البارد، ثم كسر القشرة اطرافا وقضم الثمرة العالقة بها. كان كل شيء على غاية من اللذة مما زاد في ارتيابه. وقال لنفسه انه ربما كان فريسة وهم، وأنه قد عضّ بعض القواضم وتخيل انه يأكل جوزا، وربما امتصّ ماهيّتها، وعما قليل ستصبح يداه نحيفتين، ذات مخالب ومعقوفتين، وسيتغلف جسده بزغب كريه الرائحة، وسيتقوس ظهره، ويدخل في العالم التعيس الذي يسكنه أهالي زورق «أكيرونت" المشعرّين.

الا انه، وحتى نتم الحديث بخصوص الليلة الأولى، كان على كشّافتنا ان يواجه نذيرا آخر مفزعا. فكأنما ايقظ تدحرج الجوز بعض الكائنات النائمة، إذ سمع، من وراء الفاصل بين المخزن وباقي الفضاءات تحت سطح السفينة، ان لم يكن صفيرا، أو زقزقة، أو تغريدا، فحكيك قوائم. إذن الخدعة موجودة، هناك مخلوقات ليلية تجتمع في بعض المخابىء.

وتساءل روبارتو ان كان من الأفضل، والبندقية في يده، أن يواجه حالا ذلك «الأرماجدّون». كان قلبه يخفق بشدة، واتهم نفسه بالجبن، وقال في نفسه انه، سواء كان هذه الليلة أو في ليلة أخرى، الآن أو في وقت لاحق، عليه ان يواجه هؤلاء. بقي يتردد، ثم صعد فوق السطح، ولحسن الحظ تراءى له الفجر، يسيل شحوبه على معدن المدافع، التي داعبتها إلى ذلك الحين انعكاسات نور القمر. فقال لنفسه بارتياح ان النهار وشيك، وأن من واجبه ان يهرب من ضيائه.

وكما يفعل «أشباح موتى اونغاريا» عبر بسرعة سطح السفينة للعودة إلى طرف المؤخرة، ودخل إلى الحجرة التي صارت الآن حجرته، ثم أوصد الباب، وأغلق المنافذ التي تؤدي إلى الرواق، ووضع اسلحته في متناول يده، وتهيأ للنوم حتى لا يرى الشمس، ذلك الجلاد الذي يقطع بسيف أشعته أعناق الظلال.

نام نوما مضطربا، وعاوده حلم غرق السفينة، وحلم به كما يحلم أهل العقول النابغة، الذين حتى في أحلامهم، وخاصة في أحلامهم، يعملون بشكل تزيد فيه الجمل من رونق الفحوى، والتفاصيل من حيويته، والصلات الغامضة من كثافته، والاعتبارات من عمقه، والمغالاة من رفعته، والتلميحات من سريته، والإحالات من نفاذه.

أتصور أنه في تلك العصور، وفي تلك البحار، كانت السفن التي تغرق أكثر من تلك التي تعود إلى مرافئها؛ ولكن لمن يعيش ذلك للمرة الأولى، تصبح تجربته مبعث احلام مزعجة متتالية، تجعلها القدرة على التصور بعبقرية مثيرة كأنها يوم الحساب.

منذ الليلة السابقة للغرق بدا وكأن الهواء أصيب بزكام شديد، وبدت عين السماء مليئة بالدموع، عاجزة عن التحديق في امتداد الأمواج. كانت ريشة الطبيعة قد مسحت ألوان خط الأفق ورسمت ابعادا غير محدّدة.

وروبارتو، الذي تكهنت أمعاؤه بالرجفة الوشيكة، ارتمى فوق الفراش، وقد صارت تهدهده الآن أم السيكلوبات، وأخذته غفوة تقطعها أحلام مضطربة من بينها ما حلم به في الحلم الذي يقصه، وتلقى في كيانه الكون المرتاع. واستفاق على ضجة الرعد وصياح النوتية، ثم اجتاحت المياه فراشه، وظهر الدكتور بيرد يعدو ويصيح به كي يصعد على السطح، ويوثق نفسه وثاقا شديدا إلى أي شيء يجده اكثر رسوخا ولو بقليل.

فوق السطح، وجد فوضى، وصراخا، وأجسادا، كأنما رفعتها يد الإله، ورمت بها في البحر. وتمسك روبارتو بعض الوقت بشراع صاري المؤخرة (حسب ما فهمت)، إلى ان تمزق، تحت ضربات الصواعق، وأخذ الدوقل يميل مع ميلان النجوم وقذف بروبارتو عند اسفل الصاري الكبير. وهنا رآه بحار طيب القلب، كان قد ربط نفسه إلى الصاري، وبما ان المكان لم يكن متسعا لكليهما رمى اليه بحبل وصاح به ان يوثق نفسه إلى باب، اقتلعته العاصفة آنذاك من طرف المؤخرة، ومن حسن حظ روبارتو بعد ذلك، ان انساب الباب من الحاجز وهو متعلق به كالطفيلي، لأنه في تلك الأثناء انقسم الصاري إلى نصفين، وهوى الدوقل على رأس الرجل الذي أسعفه فشطره.

ومن فتحة في جانب السفينة، رأى روبارتو، أو خيل له انه رأى، جزرا من أشباح تجوب تلك التلال المائية، وهذا يبدو لي من قبيل الاستسلام للعبارة المتحذلقة. ولكن لا علينا، الواقع ان أماريلّي مالت إلى ناحية الغريق وقد استهواها الغرق، وانساب روبارتو مع لوحته في لجّ وشاهد، في نزوله إلى الأعماق، المحيط قد تحرر من قيوده وتعالى يماثل الجبال الوعرة، وفي انحدار القمم رأى اهراما تسقط، واذا به يرى نفسه كوكبا مائيا يسري في مدار إعصار تلك السماوات المبلّلة. وبينما كانت كل موجة تشع بنور متقطع، كان يميل بخار هنا وتغلي دوامة هنالك وتنفتح هوّة. فيالق من الشهب المجنونة تتعاقب في الأجواء المتمردة تكسرها الرعود، والسماء تتتالى عليها أنوار بعيدة وظلمات متساقطة، وقال روبارتو انه رأى جبال الألب تكسوها الرغوة وسط أغوار مزبدة قد تحولت إلى بيادر، والآلهة «سيريس» مكللة بالأزهار وسط بيارق من اللازورد، ومن حين لآخر تتهاوى مزمجرة احجار الياقوت، كما لو ان البنت الأرضية «بروزاربين» قد استولت على القيادة بعد ان طردت أمها المثمرة.

وبينما كانت الوحوش تزأر من حوله في حين تغلي السوائل الفضية

في يأسها العاصف، كف روبارتو فجأة عن متابعة المشهد، الذي أصبح فيه ممثلا فاقد الحس، وهوى لا يعي من نفسه شيئا. غير انه بعد ذلك كما توقع ربما في حلمه سايرت اللوحة تلك الرقصة، إما بمشيئة من الرحمة الإلهية، أو بقانون يحكم الأشياء العائمة، وكما غاصت في الأعماق، صعدت طبيعيا لتطفو، منساقة إلى دوران بطيء ـ بما انه حتى في غضب العناصر تنقلب قواعد الرقصات المتعاقبة ـ أبعدها بدوائر كانت تتسع شيئا فشيئا عن بجرة الدوامة، بينما هوت فيها، مثل خذروف بين أيدي أطفال «ايولو»، أماريلي التعيسة وطرف مقدّمتها إلى السماء. وهوت معها جميع الكائنات الحية التي كانت تسكن في جوفها، ذلك اليهودي الذي قدر عليه ان يجد في القدس السماوية تلك القدس الأرضية التي لن يصلها أبدا، وذلك الفارس المالطي الذي سيبقى ابد الدهر بعيدا عن جزيرة «اسكونديدا»، والدكتور بيرد وأصحابه وأخيرا ـ بعد ان انقذته الطبيعة الرحيمة من منافع الفن الطبي ـ ذلك الكلب المسكين المجرّح إلى ما لا نهاية له، والذي لم اتمكن بعد من الحديث عنه لأن روبارتو سيكتب بشأنه فيما بعد.

بإيجاز، أظن ان الحلم والعاصفة أثَّرا على نوم روبارتو تأثيرا جعله لا يدوم الا وقتا وجيزا، عقبه أرق عدواني. وفعلا، بعد أن قبل فكرة أن في الخارج نهارا، معزيا نفسه ان قليلا من النور فحسب ينفذ من بلور طرف المقدّمة، اقتنع انه بإمكانه ان ينزل تحت سطح السفينة من سلم داخلي. عند ذلك تشجع وأخذ سلاحه ثم مضى بخوف جسور لاكتشاف مصدر تلك الأصوات الليلية.

أو بالأحرى، لم يذهب في الحال. أرجو المعذرة، ولكن روبارتو في سرد قصته على حبيبته هو الذي يتناقض ـ وهذا يدل على انه لا يقص ما حدث له بحذافيره، ولكنه يحاول ان يصوغ رسالته في شكل قصة، أو بالأحرى، في شكل مزيج سيصير بعد ذلك ربما رسالة

وقصة، ويكتب دون ان يقرر ماذا سيختار، ويرسم ان أردنا قطع رقعته دون ان يحدد حالا ما سيحرك منها وكيف سينظمها.

في احدى رسائله يقول انه خرج ليغامر بالنزول تحت السطح. ولكنه في رسالة أخرى يقول انه حالما ايقظه ضياء الصباح بلغ سمعه مزيج من الألحان آت من بعيد. كانت أصوات آتية دون شك من الجزيرة. في باديء الأمر تصور روبارتو زمرة من اهالي الجزيرة مجمعة فوق زوارق طويلة تتأهب للهجوم على السفينة، وشد بقوة على بندقيته، ثم بدا له ان الأصوات المختلطة كانت ذات طبيعة مسالمة.

كان الوقت فجرا، وأشعة الشمس لم تضرب بعد زجاج النوافذ: تحول إلى الرواق، وبلغت خياشيمه رائحة البحر، ففتح قليلا مصراع النافذة، وبعينين نصف مغمضتين حاول التحديق في الساحل.

فوق أماريلّي، حيث كان لا يصعد فوق السطح خلال النهار، سمع روبارتو البحارة يتكلمون عن أسحار ملتهبة كما لو ان الشمس كانت تتلهف لضرب الأرض بأشعتها، بينما الآن كان يشاهد دون ان تدمع عيناه ألوانا من البستل: السماء ملبدة بغيوم قاتمة موشحة الأطراف قليلا ببياض لؤلؤي، بينما كان ظل رقيق أو شبح وردة يصعد من خلف الجزيرة، التي كانت تبدو فيروزية اللون فوق صفحة من الورق الخشن.

ولكن تلك اللوحة التي تكاد توحي بمنظر شمالي كانت كافية ليتيقن ان ذلك الرسم، الذي بدا له منسجما أثناء الليل، كان يتبع حدود تل غابي ينتهي بانحدار سريع إلى حزام ساحلي تغطيه أشجار عالية، بينما خط من النخيل كان يتوج الشاطيء الأبيض.

كانت الرمال تزداد ضياء، وعلى طول السواحل كانت تظهر على الحواف شبه عناكب عظيمة حنطت بينما كانت تحرك قوائمها العظمية في الماء. بدت لروبارتو من بعيد وكأنها « نبات متنقل»، ولكن في تلك الآونة اصبح انعكاس النور على الرمال قويا فتقهقر إلى الداخل.

واكتشف انه حيث كانت لا تفيده عيناه، كان سمعه يفيده، وعهد بنفسه إلى السمع، مغلقا تماما أو يكاد مصراع النافذة ومرهفا سمعه إلى الأصوات الآتية من اليابسة.

ومع انه كان متعودا على طلوع الفجر في الهضبة التي نشأ فيها، انتبه إلى انه للمرة الأولى في حياته يسمع حقيقة شدو الطيور، وانه على كل حال لم يسمعها ابدا بذلك العدد وبذلك الاختلاف.

كانت آلاف الطيور تحيي بزوغ الشمس: وبدا له انه يسمع وسط صياح الببغاء، شدو العندليب، والشحرور، والعلعلة، وعدداً لا حد له من الخطاف، وحتى الأصوات الحادة التي يلقي بها الزيز والجدجد، متسائلا ان كان يسمع حقيقة حيوانات من تلك الفصيلة، ام انها قريباتها في المتقاطرات... كانت الجزيرة بعيدة، ومع ذلك شعر وكأن الأصوات تحمل معها رائحة ليمون وريحان، كما لو كان هواء الخليج كله مشبعا بالعطر ـ ولم لا بما ان السيد ديفبي حكى له ذات مرة كيف انه، في احدى رحلاته، أحس بقرب اليابسة من خلال ذرات فائحة تحملها الرياح...

ولكنه، في حين كان يستنشق تلك الروائح كان يولي سمعه إلى تلك الجموع الخفية، كأنما من خلال شرفات القلعة أو كوات الحصن كان ينظر إلى جيش صاخب يتخذ مواقعه في شكل نصف دائرة على منحدرات الهضبة، وفي السهل المواجه، وعلى طول النهر الذي يحمي الأسوار، وانتابه شعور بأنه رأى من قبل ذلك الذي كان سمعه يوحي به، وإزاء الفضاء اللامتناهي الذي كان يحاصره أحس بنفسه محاصرا وكاد، مدفوعا بالغريزة، ان يصوب بندقيته. ها هو الآن في «كزالي»، وأمامه يمتد الجيش الإسباني، بضجيج عرباته، ودق أسلحته، وأصوات القشتاليين الصادحة، وصياح النابوليين، ونخير المرتزقة الألمان الخشن، وأصوات أبواق كانت تصل من بعيد ضعيفة، وبعض طلقات قريبة

ضائعة في الهواء، طق،بوف،طا ـ بوم، كالمفرقعات في حفلة بعض الأولياء الصالحين.

كان وكأن حياته انقضت بين حصارين، احدهما صورة من الآخر، مع الفارق الوحيد ان النهر الآن،في التئام دائرة عقدين وفيرين، كان أوسع بكثير وفي شكل دائرة هو الآخر ـ مما يحول دون أي امكانية للخروج ـ وهكذا عاش روبارتو من جديد أيام «كزالي».

2

حول ما حدث في «مونفيرّاتو»

لا يمدّنا روبارتو الا بالشيء القليل عن الست عشرة سنة من حياته قبل تلك الصائفة من سنة 1630. ولا يذكر أحداثا من الماضي الا عندما يبدو له انها تبرز علاقة مع حاضره فوق دافني، ومن يدوّن روايته الشحيحة ينبغي عليه ان يقرأ بين طيّات خطابه. ولو نحا أحد منحاه، لبدا مثل كاتب يريد ان يؤخر الكشف عن القاتل، فلا يمنح القارىء الاّ معلومات قليلة. وهكذا أسرق أنا بعض الإشارات، مثل واش نمّام.

كانت عائلة «بوتسو دي سان باتريتسيو" تنتمي إلى النبالة الصغيرة وتملك أراضي «لاغريف" على حدود مقاطعة «اليساندريا" (في ذلك الوقت كانت جزءا من دوقية ميلانو، واذن ترابا اسبانيا)، ولكن ربما من حيث الجغرافيا السياسية أو الإرادة الشخصية كانت تعتبر خاضعة لمركيز «مونفيرّاتو». وأبوه ـ الذي كان يستعمل الفرنسية مع زوجته، واللهجة العامية مع الفلاحين، والإيطالية مع الأجانب ـ كان مع روبارتو يتكلم بطرق مختلفة حسب ما يمليه الوضع، إن كان يلقنه ضربة سيف، أو يحمله معه على جواده عبر الحقول وهو يلعن الطيور التي تضر بالمحصول. ما عدا ذلك كان الولد يقضي وقته دون رفقة خلاّن، متخيّلا أماكن بعيدة عند تجواله المضجر عبر الكروم، متصورا نفسه يصطاد بالباز بينما كان يتصيّد الخطاف، ويصارع التنين بينما كان يلعب مع

الكلب، ويحلم بكنوز خفية بينما كان يستكشف قاعات القليعة أو القلعة المتواضعة التي كانت محل سكناهم. وكانت تذكي شرود خياله تلك الروايات والأشعار الفروسية التي كان يعثر عليها مغبّرة في البرج الجنوبي.

لم يكن إذن عديم الثقافة، بل كان لديه مدرّس، حتى وان كان يأتيه بين فصل وآخر. كان المدرس كرمليّاً، يقال انه سافر إلى الشرق - ثم تضيف امه بصوت خافت بعد رسم علامة الصليب - حيث يتهامس البعض انه اعتنق الديانة الإسلامية، وكان يصل مرة في العام إلى الضيعة مع خادم واربعة من الحمير محملة بالكتب وبأوراق أخرى، وتدوم إقامته هنالك ثلاثة أشهر. لا أدري ماذا كان يلقن تلميذه، ولكن عندما وصل روبارتو إلى باريس كان يترك اثرا طيبا حيثما حلّ، وعلى كل حال كان يتعلم بسرعة كلّ ما كان يسمع.

حول هذا الكرمليّ نعرف شيئا واحدا، وليس من قبيل الصدفة ان يذكر روبارتو ذلك. ذات يوم بينما كان بوتسو الأب ينظف سيفه اذ جرح نفسه، ولعل السيف كان صدئا، أو ان الضرر مس جزءا حساسا من اليد أو من الأصابع، لأن الجرح كان مؤلما جدا. عند ذلك أخذ الكرمليّ السيف، ونثر عليه مسحوقا كان يحتفظ به في حقة صغيرة، وعلى الفور أكد السيد بوتسو انه أحس ببعض الراحة. ومهما كان الأمر بدأ الجرح يلتئم منذ اليوم الموالي.

وسرّ الكرمليّ باندهاش الجميع، وقال ان عالما عربيا أطلعه على سر تلك المادة، وانه دواء أقوى بكثير من ذلك الذي يسميه الكيميائيون المسيحيون «unguentum armarium». وعندما سألوه لماذا لا يوضع المسحوق فوق الجرح وإنما فوق الشفرة التي كانت سببا فيه، أجاب ان الطبيعة تعمل بتلك الطريقة، ومن بين قواها الكبيرة نجد الجاذبية الكونية التي تحكم القوى عن بعد. وأضاف انه إن كان يبدو من الصعب قبول ذلك فيكفي ان نفكر في المغناطيس، وهي حجرة تجذب اليها سحالة

المعدن، أو في جبال الحديد العظيمة، التي تغطي شمال كوكبنا، وتجذب ابرة البوصلة. وهكذا يفعل «المرهم السلاحي»، في التحامه الوثيق بالسيف، يجذب اليه فاعلية الحديد التي تركها السيف في الجرح والتي تحول دون شفائه.

ومن كان في طفولته شاهدا على مثل هذه الأحداث، لا يمكن الا ان يبقى متأثرا بها طول حياته، وسنرى بعد قليل كيف ان مصير روبارتو سيتحدد من خلال اهتمامه بجاذبية المساحيق والمراهم.

ومن ناحية أخرى ليس هذا الحدث هو الذي أثر أكثر في طفولة روبارتو. هناك حدث آخر، وفي حقيقة الأمر ليس حدثا، بل هو نوع من الترداد ترك في نفس الولد اثر ارتياب. يبدو إذن ان اباه، الذي كان دون شك يكنّ حبا عميقا لابنه حتى وان كان يعامله بتلك الفظاظة المعهودة في رجال تلك البقاع، كان احيانا ـ خاصة في السنوات الخمس الأولى من حياته ـ يرفعه من الأرض صائحا باعتزاز: «أنت بكر أولادي!» لا غرابة في ذلك، في الحقيقة، ما عدا عيب طفيف يميل إلى الإسهاب، بما ان روبارتو كان الإبن الوحيد. الا انه مع تقدمه في السن بدأ روبارتو يتذكّر (أو اقتنع بأنه يتذكر) انه عند عبارات الزهو الأبوي تلك كان وجه أمه يتغير بين منشغل وسعيد، كما لو ان اباه كان يحسن بقول تلك الجملة، ولكن تكرارها ربما كان يحيي فيها ألما قديماً. وتاه خيال روبارتو كثيرا حول نبرة تلك الجملة، مستخلصا ان أباه لم يكن ينطق بها كحقيقة بديهية بل كتوظيف جديد، مفخما كلمة «أنت»، كما لو أراد ان يقول: «أنت، ولا أحد آخر غير انت، ابني البكر».

لا أحد آخر أو ليس الآخر؟ في رسائل روبارتو نجد دائما اشارات إلى شخص «آخر» يستحوذ على فكره، ويبدو ان هذه الفكرة نشأت لديه في ذلك الوقت، عندما اقتنع (وبماذا سيحلم طفل تائه بين ابراج قلعة مليئة بالخفافيش، والكروم، والعظايا والخيول، لا صلة له بأبناء الفلاحين من سنه لأنهم دون منزلته، وعندما كان لا يصغي لخرافات

جدته كان يصغي لخرافات الكرمليّ؟) انه في مكان ما يطوف أخ له آخر غير معترف به، ذو طبيعة ربما شريرة، بما ان أباه طرده. في بداية الأمر كان روبارتو صغير السن، ثم صار من الحياء لا يتجرأ على السؤال ان كان هذا الأخ من جهة أبيه أم من جهة أمه (وفي كلتا الحالتين سيمتد على أحد الأبوين ظل هفوة قديمة لا تغتفر): كان على كل حال أخا، (ربما ذو طبيعة خارقة للطبيعة) وكان بدون شك مذنبا ويستحقّ ان يجازى بالطرد، وأكيد انه لهذا السبب بالذات كان يكره روبارتو، الإبن المفضل.

وشبح هذا الأخ العدو (الذي كان يود مع ذلك ان يتعرف عليه لمبادلته المحبة) كدّر عليه ليالي طفولته؛ بعد ذلك، عندما بلغ طور المراهقة، كان يتصفح في المكتبة مجلدات قديمة ليعثر بين صفحاتها على ورقة مخبأة، على صورة أو على شهادة سلمها القسّ، أو على اعتراف صريح. وكان يتجول في تسقيفات القصر ويفتح خزائن قديمة مليئة بأثواب كانت لأجداد أجداده، فيعثر فيها على أوسمة غطاها الصدأ أو على خنجر عربي ويتوقف مسائلا بأصابعه المرتبكة أقمصة من الكتان الخفيف لفت دون شك فيما مضى رضيعا، ولكن من يدري ان كان قبل ذلك بسنوات أو بقرون.

وانتهى به الأمر شيئا فشيئا إلى أن اعطى لذلك الأخ المفقود اسما، «فيرّانتي»، وتعود على ان ينسب اليه هفوات صغيرة كانوا يتهمونه بها ظلما، كسرقة بعض الحلويات أو فك كلب من سلسلته. فيرّانتي، بفضل انعدام وجوده كان يعمل من ورائه، وكان هو يختفي وراء فيرّانتي. بل وأكثر، شيئا فشيئا تحولت العادة في ان ينسب إلى اخيه اللاموجود الأفعال التي لم يرتكبها، إلى عادة اخرى تكمن في ان ينسب روبارتو اليه تلك الأفعال التي ارتكبها حقيقة، والتي ندم على ارتكابها.

ولا يعني ذلك ان روبارتو كان يكذب: ففي حين كان ينال صامتا

وعيونه تكبت بكاءه ـ العقاب جزاء الغلطات التي اقترفها، فقد كان بوسعه ان يقنع نفسه بانه بريء وان يحس بنفسه ضحية ظلم سافر.

ذات مرة، مثلا، اراد روبارتو ان يجرب فأسا جديدة سلمها الحداد منذ قليل، وليثأر أيضاً لنفسه لا أدري من أي مظلمة، قطع شجيرة مثمرة كان ابوه قد زرعها وعقد عليها آمالا كبيرة في الفصول القادمة. وعندما تفطن روبارتو إلى شناعة فعلته، تصور ان العقاب سيكون شديدا، اقل ما يمكن تصوره انه سيباع إلى الأتراك الذين سيحملونه ليجذف على مراكبهم، وفكر في الفرار ليقضي بقية حياته متشردا فوق الهضاب. وأخذ يبحث عن مبرر، واقتنع بسرعة ان من قطع الشجرة كان بكل تأكيد فيرّانتي.

ولكن أباه، عندما تفطن للجرم، جمع كل اطفال الضيعة وأعلن انه لتفادي سخطه الأعمى من الأفضل ان يعترف الجاني بفعلته. عند ذلك أحس روبارتو بشفقة كريمة تغمره: لو اتهم فيرّانتي فسيتكبد المسكين عناء طرد جديد، في نهاية الأمر كان ذلك البائس يرتكب المعاصي لسد نقص حنان ابويه اللذين تركاه وأغدقا حنانهما على طفل آخر... تقدم إذن خطوة إلى الأمام وأعلن وهو يرتعد من الخوف والاعتزاز انه لا يريد ان يُتهم شخصاً آخر عوضه. واعتبر هذا التأكيد، حتى وان لم يكن كذلك، على انه اعتراف. عند ذلك قال ابوه، وهو يمسح شاربه وينظر إلى زوجته وبعد نحنحات طويلة وعميقة، ان الجرم دون شك فظيع، والعقاب لا مفر منه، ولكن ليس بوسعه الا ان يقدر سلوك «السيد دي لاغريف» الأصغر، الذي شرَّف تقاليد العائلة، وانه هكذا ينبغي ان يتصرف كل رجل نبيل، حتى وان كان في سن الثامنة. ثم اصدر حكمه معلنا ان روبارتو لن يشارك في زيارة منتصف اغسطس إلى ابناء عمه من آل سان سلفاتوري، وهي دون شك عقوبة صارمة (يوجد في سان سلفاتوري كويرينو، وهو زارع كروم كان كل مرة يرفع روبارتو فوق تينة عالية جداً)، ولكنها بكل تأكيد أخف من التجذيف فوق مراكب سلطان الأتراك.

تبدو لنا الحكاية بسيطة: الأب فخور لأن له ابنا لا يكذب، وينظر إلى الأم برضى لا يخفى عن أحد، ويعاقبه عقابا خفيفا يكفي لإنقاذ المظاهر. الا ان روبارتو نسج طويلا حول هذا الحدث، مستخلصا ان اباه وامه تفطنا بكل تأكيد إلى ان الجاني هو فيرّانتي، وانهما اعجبا بالبطولة الأخوية التي اظهرها ابنهما المفضل، وشعرا بالراحة لأن سرّ العائلة لم يكشف.

ربما غاليت في استغلال بعض الإشارات، ولكن حضور هذا الأخ الغائب سيكون له وزن في هذه القصة. سنجد من هذه اللعبة الصبيانية اثرا في سلوك روبارتو الرجل ـ أو على الأقل لدى روبارتو عندما نجده فوق دافني، في ظرف، والحق يقال، يدخل البلبلة على كل عاقل.

وعلى كل حال أنا أهذي ؛ يجب ان نحدد كيف وصل روبارتو إلى حصار «كزالي». وهنا يستحسن ان نطلق عنان الخيال وان نتصور كيف يمكن ان يكون حدث كلّ ذلك.

لم تكن الأنباء تصل إلى «لاغريف" بسرعة كبيرة، ولكن منذ سنتين على الأقل كان الجميع يعرف ان الخلافة على دوقية «مانتوفا" كانت تثير العديد من المشاكل في «مونفيرّاتو»، مما أدى إلى شبه حصار. باختصار ـ وهي واقعة قصها آخرون من قبل، وان كان بطريقة غير متكاملة ـ في ديسمبر من سنة 1627 توفي الدوق فينشانسو الثاني دي مانتوفا، وحول فراش موت ذلك الفاسق الذي لم يعرف كيف ينجب أبناء التأم حفل يضم اربعة طامحين في الخلافة، مع اعوانهم وحماتهم. انتصر من بينهم مركيز سان شارمون الذي تمكن من اقناع فينشانسو ان الإرث من نصيب ابن عم له من فرع فرنسي، كارلو دي قونزاقا، دوق نيفارس. وفينشانسو الشيخ، بين شهقة وأخرى، زوّج أو ترك نيفارس يتزوج ابنة اخته ماريا قونزاقا، ولفظ انفاسه الأخيرة تاركا له الدوقية.

الخلاصة، ان نيفارس كان فرنسيا، والدوقية التي ورثها تشتمل

أيضاً على مركيزية «مونفيرّاتو» بعاصمتها «كزالي»، أعظم القلاع شأنا في ايطاليا الشمالية. ونظرا لموقعها بين منطقة ميلانو الخاضعة لإسبانيا وأراضي آل سافويا، كانت «مونفيرّاتو» تضمن مراقبة المجرى الأعلى لنهر «بو»، والممرات بين جبال «الألب» والجنوب، والطريق بين ميلانو وجنوة، وتفصل كوسادة واقية بين فرنسا واسبانيا ـ اللتين كانتا لا تثقان بتلك الوسادة الأخرى أي دوقية سافويا، حيث كان كارل ايمانويال الأول ينتهج سياسة اقل ما يقال فيها انها مزدوجة. لو استحوذ نيفارس على «مونفيرّاتو» فسيكون كما لو امتلكها ريشليو؛ فكان من الطبيعي إذن ان تفضل اسبانيا ان يكون احد آخر سيداً على تلك البقاع، لنقل مثلا دوق قواستالاّ. هذا مع اعتبار ان لدوق سافويا أيضاً بعض الحق في الخلافة. ولكن بما ان هناك وصية، والوصية تعين نيفارس، لم يبق للمطالبين الآخرين الا الأمل في ان لا يصادق الإمبراطور الجرماني الروماني المقدس على الخلافة، إذ كان دوق مانتوفا شكليا من إقطاعييه.

إلا ان صبر الإسبانيين نفد، وفي انتظار ان يتخذ الإمبراطور قراره، تم حصار «كزالي» ،مرة اولى على يد قونزالو دي قرطبة والآن، للمرة الثانية، من قبل جيش كبير من الإسبان ومن الإمبراطوريين يقودهم سبينولا. وفي الأثناء استعدت الحامية للصمود، في انتظار وصول قوة فرنسية لنجدتها، كانت في مهمّة في الشمال، والله وحده يدري ان كانت ستصل في الوقت المناسب.

كانت الأمور على هذه الحال عندما جمّع السيد بوتسو في منتصف أفريل امام القصر الشبان من بين خدمه والناشطين من بين فلاحيه، وفرق عليهم كل الأسلحة الموجودة في الضيعة، ثم نادى روبارتو وتوجه إلى الجميع بهذا الخطاب، الذي أعده حسب اعتقادي أثناء الليل: «ايها الناس، استمعوا. ان أرض «لا غريف» هذه دفعت الخراج منذ قديم الزمان إلى مركيز مونفيراتو، الذي اصبح منذ وقت قليل بمثابة دوق مانتوفا، الذي هو الآن السيد دي نيفارس، ومن يقول لي ان نيفارس

ليس مانتوفانياً ولا مونفيرانتياً سيذوق استه طعم ركلاتي، لأنكم أغبياء جاهلون ولا تفهمون من هذه الأشياء شيئا ولذا من الأفضل ان تغلقوا افواهكم وان تتركوا الأمر لسيدكم لأنه هو على الأقل يفهم ما معنى الشرف. وبما انكم تضعون الشرف في ذلك الموضع الذي يعرفه الجميع، اعلموا انه لو وصل الإمبراطوريون إلى «كزالي» فهؤلاء لا يقدرون لأحد قدرا، ستذهب كرومكم رمادا اما عن نسائكم فمن الأفضل ان لا أقول شيئا. ولذا سنذهب للدفاع عن «كزالي». وأنا لا أرغم أحدا. فإن كان هنا جبان متخاذل لا يشاطرني الرأي ليتكلم حالا وسأشنقه إلى شجرة البلوط تلك». لا احد من الحاضرين كان قد شاهد رسوم كايّو التي تمثل عناقيد من العباد مثلهم مشنوقين إلى أشجار اخرى، ولكن شيئا من ذلك مّر بخيالهم: رفع جميعهم ما كان لديهم من سلاح، بندقية كانت أو معولا أو عصا طويلة شد اليها منجل وصاحوا بصوت واحد لتحيا «كزالي»، الموت للإمبراطوريين.

وبينما كان السيد بوتسو وروبارتو يشقان الهضاب على فرسيهما يتبعهما جيشهما الصغير على الأقدام قال الأب: «يا ولدي، ان نيفارس هذا لا يساوي خصية من خصيتيّ، وفينشانسو عندما عيّنه على الدوقية اضافة إلى ان ذكره كان عاجزا فقد صار مخّه أيضاً عاجزا، والحقيقة انه كان عاجزا من قبل. ولكنه عيّن نيفارس لا ذلك الأحمق قواستالا، وآل بوتسو هم مقطعو اسياد «مونفيرّاتو» الشرعيين منذ العهود الغابرة. ولذا سنذهب إلى «كزالي» وان اقتضى الأمر سنضحي هنالك بحياتنا لأنه، تبّا لهذه الدنيا الغادرة، ليس معقولا ان نبقى مع شخص ما دامت الظروف طيبة ثم نهجره عندما يجد نفسه في البراز حتى العنق. ولكن لو أمكننا ان ننجو بحياتنا فسيكون ذلك أفضل، إذن كن يقظا».

كانت رحلة اولئك المتطوعين، من حدود جهة «اليساندريا» إلى «كزالي»، دون شك أطول رحلة عرفها التاريخ. كانت الفكرة التي اعتمدها السيد بوتسو في حد ذاتها مثالية: «انني أعرف الإسبان»، هكذا قال، «وهم

اناس يحبذون السفر المريح. واذن سيتجهون نحو «كزالي» عابرين السهل من جهة الجنوب، تيسيرا لمرور العربات والمدافع والآلات الحربية المختلفة. واذن لو اتجهنا نحن، حالا قبل الوصول إلى «ميرابولّو»، نحو الغرب ومررنا عبر الهضاب، سنمشي يوما أو يومين اضافيين، ولكننا سنصل دون ان تعترضنا صعوبات، وقبل ان يصل العدو».

ولكن لسوء الحظ كان سبينولا ذا افكار ملتوية بخصوص الكيفية التي يقام بها الحصار، وفي حين استحوذ في جنوب شرقيّ «كزالي» على «فالنسا» و «أوتشيميان»، كان قد أرسل منذ بضعة اسابيع إلى غرب المدينة دوق لارما، اوتافيو سفورتسا والكونت دي جامبورغ، مع حوالي سبعة آلاف من المشاة، لمحاولة الاستيلاء على قلاع «روزينيانو»، «بونتاستورا» و «سان جيورجيو»، لمنع وصول اية اغاثة من قبل القوات الفرنسية، وفي الآن نفسه أغلق الكماشة والي «أليستاندريا»، دون جيرونيمو أوغوستان، قادما من الشمال بعد عبور نهر «بو» نحو الجنوب، مع خمسة آلاف رجل. واصطفوا كلهم على طول المسافة التي كان السيد بوتسو يظنها بكل سذاجة خالية. ولم يكن بإمكان رجلنا النبيل، عندما أخبره بعض الفلاحين بحقيقة الوضع، ان يغير طريقه، لأن الإمبراطوريين كانوا أكثر عددا شرقا ممّا كانوا عليه غربا.

وقال بوتسو بكل بساطة: «لن نغير مسيرتنا ولو خطوة. أنا أعرف هذه البقاع احسن منهم، وسننساب بينهم مثلما ينساب النمس». وهذا يعني ان مسيرتهم دارت والتوت كثيرا. ناهيك أنهم من كثرة الدوران اعترضوا حتى فرنسيّو «بونتاستورا»، الذين كانوا في الأثناء قد سلموا انفسهم، وحتى لا يذهبوا إلى «كزالي»، سمح لهم بالنزول إلى «فينالي»، ومن هنالك بامكانهم شق البحر نحو فرنسا. وجماعة لاغريف اعترضوا في ضواحي «اوتيليا»، وكادوا يتبادلون الطلق الناري، وقد ظن كلاهما ان الآخرين اعداء، وعرف بوتسو من طرف قائدهم ان من بين

شروط الاستسلام بيع قمح «بونتاستورا» للإسبان، ويتولى الأخيرون ارسال المقابل من النقود إلى الكزاليين.

«الإسبان اسياد نبلاء، يا ولدي»، أعلن بوتسو، « ومحاربتهم يقبلها المرء بكل سرور. من حسن الحظ اننا لسنا في عهد شارلمان وحربه ضد العرب عندما كانت الحرب تقتيلا من الجانبين والمنتصر هو من يقتل أعداء اكثر من منافسه. هذه حروب بين مسيحيين متحضرين، ايه والله ! الآن اولئك منشغلون في «روزينيانو»، نحن سنمرّ من خلفهم، وسنتسلّل بين «روزينيانو» و «بونتاستورا»، وسنكون في «كزالي» في ظرف ثلاثة ايام».

كان هذا الحديث في أواخر أفريل، وبوتسو وجماعته أشرفوا على كزالي في الرابع والعشرين من ماي. كانت، على الأقل في ذكرى روبارتو، مسيرة لا تنسى تركوا فيها الطرقات والدروب وشقوا الحقول، وقد قال السيد بوتسو ان الحرب تتلف كل شيء، وان لم نتلف نحن المحصول فسيتلفه الآخرون. ولسدّ رمق المحاربين اغاروا على ضيعات الكروم، والغلال ومرابض الدجاج: ومن الطبيعي، أكّد بوتسو، بما ان هذه الأرض تابعة «للمونفيرّاتو»، ان تغذي مدافعيها. وعندما احتج فلاح من «مونبيلو» أمر بإعطائه ثلاثين جلدة، قائلا انه اذا انعدم الإنضباط خلال الحرب فسينتصر فيها الآخرون.

أما روبارتو فقد بدأت الحرب تبدو له تجربة جميلة؛ كانت تصله من المسافرين والرحّل قصصاً ذات عبرة، مثل قصة ذلك الفارس الفرنسي الذي جرح وسقط اسيرا في «سان جيورجيو»، واشتكى ان جنديا سرق منه صورة كانت غالية جدا عليه؛ وعندما سمع دوق لارما ذلك، امر ان تعاد اليه الصورة، ثم عالجه وارسله على جواد إلى «كزالي». ومن ناحية أخرى، حتى وان قام بدورات ومنعرجات لا تنتهي مما تضيع معها تماما قدرة التوجه، فقد تمكن السيد بوتسو من ان لا ترى جماعته إلى تلك الآونة حربا محاربة.

وتنفس الجميع الصعداء وقد غمرتهم لهفة من يريد المشاركة في حفل طال انتظاره عندما رأوا المدينة ذات يوم من قمة تل، يحدها من الشمال، على يسارهم، المجرى الواسع لنهر «بو»، الذي كان امام القلعة بالذات يحيط بجزيرتين صغيرتين وسط النهر، وتنتهي في جنوبها في شبه شوكة مع كتلة الحصن في شكل نجمة. كانت «كزالي» من الداخل تبدو بهيجة بأبراجها وأجراسها، ومن الخارج كانت تبدو بحق منيعة، بأبراجها العالية المدببة كأسنان المنشار، حتى انها تبدو مثل تلك التنانين الموجودة في الكتب.

كان حقيقة منظرا رائعا. حول المدينة، كان الجنود بأزيائهم المختلفة الألوان يجرون عربات حصارية، بين مجموعات من الخيام رفعت فوقها الأعلام وفرسان بقبعات مزدانة بالريش. ومن حين لآخر كنت ترى وسط اخضرار الغابة أو اصفرار الحقول ضياء ساطعا يخطف الأنظار، ليس الا لمعان دروع بعض الفرسان الأشراف الذين كانوا يتسلون تحت أشعة الشمس، ولا يدري أحد إلى أين كانوا متجهين، وربما كانوا يتراكضون لمجرد الاستعراض.

كان المنظر يبدو للجميع على غاية من الجمال، الا السيد بوتسو الذي انزعج وقال: «يا قوم، هذه المرة قضي الأمر فينا». وعندما سأله روبارتو لماذا، ضربه على رقبته قائلا: «لا تكن غبيا، هؤلاء هم الإمبراطوريون، أم أنك تظن ان الكزاليين بذلك العدد وانهم يتفسحون خارج الأسوار. الكزاليون والفرنسيون داخل المدينة يرصفون أكياس التبن ويبولون في سراويلهم من الخوف لأن عددهم لا يزيد عن الألفين، بينما هؤلاء تحت الأسوار يبلغ عددهم على الأقل مائة الف رجل، انظر أيضاً فوق تلك الهضبات المقابلة.» كان يغالي، لأن جيش سبينولا لا يزيد عن ثمانية عشر الفا من المشاة وستة آلاف فارس، ولكن ذلك يكفي ويزيد عن الحاجة.

فسأله روبارتو: «ماذا نفعل يا أبتاه؟» فأجاب الأب « ما نفعله هو

ان نتثبت جيدا من موقع اللوثريين، ليس بالإمكان المرور وسطهم: أولا، لا نفهم حرفا من حديثهم، وثانيا لأنهم يقتلونك ثم يسألونك من أنت. أنظروا جيدا اين يوجد أولئك الذين يبدون اسبانيين: كلّنا يعلم انهم أناس يمكن التفاوض معهم. وينبغي ان يكونوا اسبانيين من عائلات شريفة. في مثل هذه الحالات ما يهمّ أكثر هو التربية».

ثم أبصروا ممرا وسط معسكر يحمل رايات الإمبراطوريين، حيث تلمع دروع أكثر من باقي المعسكرات، ونزلوا مسلمين امرهم لله. وتمكنوا من المضي وسط الفوضى شوطا طويلا بين صفوف العدو، لأنه في ذلك الوقت لا يلبس الزي العسكري الا الفيالق المختارة مثل الفرسان الملكيين، اما ما عدا ذلك فلا تعرف من معك ومن ضدك. الا أنه، بعد هنيهة، وبينما لم يبق الا اجتياز منطقة ليست تحت سلطة أحد، اعترضتهم كتيبة متقدمة وأوقفهم ضابطها طالبا منهم بكل أدب من يكونون وإلى اين يذهبون، بينما وراءه كانت مجموعة من الجنود على اهبة.

قال بوتسو: «سيدي، ارجوك ان تتفضل وتتركنا نمرّ، مع العلم اننا سنذهب لنتخذ موقعنا حتى نتمكن بعد ذلك من محاربتكم». فخلع الضابط قبعته، وانحنى في تحية مسحت الغبار على بعد مترين وقال: «Senor, no es menor gloria vencer al enemigo con la cortesia en la paz que con las armas en la guerra». ثم أضاف بلغة ايطالية جيدة: «سيدي، تفضل. لو كان لربع رجالنا شجاعتك، فسيكون النصر من نصيبنا. ولترد السماء ان ألاقيك في ساحة القتال، وان يكون لي شرف قتلك».

فتمتم بوتسو بين اسنانه قائلاً: «Fisti orb d'an fisti secc,» وهي في لهجة بلدته عبارة تمنّ لا تزال مستعملة إلى الآن، يتمنى بها القائل، حسب التقريب، ان يحرم مخاطبه اولا من البصر ثم ان يختنق. ولكنه اجاب بصوت عال، مستنجدا بكل إمكانيّاته اللغوية وقدراته الخطابية: «Yo tambien !»، ورد التحية بقبعته ثم همز جواده، منطلقا بركض اقل

فخامة مما يتطلبه المقام، حتى يتسنى لرجاله ان يتبعوه على الأقدام، واتجه نحو الأسوار.

ثم قال ملتفتا إلى روبارتو: « قل ما تريد، ولكنهم اناس ذوو شرف» وكان من حسن حظه ان استدار اذ تفادى طلقة نارية آتية من الأسوار. عندئذ صاح قائلاً: «Ne tirez pas, cornichons, on est des amis, Nevers, Nevers!» والتفت إلى روبارتو قائلاً: «أرأيت، انهم ناكرو معروف. لست مخطئا، الإسبان أفضل منهم».

دخلوا المدينة. وكان أحدهم قد أعلن قدومهم إلى قائد الحامية، السيد دي تواراس، وهو رفيق سلاح قديم للسيد بوتسو. وتعانق الرفيقان طويلا ثم قاما بجولة فوق الأسوار.

«يا صديقي العزيز،» كان يقول تواراس «في دفاتر باريس يتضح انني املك خمسة أفواج من المشاة، كل فوج يتكون من عشر سرايا، بمجموع عشرة آلاف من المشاة. ولكن السيد دي لا قرونج لا يملك الا خمسمائة رجل، ومونشا مائتين وخمسين، وفي المجموع لا أحصل الا على الف وسبعمائة من المشاة. ثم لدي ست سرايا من الفرسان، أي اربعمائة رجل في الجملة، حتى وان كانوا مجهزين بصفة جيدة. والكاردينال يعرف ان لدي اقل ممّا يجب من الرجال، ولكنه يؤكد انني املك ثلاثة آلاف وثمانمائة رجل. أكاتبه مبينا له بكل ما املك من حجج ان الواقع عكس ذلك ونيافة الكاردينال يتظاهر بأنه لا يفهم. فالتجأت إلى تجنيد فوج من الإيطاليين كما أمكن، من «كورسيكا» و «مونفيراتو»، ولكن اعذرني لو قلت لك انهم جنود سيئون، وتصور انني أمرت الضباط بتأطير خدمهم في فوج مستقل. سيلتحق رجالك بفوج الإيطاليين، تحت أوامر القائد باسياني، وهو جندي ممتاز. سنرسل اليه أيضاً الشاب دي لا غريف، حتى يذهب للقتال وهو على علم بالأوامر. أما أنت، يا صديقي العزيز، فستلتحق بمجموعة من الأسياد الأشراف

الذين تطوعوا والتحقوا بنا، مثلما فعلت أنت، وهم تحت أوامري. وأنت تعرف البلاد جيدا وبإمكانك ان تمدني بنصائح ثمينة».

كان جون دي سان بوني، سيد تواراس، رجلا طويل القامة، اسمر اللون مع عينين زرقاوين، وكان في تمام نضج سنواته الخمس والأربعين، سريع الغضب ولكن كريم النفس مع ميل إلى المصالحة، خشن الطبع ولكنه في الجملة لطيف، حتى مع الجنود. وكان صيته قد ذاع عند الدفاع عن جزيرة «ري» اثناء الحرب ضد الإنجليز، ولكن يبدو انه كان غير محبوب من قبل ريشليو والبلاط. وكان أصدقاؤه يتناقلون قصة حوار دار بينه وبين رئيس القضاء دي مارياك الذي قال له يوما بكل احتقار انه يوجد الفا سيد من الأشراف في فرنسا قادرون على أداء المهمة بنفس النجاح في قضية جزيرة «ري»، وأجابه هو انه بالإمكان العثور على اربعة آلاف قادرين على إدارة العدل أفضل منه. ويسند اليه ضباطه ردا آخر ثاقبا (ولكن حسب آخرين قاله قائد اسكتلندي): في مجلس حربي دار في «روشال»، وضع الأب جيوزيبي، الذي كان الموجّه الخفي الشهير ويدعي المعرفة في الإستراتيجية، إصبعه على الخارطة قائلا «سنمرّ من هنا»، فأجابه تواراس بكل برودة: «أيها الأب الموقر، اصبعك مع الأسف ليس جسرا».

«هذا هو الوضع، يا صديقي العزيز،» كان تواراس يواصل حديثه وهو يطوف بالأسوار مشيرا إلى المنظر الطبيعي المحيط بالمدينة «المسرح رائع والممثلون من خيرة ما تملكه امبراطوريتان والعديد من السيادات: تصور، هنالك في الجبهة المقابلة يوجد فوج فلورنسي، ويقوده أيضاً سيد من عائلة ميديسيس. نحن نثق بكزالي، أعني المدينة: القلعة، التي نراقب منها جزءا من النهر، حصن منيع، يحميه خندق لا بأس به، وفوق الأسوار جعلنا سطحا يمكّن المدافعين من العمل في ظروف طيبة. والقلعة مجهزة بستين مدفعا وبأبراج محصنة لا ينقصها شيء. تشكو نقصا في بعض النقاط ولكنني قويتها بكوات ومدرعات. كل

هذا مناسب للصمود امام هجوم جبهي، ولكن سبينولا ليس من المبتدئين: أرأيت تلك التحركات هنالك، انهم بصدد اعداد انفاق ملغمة، وعندما سيصلون تحت الأسوار سيكون كما لو فتحت أمامهم الأبواب. لإيقاف الأشغال يجب ان نواجههم خارج الأسوار، ولكننا في تلك الحالة أضعف منهم. وما ان يحمل العدو تلك المدافع إلى موقع متقدم سيبدأ في قصف المدينة، وهنا يدخل في الاعتبار طبع الكزاليين، وأنا لا أثق به الا قليلا. ومن ناحية أخرى افهم موقفهم: يهمّهم انقاذ مدينتهم أكثر من السيد دي نيفارس وليسوا مقتنعين إلى حد الآن انه من الأفضل لهم ان يموتوا في سبيل الزنبق الفرنسي. ينبغي ان نفهمهم انه تحت آل سافويا أو تحت الإسبان سيخسرون حرياتهم و"كزالي» لن تبقى عاصمة بل ستصبح قلعة كالقلاع العديدة الأخرى مثل «سوزا»، التي يهمّ سافويا بيعها مقابل حفنة من النقود. ما عدا ذلك نرتجل، والا لن تكون كوميديا ايطالية. بالأمس خرجت مع اربعمائة رجل نحو «فراسينيتو»، حيث كان يتجمّع الإمبراطوريون، وارغمناهم على التراجع. ولكن بينما كنت منشغلا هنالك، احتل بعض النابوليين تلك الهضبة، في الشريط المقابل. أمرت بقصفهم بالمدفعية لمدة سويعات وأظن انني الحقت بهم اضرارا فادحة في الأرواح، ولكنهم لم يتركوا الهضبة. من خرج منتصرا ذلك اليوم؟ أقسم بسيدنا المسيح انني لا أدري، ولا حتى سبينولا يدري. ولكنني أعرف ماذا سنفعل يوم غد. أرأيت تلك البيوت هنالك في السهل؟ لو استولينا عليها لأمكننا ان نضرب عدة مواقع للعدو. لقد أخبرني جاسوس ان تلك البيوت خالية، وفي هذا دليل كاف للظن ان العدو مختبىء فيها ـ ولا تستغربن يا سيد روبارتو الشاب من سوء ظني به واعلم، كقاعدة اولى، ان القائد القدير يربح المعارك باستعمال الجواسيس استعمالا محكما، وكقاعدة ثانية، اعلم انه بما ان الجاسوس بطبيعته خائن، فمن المحتمل جدا ان يخون من يؤجره لخيانة ذويه. على كل حال، غدا سأرسل بعض المشاة لاحتلال تلك البيوت. عوض ان يبقى الجند خاملين داخل الأسوار، من الأفضل ان أعرضهم

لنار المعركة، وفي هذا تمرين جيد بالنسبة اليهم. لا تتسرّع يا سيد روبارتو، لم يأت بعد يوم مشاركتك: ولكن بعد غد سيتحتّم على فوج باسّياني ان يجتاز نهر «بو». أرأيتما تلك الأسوار هناك؟ انها جزء من حصن صغير شرعنا في بنائه قبل ان يصل هؤلاء. ضباطي لا يشاطرونني الرأي، ولكنني اظن انه من الأفضل ان نسترجعه قبل ان يحتلّه الإمبراطوريون. من هنالك سنضعهم تحت رحمة نيراننا، بطريقة تجعلنا نضايقهم ونؤخر بذلك بناء الأنفاق. بإيجاز، سيكون في كل هذا فخر للجميع. أما الآن فقد حان وقت العشاء. الحصار في بدايته ولا تنقصنا المؤن. سنأكل الفئران في وقت لاحق».

3

أروقة العجائب

ما معنى ان ينجو من حصار كزالي، اين نجا في نهاية الأمر من أكل الفئران، لينتهي به الأمر فوق دافني حيث سيصير هو ربما طعاما للفئران؟... فكر روبارتو مليا وبتخوف في هذا التناقض وتهيأ في نهاية الأمر لاستكشاف تلك الأماكن التي بلغته منها في الليلة الماضية تلك الأصوات الغريبة.

قرر ان ينزل من الكوثل، وان كان كل شيء في نفس موضع أماريلّي، فسيجد حوالي اثني عشر مدفعا على الجانبين، ومراقد أو أسرَّة البحارة المعلقة. دخل من حجرة الدفة إلى الغرفة الموجودة تحتها، يخترقها المقبض الذي كان يتأرجح بأنين ضعيف، وكان بإمكانه ان يخرج حالا من الباب الذي يفضي إلى الفضاء تحت سطح السفينة. ولكنه، كمن يريد ان يتعود على تلك المناطق العميقة قبل ان يواجه عدوه المجهول، واصل نزوله عبر فتحة ارضية إلى مكان سفلي كان من المفروض ان توجد فيه مؤن أخرى. ولكنه وجد هنالك، منظمة باقتصاد كبير في الفضاء، افرشة لحوالي اثني عشر رجلا. كان جل الطاقم إذن ينام هنا، كما لو كان باقي السفينة مخصّصاً لأغراض أخرى. كانت المضاجع في تمام النظام. هذا يعني، في حالة تفشي وباء، انه كلما توفي أحد قام الذين بقوا على قيد الحياة بترتيب كل شيء على أحسن

وجه، بطريقة تجعل الآخرين لا يتفطنون لأي شيء... ولكن، من قال ان النوتية هلكوا، جميعهم؟ ومرّة أخرى أقلقته هذه الفكرة: ان يقضي الطاعون على جميع البحارة، أمر طبيعي، وحسب بعض علماء اللاهوت يكون في بعض الأحيان مرسلا بحكمة من الإله؛ ولكنّ حدثا يجعل البحارة يفرون، تاركين السفينة في ذلك النظام اللاطبيعي، فذلك أمر يدعو حقيقة لانشغال اكبر.

ربما يكون تفسير كل ذلك تحت سطح السفينة. تسلّح روبارتو بما لديه من شجاعة، وصعد من جديد ثم فتح الباب المؤدي إلى ذلك المكان المخيف.

عند ذلك فهم روبارتو وظيفة تلك المشبكات العريضة التي تثقب سطح السفينة. بتلك الطريقة تحول ما تحت السطح إلى شبه رواق فسيح، يضيئه من خلال تلك الثقوب نور النهار الذي صار في أوجه والذي كان ينفذ جانبيا، يلاقيه النور الآتي من الكوات، وقد لوّنه بريق المدافع بشعاع ذهبي عنبري.

في بداية الأمر لم ير روبارتو شيئا غير رماح الشمس تتحرك فيها جسيمات لا نهاية لها، وعند رؤيتها لم يتمالك ان تذكّر (وكم يسهب في سرد ذكرياته العلمية، لإدهاش حبيبته، عوض ان يوجز القول) الكلمات التي كان قسّ «دينيو» يدعوه بها لمشاهدة شلالات النور المتدفقة في عتمة الكاتدرائية، تتحرك في داخلها الجموع اللامحدودة من العناصر الفردية، والبذور، والكائنات اللامتجزئة، وقطرات من البخور التي كانت تتفرقع تلقائيا، ذرات أولية تواجه حروبا، ومعارك ومناوشات في جموع تلتحم وتنفصل دون هوادة ـ دليل واضح على مكونات عالمنا هذا، الذي لا يعدو أن يكون اجساما فردية سابحة في الفراغ.

فورا بعد ذلك، كمن يريد ان يؤكد له ان الكون ليس الا رقصة ذرات سرمدية، أحس بنفسه وكأنه في بستان وأدرك انه، منذ دخوله إلى

ذلك المكان، هاجمته جملة من الروائح، أقوى بكثير من تلك التي كانت قد بلغته قبل ذلك من الساحل.

كانت حديقة، أو روضة مغطاة: هذا ما أنجز رجال دافني المختفون، في ذلك المكان من السفينة، لكي يحملوا إلى وطنهم أزهار ونباتات الجزر التي كانوا يزورونها، تاركين الشمس، والرياح والأمطار تنفذ وتحفظ النباتات على قيد الحياة. كيف تمكنت السفينة من الحفاظ طيلة أشهر عديدة على تلك الغنيمة النباتية، وكيف لم تسمّمها أول عاصفة بالملح، هذا ما كان روبارتو عاجزا عن تفسيره، ولكن من الأكيد ان تلك النباتات التي كانت لا تزال طرية وحية تؤكد ـ كما هو الأمر بالنسبة للطعام ـ ان حفظها قد تمّ منذ وقت قريب.

أزهار، ونباتات وشجيرات جلبت هنالك بجذورها وبترابها، ووضعت في سلال وصناديق صنعت بطريقة مرتجلة. ولكن الكثير من تلك الحاويات تآكلت، وانكب ترابها مكونا بين الواحدة والأخرى طبقة من التربة الرطبة بدأت تستقرّ فيها فروع بعض النباتات، حتى انه يخيل لك انك في عدن كانت تنشأ من نفس ألواح دافني.

لم تكن الشمس من القوة بحيث تقلق عيني روبارتو، إلا ان نورها كان كافيا لإبراز ألوان الأوراق ولتفتح الأزهار الأولى. وسقط نظر روبارتو على ورقتين كانتا من أول وهلة تشبهان ذيل جراد البحر، تنشأ منهما زهور بيضاء، ثم تحول إلى ورقة ذات اخضرار لين تتولد منها شبه نصف زهرة وسط جنبة من العناب في لون العاج. وجلبته نفحة قوية نحو أذن صفراء غرست فيها سبلة صغيرة، وبجانبها كانت تتساقط اكاليل من قوقعات خزفية ناصعة ذات طرف وردي، ومن عنقود آخر كانت تتدلى مزامير أو نواقيس مقلوبة، تبعث برائحة طحلب خفيفة. ورأى زهرة في لون الليمون سيلاحظ، خلال الأيام القادمة، تغير ألوانها، لأنها ستصبح في لون المشمش في العشية ثم حمراء قانية عند غروب الشمس، وأزهاراً أخرى، وسطها في لون الزعفران، ثم تميل إلى بياض

الزنبق. واكتشف ثمارا ذات غلاف خشن لم يكن ليجرؤ على لمسها لو لم تسقط احداها على الأرض وتنفلق من فرط نضجها كاشفة عن باطن في لون الرمان. وأقدم على تذوق غلال اخرى، وحكم على طعمها باللسان الناطق اكثر منه باللسان الذائق، بما انه يصف احداها كيسا من العسل، أو نرجينا مجمدا في خصوبة جذعه، تحفة من الزمرد مليئة بحبات صغيرة من الياقوت. ولعله، كما اتضح لي من القراءات الموالية، اكتشف شيئا يشبه كثيرا ثمار التين.

لم يكن يعرف واحدة من تلك الأزهار أو من تلك الثمار، كانت تبدو وليدة خيال رسّام أراد ان يقلب نواميس الطبيعة ليخلق عجائب معقولة، قطعا من لذائذ وكذائب لذيذة: نورة مغطاة بزغب مائل للبياض تتفتح وسط باقة من الريش البنفسجي، أم لا، زغدة شاحبة تبرز نتوءا فاحشا، بل قناع يحجب وجها شيّبته لحية ماعز. ثم من خلق تلك الشجيرة ذات الأوراق القاتمة الاخضرار بزينة بريّة حمراء - صفراء، من جهة، ومن جهة أخرى لامعة، تحف بها أوراق ذات خضرة رقيقة مثل خضرة الجلبان، مادتها لحمة وبوقية الشكل في هيئة حوض، مما يجعلها لا تزال تحوي ماء المطرة الأخيرة؟

ومن فرط ايحائية ذلك المكان لم يتساءل روبارتو من أي مطر كانت تلك الأوراق تحتفظ بالماء، بما انها بكل تأكيد لم تمطر منذ ثلاثة أيام. تلك الروائح التي تسكره كانت تجعله قابلا لأن يجد كل ضرب من ضروب السحر طبيعيا.

كان يبدو له طبيعيا ان تبعث تلك الفاكهة الذابلة والساقطة برائحة جبن متخمر، وأن يحرّك ذلك النوع من الرمان ذي اللون شبه البنفسجي، بثقب في قاعه، فيسمع في داخله صوت نواة ترقص، كما لو لم يكن زهرة بل لعبة، وما كان يستغرب وجودَ زهرة في شكل سنّ، أسفلها صلب ومكوّر. ولم ير روبارتو قط في حياته نخلة متدلية كما لو كانت صفصافة، وها هي أمامه، تقف على جذورها المتعددة ويتفرع

منها جذع ينبت وسط أجمة واحدة، بينما كانت اوراق النبتة تتدلّى منهكة من ازدهارها نفسه؛ ولم ير روبارتو من قبل أجمة مثل هذه تتفرّع منها أوراق عريضة ولحيمة، يتوسّطها عرق يبدو من حديد يجعلها صلبة وجاهزة للاستعمال كصحون وأطباق، بينما كانت تنبت بجانبها أوراق أخرى كانت بدورها في شكل ملاعق ليّنة.

كان لا يدري إن كان يتجوّل في غابة ميكانيكية أو في جنّة أرضية مختفية في باطن الأرض، كان روبارتو يطوف في جنة عدن التي كانت تجعله يتوه في هذيان فائح.

وعندما يقص ذلك على حبيبته، كان يتحدث عن جنونيات ريفية، عن نزعات الجنائن، عن «بروتيات» وارفة، عن أرز (أرز؟) جنّت بجنون هادىء...، أم كان يعيش ذلك من جديد كأنه في مغارة عائمة غنية بالآليات الخادعة أين كانت تبرز، مغللة بحبال فظيعة الإلتواء، ازهار سلبوت متعصبة، أو ركزات كافرة من أدغال همجية... ويكتب عن خدر الأحاسيس، عن زمرة من العناصر العفنة التي حملته، في خلاصتها المغشوشة، إلى حدود الإدراك.

في بداية الأمر بدا له ان الشدو الآتي إلى سمعه من الجزيرة، كأنه صوت بعض الطيور نابع من بين الأزهار والنباتات: ولكن بدنه اقشعرّ فجأة عند مرور وطواط كاد ان يلمس وجهه، وفورا بعد ذلك كان عليه ان يتنحى جانبا تفاديا لصقر ارتمى على فريسته مطيحا بها بضربة من منقاره.

توغل روبارتو تحت سطح السفينة وهو لا يزال يسمع من بعيد طيور الجزيرة، مقتنعا انها لا تزال تصله من بين فتحات الصالب، وإذا به يسمع تلك الأصوات كما لو كانت قريبة جدا. لا يمكن ان تكون آتية من الساحل: هناك إذن طيور أخرى، غير بعيدة، كانت تشدو وراء تلك النباتات، نحو الجؤجؤ، في اتجاه ذلك المخزن الذي بلغته منه في الليلة السابقة تلك الأصوات.

بدا له، وهو يتقدم، ان الحديقة تنتهي عند جذع كبير يثقب السطح الأعلى، ثم فهم انه وصل تقريبا إلى وسط السفينة، حيث ينزل الصاري الكبير إلى اسفل غاطس. ولكن في تلك النقطة كان الإصطناع والطبيعة يلتحمان إلى حدّ يجوز ان يجعلنا نبرّر حيرة بطلنا. وذلك راجع أيضاً إلى أنه في تلك النقطة بالذات وصل إلى خياشيمه مزيج من الروائح، والعفونة الترابية، ونتونة حيوانية، كأنه ينتقل شيئا فشيئا من حقل إلى موضع زبل.

وعندما اجتاز قاعدة الصاري الكبير، في اتجاه مقدمة السفينة، شاهد المطيرة.

لم يقدر على التعريف بطريقة مختلفة بتلك المجموعة من الأقفاص المصنوعة من القصب تخترقها جذوع قوية تقوم مقام الركائز، آهلة بالحيوانات الطائرة، تتحسّس ذلك الفجر الذي يصلها منه بصيص من النور، وتجيب بأصوات مختلفة نداء شبيهاتها التي تشدو حرة طليقة فوق الجزيرة. كانت الأقفاص الموضوعة على الأرض أو المعلقة في تشبيك السطح تمتد في هذا الجناح الآخر كالرواسب الهابطة والصاعدة، وتجعل من ذلك المكان مغارة عجائب، أين كانت الحيوانات في طيرانها تحرك الأقفاص فتتأرجح وتتلاقى مع أشعة الشمس فتحدث انبهارا ملونا، أو شلالات قزحية.

وان كان روبارتو لا يستطيع القول انه إلى ذلك اليوم سمع بحق تغريد الطيور، فليس بإمكانه أيضاً ان يقول انه شاهدها أبدا، على الأقل بمثل ذلك التنوع في الزينة، حتى أنه تساءل ان كانت من صنع الطبيعة أو ان يد فنان زينتها والبستها الحلل لبعض العروض الإيمائية، أو لتمثيل جيش استعراضي، حيث يلبس كل نبّال وكل فارس زيّه الخاص.

وها أن آدم في أشد الحيرة، لا يملك أسماء لتلك المخلوقات، ما عدا أسماء الطيور التي تعيش في النصف الكروي الذي يعيش فيه؛ وراح

يقول في نفسه: هذا بلشون، وهذا كركي، وهذه سمانى... ولكنه كان مثل من يسمّي التمّ إوزة.

هنا مطارنة يجرون ذيول برانيسهم الكاردينالية ومناقيرهم في شكل الأنابيق، يفتحون جوانح في لون الحشائش، نافخين حلوقا ارجوانية ومبرزين صدورا زرقاء، يرتلون كأنهم بشر، وهنالك مجموعات مختلفة تتظاهر في دوائر كبيرة وتحاول اجتياز تلك القباب المنخفضة التي تحدّد حلبتهم، بين بوارق يمامية وخواطف حمراء وصفراء، كراية يرميها حاملها ثم يتلقفها في الهواء. وفرسان غاضبون، يضربون بسيقانهم الطويلة المضطربة في فضاء ضيق، ويصهلون ساخطين كرا ـ كرا ـ كرا، واقفين أحيانا على ساق واحدة ينظرون حولهم بريبة، ويحركون طررهم فوق رؤوسهم المشرئبة... وهنا، وحيدا في قفص صنع على قياسه، قبطان كبير، في معطف سماوي، ودثار قرمزي في لون عينيه، وقنبرة زنبقية فوق رأسه، كان يبعث بأنين حمامة. وفي قفص صغير بجانبه ثلاثة مشاة لا يبرحون الأرض، عديمو الجوانح، كرات من الصوف الملوث بالطين، بخرطوم فأر، وشوارب في أسفل منقار طويل ومنحن ذي خياشيم تستعملها تلك الوحوش الصغيرة لتشمّ وتلتقط الديدان التي تعترض طريقها... وفي قفص ملتو كالمصران، لقلق صغير ذو ساقين قصيرتين في لون الجزر، بينما صدره في زرقة البحر وجناحاه ومنقاره قانيان، ينتقل مترددا يتبعه صغاره في صف هندي وعند نهاية الطريق كان يتوقف وينعب حانقا، مصرا في البداية على كسر ما كان يعتبره اغصانا متشابكة، ثم يتقهقر ويقلب مساره، يتبعه صغاره وهم في حيرة لا يدرون أيمشون خلفه أم أمامه.

كانت نفس روبارتو فريسة عواطف متناقضة فقد أثاره ذلك الاكتشاف، ولكن حرك فيه الشفقة نحو اولئك المساجين، بينما شدته الرغبة في فتح الأقفاص ليرى قلعته مجتاحة بطلائع ذلك الجيش الجوي، وليحررهم من ذلك الحصار الذي فرضته عليهم دافني، التي

كانت بدورها محاصرة من شبيهاتهم في الخارج. وفكر ان الطيور كانت ربما جائعة، ورأى أنه في الأقفاص لا يوجد الا فتات طعام، بينما الأواني والصحاف المهيأة للماء كانت فارغة. إلا أنه رأى قرب الأقفاص اكياسا من الحبوب وشرائح من السمك المجفف، هيأها من كان يريد حمل تلك الغنيمة إلى أوروبا، اذ ان السفن لا تجوب بحار الجنوب دون ان تحمل إلى البلاطات أو إلى الأكاديميات شواهد على تلك العوالم.

ثم واصل متقدما فوجد فضاء مسيجا بقضبان بداخله حوالي اثنا عشر من الدواجن، عرفها على انها من فصيلة الدجاج، وإن لم ير أبدا في منزله دجاجا بمثل ذلك الريش. وهي أيضاً كانت تبدو جائعة، بينما الدجاجات كانت قد وضعت ست بيضات (وكانت تصدح بذلك الحدث مثل مثيلاتها في جميع انحاء الدنيا).

وعلى الفور أخذ روبارتو واحدة منها وثقبها بطرف سكينه ثم شربها، كما كان يفعل وهو صغير. ثم وضع البقية في قميصه، ولمجازاة الأناثي، وأزواجهن الفوالح الذين كانوا يرمقونه بعبوس كبير محركين عثانينهم، فرق عليهم الطعام والماء؛ وفعل الشيء نفسه لسائر الأقفاص، متسائلا أي قدر ساقه إلى دافني في وقت كانت فيه الحيوانات في آخر رمق. وفعلا فهو على السفينة منذ ليلتين ومن تعهد الأقفاص فعل ذلك على أكثر تقدير في اليوم السابق لوصوله. كان يحس بنفسه مثل الضيف الذي يصل فعلا متأخرا إلى حفلة، ولكن في اللحظة التي انصرف فيها الضيوف بينما لا تزال الموائد معدة.

ومن ناحية اخرى قد اصبح الآن من المؤكد انه كان هنا أحد والآن ترك السفينة. أكان ذلك قبل يوم أو عشرة ايام من وصولي، هكذا كان يقول، فذلك لا يغير شيئا من مصيري، بل ويزيد في سخرية الأقدار به: لو غرقت سفينتي قبل ذلك بيوم لتمكنت من الالتحاق بنوتية دافني، اينما كانوا. وربّما لا، وإلاّ لمتّ معهم إن كانوا قد ماتوا. وتنفس

الصعداء (على كل حال ليس الأمر متعلقا بالفئران) مستخلصا في النهاية انه ينعم أيضاً بالدجاج. وفكر في اطلاق سراح اكثر الحيوانات نبلا من ذوات القائمتين، الا انه خمن انه لو طال منفاه،حتى هي ربما تصبح صالحة للأكل.وقال في نفسه حتى اولئك الـ«hidalgos» أمام «كزالي» كانوا جميلين بحللهم المزدانة ومع ذلك فقد كنا نطلق عليهم الرصاص، ولو طال الحصار لربما أكلناهم. من كان جنديا في حرب الثلاثين سنة (أسميها أنا هكذا، أما من عاشها فلم يكن يسميها كذلك، أو ربما لم يفهم انها حرب طويلة واحدة يمضي فيها طرف من حين لآخر معاهدة سلام) تعلّم ان يكون قاسي القلب.

4

تـبيين القـلعة

لماذا يذكر روبارتو «كزالي» لوصف ايامه الأولى فوق السفينة؟ هناك دون شك الميل إلى التشبيه، كان محاصرا في كلتا الحالتين، ولكن من قبل رجل ينتمي إلى عصره ينبغي ان نطلب أكثر من ذلك. ففي حقيقة الأمر كانت تستهويه في اوجه الشبه الاختلافات المحمّلة بالتناقضات المعبرة: دخل إلى «كزالي» بمحض ارادته ليمنع ان يدخلها آخرون، ورمي به على دافني، وكل رجائه ان يخرج منها. ولكن يبدو لي أنه، بينما كان يعيش قصّة تلفّها العتمة، كانت خواطره تعود إلى أحداث مضطربة عاشها في وضح النهار، مما يجعل ايام الحصار المتوهجة، التي كانت الذاكرة تعيدها اليه، تعوض تفاهة ذلك التسكع. وهناك ربما شيء آخر. في الجزء الأول من حياته عاش روبارتو فترتين فقط تعلم فيهما شيئا عن الدنيا وعن طرق العيش فيها، أعني شهور الحصار القليلة والسنوات الأخيرة في باريس: كان الآن بصدد تجربة الفترة الثالثة من تكوينه، ربما الأخيرة، حيث يتوافق في خاتمتها النضج مع الاضمحلال، وكان يحاول التكهن برسالتها الخفية من خلال قراءة الماضي على أنه صورة من الحاضر.

كانت «كزالي» في البداية قصّة طلعات. كان روبارتو يحكيها لمولاته، مجمّلا اياها، كأنما كان يريد ان يقول انه، بما أنه عجز عن

افتكاك القلعة من ثلجها الناصع، وقد ضربتها دون أن تهزمها نار تشمسها، فقد قدر مع ذلك ان يواجه نار شمس أخرى مع من كان يحاصر قلعته المونفيرّاتية.

في الصباح الموالي لوصول جماعة «لاغريف»، أرسل تواراس بعض الضباط منفردين، وبندقياتهم على اكتافهم، ليعاينوا ماذا كان النابوليون يركزون فوق الهضبة التي استولوا عليها في اليوم السابق. واقترب الضباط اكثر مما يلزم، فنتج عن ذلك تبادل للطلق الناري، ذهب ضحيته ملازم شاب من فوج «بومبادور». وحمله رفاقه داخل الأسوار، وشاهد روبارتو أول ميت مقتول في حياته. فقرّر تواراس ان يستولي على تلك الديار التي أشار اليها في اليوم الفائت.

كان من السهل، من أعلى الأبراج، تتبّع تقدّم الفرسان العشرة، الذين في نقطة ما انفصلوا إلى قسمين في شكل كلابة حول الدار الأولى. ومن الأسوار انطلقت قذيفة مدفعية مرت فوق رؤوسهم وحطمت سقف الدار: ومثل سحابة من الحشرات خرج منها جمع من الإسبان وولوا هاربين. وتركهم الفرسان يهربون ثم احتلوا الدار وتحصنوا بها وأخذوا في تشويش العدو بإطلاق النار صوب الهضبة.

كان من الأفضل ان تعاد العملية على ديار أخرى: واتضح حتى من أعلى الأبراج ان الإسبان بدأوا في حفر الخنادق وحمايتها بالأكوام والمتاريس. الا ان الخنادق لم تكن تحيط بالهضبة فقط بل كانت تمتد نحو السهل. وعلم روبارتو انه بتلك الطريقة كانت تبدأ تهيئة الأنفاق الملغمة. عندما تصل إلى مستوى الأسوار يحشر طرفها الأخير ببراميل البارود. فكان ينبغي دائما أن يحولوا دون ان تبلغ أشغال الحفر مستوى كافيا لمواصلتها تحت الأرض، وإلا تمكن العدو عند ذلك من العمل في محمى من الهجومات. كانت كل اللعبة تكمن في ذلك: التصدي من الخارج وبطريقة مكشوفة لبناء الأنفاق، وحفر أنفاق مضادة للألغام، إلى ان يصل جيش الإغاثة، وإلى أن ينفد الزاد والذخيرة. هذا أقصى ما

يمكن عمله في حصار: تشويش عمل الآخرين، والانتظار.

في الصباح الموالي، كما كان مقرّرا، جاء دور القليعة. ووجد روبارتو نفسه ماسكا ببندقيته وسط جمع غير منضبط من الأشخاص تركوا «لو»، و«كوكارو» أو «اودولانقو» لقلة رغبتهم في العمل، ومن الكورسيكيين الصامتين، وازدحموا فوق بعض المراكب لعبور نهر «بو»، بعد ان وطأ فيلقان فرنسيان الضفة الأخرى. وكان تواراس يتابع مع مصاحبيه سير العملية من الضفة اليمنى، بينما لوّح بوتسو الشيخ بتحية لابنه، مشيرا اليه في البداية بيده ان «تقدّم، تقدّم»، ثم وضع سبابته تحت عينه، يعني بذلك ان «افتح عينيك!».

وتمركزت الفيالق الثلاثة داخل القليعة. لم يكن بناؤها قد تمّ، وجزء من الأشغال التي أنجزت صار متداعيا. وقضى الجند يومهم في سدّ الفتحات في الأسوار، ولكن القليعة كانت محمية بخندق، وأرسل بعض الجنود وراءه للمراقبة. عند هبوط الليل كانت السماء على غاية من الصفاء حتى ان النعاس أخذ حراس الخندق، والضباط انفسهم استبعدوا امكانية حصول هجوم. ولكن سمع فجأة نفير الهجوم وظهر الفرسان الإسبان.

روبارتو، الذي ركزه الضابط باسياني وراء بعض الأكياس من التبن كانت تسدّ جزءا متداعيا من الأسوار، لم يتسع له الوقت لفهم ما كان يجري: كان كل فارس يحمل وراءه جنديا وحين وصلوا قريبا من الخندق أخذوا يطوفون به في شكل دائرة بينما كان الراكبون من الخلف يطلقون الرصاص على الحراس ولما تمت تصفيتهم ارتموا من فوق الجياد متدحرجين داخل الخندق. عندئذ شكل الفرسان نصف دائرة أمام المدخل وبطلق ناري مكثف أجبروا المدافعين على الاحتماء، بينما بلغ المهاجمون بسلامة الباب والثغرات الأقل حراسة.

وأفرغت الكتيبة الإيطالية، التي كانت في موقع الحراسة، ما لديها من ذخيرة ثم تفرقت وقد انتابها الهلع، وقد كان في هذا ما جعلها لمدة

طويلة عرضة للتنديد، الا ان الكتائب الفرنسية لم تكن أفضل. من بداية الهجوم إلى تسلق الأسوار مرت بضع دقائق، وفوجيء الرجال بالمهاجمين وقد بلغوا داخل الحزام، قبل ان يهيئ الأولون أسلحتهم.

واستغل العدو فعل المفاجأة فحوّل القليعة إلى مذبحة، وكان عددهم من الكثرة مما مكن بعضهم من الارتماء على الموتى لنهب امتعتهم بينما كان رفقاؤهم يطيحون بما تبقى من المدافعين. أما روبارتو، فبعد ان اطلق الرصاص على المهاجمين وبينما كان يحشو من جديد بمشقة بندقيته وكتفه تؤلمه من أثر التراجع، اذ فوجيء بهجوم الفرسان الخفيفة، وحوافر جواد مرّ فوق رأسه عبر الثغرة ردمته تحت الأكياس التي كان محتميا بها. وكان ذلك من حسن حظه: نجّته الأكياس التي سقطت فوقه من عاقبة تلك الهجمة الدامية، وبقي ينظر من تحت كومة التبن بفظاعة إلى الأعداء وهم يجهلون على الجرحى، أو يقطعون اصبعا للظفر بخاتم، أو يدا للظفر بسوار.

والقائد باسّياني، لغسل فضيحة رجاله الفارين، بقي يحارب بشجاعة، ولكن العدو أحدق به وأرغمه على الاستسلام. واتضح لمن كان على ضفة النهر ان الوضعية حرجة، وكان الكولونال لاغرونج، الذي ترك منذ قليل القليعة بعد زيارة تفقدية عائدا إلى «كزالي»، يحاول ان يلحق لإغاثة المدافعين، بينما كان ضباطه يحاولون منعه، ناصحين بطلب امدادات من المدينة. ومن الضفة اليمنى انطلقت بعض الزوارق، في حين كان تواراس، الذي استيقظ في فزع، يلحق راكضا. وفهم الجميع بسرعة ان الفرنسيين خسروا المعركة ولم يبق الا مساعدة من بقي على قيد الحياة وتغطيتهم بطلق مكثف للنار حتى يبلغوا النهر.

في هذه الفوضى شوهد الشيخ بوتسو وهو يركض متنقلا بين مركز القيادة ومرسى القوارب بحثا عن روبارتو بين الفارين. وعندما تأكد لديه انه لم تعد هناك قوارب آتية من الضفة الأخرى، صدرت عنه لعنة كافرة «بئس ال..!» وكمن يعرف جيدا أهواء النهر، ويعتبر غبيا من كان يجهد

نفسه بالتجذيف الشاق قصد العبور، اختار نقطة أمام احدى الجزر ودفع جواده في الماء بقوة المهماز. عبر وسط المياه الضحلة إلى الضفة الأخرى دون ان يضطر جواده حتى إلى السباحة، واندفع كالمجنون، شاهرا سيفه، نحو القلعة.

وأقبلت نحوه مجموعة من الأعداء حاملي البنادق، بينما كان الفجر ينبلج، ولم يفهموا بعد من يكون هذا المقاتل الوحيد: وشق المحارب الوحيد طريقه بينهم مطيحا على الأقل بخمسة منهم بضربات محكمة، ووجد نفسه وجها لوجه مع فارسين، أطاح بأحد الجوادين وانحنى جانبا تفاديا لضربة ثم استقام بسرعة معملا سيفه في شكل دائرة: وانحنى أحد الفارسين على سرجه وأمعاؤه تسيل على ركبتيه وقد ولى الجواد فارّا، أما الثاني فبقي دون حراك وعيناه محملقتان وهو يتحسس أذنه، المشدودة إلى خده، وهي تتدلى تحت ذقنه.

بلغ بوتسو الحصن والغزاة، الذين كانوا منشغلين بسلب آخر من سقط من المدافعين، ففوجئوا ولم يفهموا من أين برز. وتوغل داخل الحزام مناديا بأعلى صوته ابنه، وأطاح بأربعة آخرين وهو يجول كأنه في حلبة وسيفه يضرب في جميع الاتجاهات؛ روبارتو، الذي خرج من كومة التبن، رآه من بعيد وقبل ان يتعرف عليه تعرف على بانيوفلي، جواد والده الذي كان يلاعبه منذ سنوات. عندئذ أدخل اصبعيه في فمه وأصدر صفيرا كان الجواد يعرفه جيدا، وفعلا استقام الجواد على قائمتيه الخلفيّتين ووقفت اذناه ثم حمل راكبه قرب الثغرة. رأى بوتسو روبارتو وصاح به: «أهذا المكان الذي اخترته؟ هيا، اصعد ايها الأبله !» وبينما كان روبارتو يمتطي الجواد مطوقا خصر والده قال له هذا الأخير: «تبا لك، لا أجدك أبدا في الموضع المناسب»، ثم همز بانيوفلي واندفع راكضا نحو النهر.

عندئذ تفطن البعض من بين الناهبين إلى ان ذلك الرجل في ذلك المكان كان في غير مكانه، وأشاروا اليه صائحين. فاندفع ضابط يحمل

درعا طبقتها الضربات يتبعه ثلاثة جنود وحاول ان يقطع عليه طريق الهرب. رآه بوتسو، وهمّ بتفادي ملاقاته، ثم شدّ عنان جواده وهتف قائلا: «ثم يقولون انها الأقدار !».نظر روبارتو أمامه وفهم ان الضابط هو ذلك الإسباني الذي سمح لهم بالمرور قبل ذلك بيومين. وتعرف هو الآخر على خصمه، وبوميض في عينيه تقدم نحوه شاهرا سيفه.

مرّر بوتسو بسرعة سيفه إلى يده اليسرى وسحب الغدارة من نطاقه، ورفع الديك ومدّ ذراعه، كل ذلك بسرعة أذهلت الإسباني، الذي أصبح من قوة اندفاعه تحت رحمة مسدّسه، ولكنه لم يطلق النار حالا. أخذ وقته ليقول له: «اعذرني ان لجأت إلى الغدارة، ولكنك على عكسي أنا، تحمل درعا، إذن من حقي..». وضغط على الزناد فأسقطه بطلقة في فمه. عندما رأى الجنود قائدهم قد سقط ولوا هاربين، وأعاد بوتسو الغدارة إلى مكانها قائلا: «من الأفضل ان نبتعد، قبل ان ينفد صبرهم... هيا، بانيوفلي»!

وفي سحابة من الغبار اجتازا السهل، ثم عبرا النهر وسط رش المياه، بينما كان أحدهم يفرغ من بعيد رصاصه وراءهم.

ووصلا يحفهم التصفيق إلى الضفة اليمنى. وقال تواراس: «Très bien fait, mon cher ami» ثم توجه إلى روبارتو: «لاغريف، انت الوحيد الذي لم يبرح مكانه بينما ولى الجميع بالفرار. الدم النبيل لا يكذب. مكانك ليس مع اولئك الخونة. ستكون منذ اليوم من أتباعي».

شكره روبارتو ونزل عن الجواد ثم مد يده إلى ابيه، شاكرا اياه هو الآخر. فصافحه بوتسو وهو شارد ثم قال: «يؤسفني ما حصل لذلك الإسباني، فقد كان انسانا حقيقة طيبا. تبا للحرب فهي وحش فظيع. ولكن تذكر دائما يا بني: طيبة القلب شيء جميل، ولكن عندما يأتيك أحد يريد قتلك فهو الجاني. أم لا؟»

ودخلا المدينة، وسمع روبارتو اباه يغمغم دائما بينه وبين نفسه: «هو الذي رمى بنفسه عليّ..».

5

متاهة العالم

يبدو ان روبارتو كان يذكر هذه الواقعة، وقد تملكته لحظة من الحنين البنوي، متخيلا زمنا سعيدا فيه صورة كانت تحميه من متاهات الحصار، ولكنه لم يكن قادرا على نسيان ما حدث بعد ذلك. ولا يبدو لي ذلك طارئا عارضا من طوارىء الذاكرة. لقد سبق ان قلت ان روبارتو كان يبدو وكأنه يريد ان يجمع بين تلك الأحداث البعيدة وتجربته فوق دافني كمن يريد ان يجد علاقة، أو أسبابا، أو علامات رسمتها الأقدار. الا انه يبدو لي ان الرجوع إلى أيام «كزالي» كان يساعده، فوق السفينة، على تتبع المراحل التي مكنته، وهو شاب، من فهم ان العالم يتمفصل حسب تخطيط مشوش.

وكأني به يقول ان وجوده الآن ـ معلّق بين الماء والسماء ـ يمكن ان يبدو، من ناحية، كالنتيجة الأكثر منطقية للنمو الذي عاشه خلال عقود ثلاثة من التجوال في دنيا مصنوعة من الطرق المختصرة والمتشعبة؛ ومن ناحية أخرى، أظن أنه، ليعيد فعلا تاريخ المشاق التي عاشها، كان يبحث عن عزاء لحالته الراهنة، وكأن النجاة من الغرق أعادته إلى ذلك الفردوس الأرضي الذي عرفه في «لاغريف»، والذي ابتعد عنه بدخوله بين أسوار المدينة المحاصرة.

لم يعد روبارتو الآن يقاسم الجنود مساكنهم المقملة، بل تحول

إلى مائدة تواراس، وسط قوم من الأشراف جاؤوا من باريس، وكان يستمع لما يقصونه من اعمال جسورة، ولما يتذكرون من الحملات السابقة، وإلى احاديثهم التافهة المنمقة. فهم من تلك المحادثات ـ ومنذ المساء الأول ـ ان حصار «كزالي» ليس العملية التي ظن انه جاء من أجلها.

لقد جاء اليها ليحقق أحلامه الفروسيّة، غذتها الأشعار التي قرأها في «لاغريف»: دم شريف وسيف معلق إلى جانبه كان يعني انه أصبح فارسا يهب حياته فداء لملكه، أو لإنقاذ سيدة نبيلة. بعد وصوله، انكشف ان الجموع المقدسة التي ألحق بها لم تكن الا لمامة من الفلاحين الخاملين، يتحينون الفرصة للهرب عند أول مواجهة.

الآن تمّ قبوله بين مجموعة الأبطال الذين رحبوا به كواحد منهم. ولكنه كان يعرف ان مروءته ناتجة عن سوء تفاهم، وانه لم يهرب لأن خوفه كان أكبر من خوف الهاربين. وأدهى من ذلك انه، بينما كان الحاضرون، بعد ابتعاد السيد دي تواراس، يسهرون الليل ويطلقون العنان للغوهم، كان يدرك ان الحصار نفسه ليس الا بابا من قصة عديمة المعنى.

إذن، مات دون فينشانسو تاركا الدوقية لنيفارس، ولكن كان يكفي ان يراه أحد آخر في اللحظة الأخيرة من حياته كي تتغير القصة تماما. مثلا، كارلو ايمانويلي أيضاً كان يطالب ببعض الحقوق على «مونفيرّاتو» استنادا إلى واحدة من قريباته (كانوا يتزاوجون دائما فيما بينهم) وكان يريد منذ زمن ضمّ تلك المركيزية التي كانت كالشوكة في جنب دوقيته، تتوغل داخل ترابه إلى بضع عشرات من الأميال من تورينو. وهكذا، عندما تمّ تعيين نيفارس، استغل قونزالو دي قرطبة مطامح الدوق السباودي لإحباط مطامح الفرنسيين وعرض عليه ان يتحد مع الإسبان للاستحواذ على «مونفيراتو»، على ان يتقاسماها بعد ذلك. والإمبراطور، الذي كان له ما يكفي من المشاكل مع باقي اوروبا، لم يبد موافقته على

الغزوة، ولكنه لم يقف مع ذلك ضد نيفارس. قونزالو وكارلو ايمانويلي مرا إلى تنفيذ العملية، واستولى احدهما على «ألبا»، «ترينو» و«مونكالفو». وهنا تحرك الإمبراطور، الذي ربما كان طيب القلب ولكنه لم يكن غبيا، فوضع «مانتوفا» تحت سلطته، وعهد بها إلى مفوض امبراطوري.

وكان ذلك شبه انذار أوقف تطلعات الجميع، ولكن ريشيليو اعتبرها مهانة لفرنسا. أو كان في صالحه ان يعتبرها كذلك، ولكنه لم يتحرك لأنه كان بصدد محاصرة بروتستيني «لا روشال». وكانت اسبانيا تنظر بعين الرضا إلى ذلك الفتك بقبضة من الكافرين، ولكنها تركت قونزالو يستغل الفرصة لمحاصرة «كزالي» بثمانية آلاف رجل، بينما كان مدافعوها يفوقون بقليل مائتي جندي. وكان ذلك الحصار الأول لـ«كزالي».

ولكن بما ان الإمبراطور كان يبدو غير مستعد للعدول، بدأ كارلو ايمانويلي يحس ان الرياح اصبحت مناوئة له وبينما كان يواصل تعاونه مع الإسبان شرع في اتصالات سرية مع ريشليو. في هذه الأثناء سقطت «لا روشال»، وهنأت «مدريد» ريشوليو على هذا الانتصار المشهود على الكافرين، وشكر هذا الأخير البلاط الإسباني، ثم أعدّ من جديد الجيش ووضع على رأسه لويس الثالث عشر وجعله يعبر «مونجينيفرو» في فبراير من سنة 29، ونشره أمام «سوزا». وأدرك كارلو ايمانويلي ان لعبه على طاولتين قد لا يخسره «مونفيراتو» فحسب بل وحتى «سوزا»، فحاول ان يبيع ما كان بصدد فقدانه وعرض على ريشوليو ان يأخذ «سوزا» مقابل مدينة فرنسية.

وقصّ أحد مؤاكلي روبارتو تلك الواقعة بنبرة مسلّية. فقال ان ريشليو سأل الدوق بكثير من التهكم ان كان يفضل «اورليون» أو «بواتيي»، وفي الأثناء كان احد الضباط الفرنسيين يمثل امام حامية «سوزا» طالبا مأوى لملك فرنسا. وأجابه قائد الحامية، الذي كان رجلا

ظريفا، ان سموّ الدوق ربما سيسرّ باستضافة جلالة الملك، ولكن بما ان جلالته حضر صحبة ذلك العدد الوافر، فليسمح له قبل ذلك ان يستشير سموّه. وبنفس تلك اللياقة ركض الماريشال دي باسومبيار على الثلج وخلع قبعته أمام ملكه وقال له ان العازفين على أهبة والراقصين على الباب ويستسمحه للشروع في الباليه. وأقام ريشليو القداس بالساحة، وتقدمت كتائب المشاة الفرنسية وسقطت «سوزا».

وعندما آل الأمر إلى تلك الحال، أعلن كارلو ايمانويلي ان لويس الثالث عشر ضيفه المبجل، وذهب اليه ليرحب به وطلب منه ان لا يضيع وقته في «كزالي»، التي سيتولى هو أمرها، وان يعينه بالأحرى في الاستحواذ على جنوة. وهنا دعاه الفرنسيون إلى ان لا يتفوه بسخافات ووضعوا في يده ريشة اوزة لإمضاء معاهدة تجعل من الفرنسيين أصحاب الأمر والنهي في «بيومونتي»: وكبخشيش تحصل على «ترينو» وعلى ايجار سنوي يدفعه له دوق «مانتوفا» مقابل «مونفيراتو»: «وهكذا» كان يضيف المؤاكل «لكي يحتفظ نيفارس بملكه يجب عليه ان يدفع ايجارا إلى شخص لم يملكه أبدا!».

فأضاف آخر ضاحكا: «وقد دفع ذلك! يا له من مغفل»!

فقال قسّ قدّموه إلى روبارتو على أنه معرّف دي تواراس: «نيفارس دفع دائما ثمن حماقاته، نيفارس مجنون يظن نفسه القديس برنارد. كان همه الوحيد والدائم هو توحيد الملوك المسيحيين للقيام بصليبية جديدة. نحن نعيش زمنا يقاتل فيه المسيحيون بعضهم البعض، فأنّى لنا من يهتمّ بالكافرين. يا أسياد «كزالي»، لو بقيت من هذه المدينة الطيبة حجرة فسيدعوكم سيدكم الجديد إلى بيت المقدس!» اضاف القس ذلك وهو يبتسم متسليا، ويمسح شاربيه الأشقرين الممشطين في نظام جميل، وكان روبارتو يفكر: هوذا، لقد اوشكت هذا الصباح ان اموت من أجل مجنون، وهذا المجنون ينعتونه بالجنون لأنه يحلم، كما أحلم أنا بزمن ميليساندا الجميلة والملك المجذوم.

وما كانت الوقائع الموالية لتساعد روبارتو على أن يجد طريقه في بواعث تلك القصة المتشعبة. فبعد خيانة كارلو ايمانويلي فهم قونزالو دي قرطبة انه خسر المعركة، واعترف بمعاهدة «سوزا»، ثم حمل رجاله الثمانية آلاف إلى جهة ميلانو. واستقرت حامية فرنسية في «كزالي»، واخرى في «سوزا»، واجتاز ما تبقى من جيش لويس الثالث عشر من جديد جبال الألب للقضاء على آخر الهوغونوتيين في «لونغدوق» وفي وادي «الرون».

ولكن لا أحد من بين اولئك الأشراف كان عاقدا العزم على احترام المعاهدات، وكان المتحلقون على المائدة يقصون ذلك كما لو كان أمرا طبيعيا جداً، بل كان البعض منهم يبدي موافقته بتعلة «داعي المصلحة العليا، أي نعم، داعي المصلحة العليا». وداعي المصلحة العليا كان يجعل اوليفارس - وفهم روبارتو ان هذا الأخير هو نوع من ريشليو اسباني، ولكن اقل حظا - يرى في كل ذلك مسّاً بكرامته، فأبعد بدون مجاملة قونزالو، وعوضه بأمبروجيو سبينولا وجعل يقول ان الإهانة التي لحقت اسبانيا كانت تؤذي الكنيسة. «هراء،» كان يلاحظ القس، «اوربانس السابع مهّد لخلافة نيفارس». بينما كان روبارتو يتساءل ما دخل البابا في أحداث لا علاقة لها البتة بمسائل الدين.

في تلك الأثناء تذكر الإمبراطور - ومن يدري الطرق التي انتهجها اوليفارس للضغط عليه - ان «مانتوفا» لا تزال تحت سلطة المفوض، وان نيفارس لا يمكنه ان يدفع أو انه لن يدفع مقابل شيء لم يدخل بعد في حوزته؛ وها أنه يفقد صبره ويرسل عشرين الف رجل لمحاصرة المدينة. والبابا عندما رأى اولئك المرتزقة البروتستانتيين يجوبون ايطاليا، عادت إلى ذهنه في الحال صور نهب روما، فأرسل جيوشه على الحدود المانتوفية. وسبينولا، الذي كان اكثر طموحا وعزما من قونزالو، أعاد محاصرة «كزالي»، وكان الأمر هذه المرة أكثر جدية. باختصار، استنتج روبارتو، لتفادي الحروب ينبغي ان لا تمضى أبدا معاهدات سلم.

في ديسمبر 29 عبر الفرنسيون من جديد جبال الألب، وكارلو ايمانويلي حسب المعاهدات كان عليه ان يدعهم يمرون، ولكنه كي يبرهن عن صدقه عاد يطالب من جديد بحقوقه في مونفيرّاتو واستجدى ستة آلاف جندي فرنسي لمحاصرة جنوة، التي كانت فعلا همّه الدائم. وريشليو، الذي كان يعتبره ثعبانا، لم يقل «لا» ولا «نعم». وذكر أحد القواد، كان يلبس في «كزالي» اثوابا تليق ببلاط الملك، أحداث يوم من أيام فبراير الفائت: «حفل عظيم، ايها الأصدقاء، لا ينقصه الا عازفو القصر الملكي، ولكن الجوقة كانت حاضرة! والملك، يتبعه الجيش، يركض أمام «تورينو» في حلة سوداء مزركشة بالذهب، وريشة فوق قبعته ودرعه قد حك وأصبح لامعا!» وكان روبارتو ينتظر قصة معركة، ولكن لا، كان فقط موكبا استعراضيا؛ والملك لم يهاجم، بل قام بانعراج مفاجىء واستولى على «بنيرولو»، أو استولى عليها من جديد، بما انها قبل ذلك بمئة سنة كانت مدينة فرنسية. وكان روبارتو يعرف حسب التقريب اين توجد «بنيرولو»، ولكنه لا يفهم الباعث الذي يجعل من احتلالها تحريرا لـ«كزالي». وكان يسائل نفسه «ترى هل نحن محاصرون في «بنيرولو»؟»

والبابا، الذي شغلته تطورات الأحداث، أرسل مبعوثه إلى ريشليو يسأله ان يعيد المدينة إلى آل سافويا. وأسهب الجالسون إلى المائدة في اللغو حول ذلك المبعوث، وهو يدعى جيوليو مزاريني: صقلي النشأة، من سوقة روما، بل وأكثر ـ أضاف القس ـ ابن سفاح لواحد من «شوشاريا» مجهول النسب، اصبح قائدا لا يعرف أحد كيف، وكان يخدم البابا ولكنه كان يعمل ما في وسعه لربح ثقة ريشليو، الذي أصبح لا يخطو خطوة دون رأيه. وينبغي الحذر منه، بما انه في تلك الآونة كان في طريقه أو ربما وصل إلى «راتيسبونا»، التي هي في دار الشيطان، وهناك يتقرر مصير «كزالي»، لا هنا ببعض الأنفاق الملغمة والأنفاق المضادة للألغام.

في الأثناء، بما ان كارلو ايمانويلي كان يحاول قطع الطريق على الجنود الفرنسيين، استولى ريشليو أيضاً على «أنيسي» و«شومبيري» وتقاتل الفرنسيون والسافوايارديون في «أفيليانا». في هذه المنازعات البطيئة، أخذ الإمبراطوريون يهددون فرنسا ودخلوا في «لوران»، وكان فلانشتاين يتحرك لتقديم يد المساعدة إلى آل سافويا، وفي يوليو استحوذت مجموعة من الإمبراطوريين محملة فوق عوامات على هويس القناة في «مانتوفا»، ودخل الجيش بأكمله المدينة، ونهبها طيلة سبعين ساعة مفرغا القصر الدوقي من جميع متاعه لو حتى يطمئن البابا سلب لوثيريو الجيش الإمبراطوري جميع كنائس المدينة. نعم، اولئك المرتزقة الألمان الذين رآهم روبارتو، جاؤوا لمساعدة سبينولا.

وكان الجيش الفرنسي لا يزال مشغولا في الشمال ولا أحد يدري ان كان سيصل قبل سقوط «كزالي». لم يبق الا الرجاء في المعونة الإلهية، كما قال القس: «ايها السادة، ان الحنكة السياسية تقتضي ان نعتمد على الوسائل البشرية كما لو كانت الوسائل الإلهية غير موجودة، وان نتوكل على تلك الإلهية كما لو كانت البشرية غير موجودة».

فهتف أحد الأشراف «فلنأمل إذن في الوسائل الإلهية» ولكنه قالها بصوت لا ينم قط عن الأسف، وقد هز كأسه حتى ان الخمر سالت فوق جبة القسّ. فصاح القسّ وهو شاحب الوجه «سيدي، لقد لطختني بالخمر،» ـ وكانت تلك هي الطريقة في ذلك الزمن للتعبير عن السخط ـ فأجاب الآخر: «اعتبر انه سال على جبتك عند اقامة القداس. ذاك خمر، وهذا خمر».

فصاح القس وقد وقف حاملا يده إلى مقبض سيفه: «ايها السيد دي سان سافان، ليست هذه المرة الأولى التي تشين فيها باسمك مجدفا اسم سيدنا المسيح! كان افضل لك، وليسامحني الله على ما أقول، ان تبقى في باريس لتشويه سمعة السيدات، كما هي عادتكم انتم البيرونيون»!

«مهلا، مهلا،» أجاب سان سافان وقد بان واضحا انه مخمور، «نحن البيرونيون نذهب ليلا لنسمع بعض السيدات موسيقانا، ومن لديه الشجاعة للقيام بعملية جسورة ينضم الينا. ولكن، عندما لا تظهر لنا السيدة في نافذتها، كنا نعلم حق العلم انها تفعل ذلك لانها لا تريد ان تترك الفراش الذي دفّأه لها كاهن العائلة».

عند ذلك نهض الضباط وأمسكوا بالقسّ الذي كان يريد ان يستلّ سيفه وهم يقولون له ان السيد دي سان سافان قد استحوذت عليه نشوة الخمر، وانه لا بدّ من التسامح مع رجل ابلى البلاء الحسن في تلك الأيام، ومن احترام ذكرى الرفاق الذين قتلوا منذ قليل.

فردّ القسّ مختتما «ليكن،» وترك القاعة مضيفا «يا سيد دي سان سافان، انني أدعوك لأن تمضي بقية هذه الليلة في انشاد «صلاة الأموات»، ترحما على ارواح اصدقائنا الراحلين، وسأعتبر نفسي راضيا.»

خرج القسّ، فمال سان سافان نحو روبارتو الذي كان جالسا حذوه، وعلّق قائلا: «ان الكلاب والأطيار التي تعيش في النهر لا تزعق أكثر مما نزعق نحن في انشاد «صلاة الأموات». لم كل هذا الضجيج وهذه الطقوس لإحياء الموتى؟» وأفرغ كأسه دفعة واحدة، ثم حذّر روبارتو رافعا اصبعه، كأنه يريد تلقينه اسس الحياة المستقيمة وأسرار الدين المقدس السامية: «سيدي، كن فخورا: اليوم كدت ان تموت موتة جميلة وليكن سلوكك في المستقبل بنفس تلك اللامبالاة، فالروح تموت مع الجسد. واذن اذهب إلى الموت بعد ان تكون قد تمتعت بالحياة. اننا حيوانات بين الحيوانات، جميعنا أبناء المادة، الفرق الوحيد هو اننا أضعف. ولكن بما أنه، خلافا للحيوانات، نحن نعرف اننا سنموت، فلنتهيأ لتلك اللحظة بالتمتع بالحياة التي وهبتنا اياها الصدفة عن طريق الصدفة. ولتعلّمنا الحكمة ان نمضي ايامنا في الشراب وفي المطارحات المؤنسة كما يجدر بالرجال الأشراف، وأن نزدري النفوس الجبانة. ايها الرفاق، للحياة دين علينا! اننا نتعفن من القبوع في «كزالي»، وولدنا في

وقت متأخر فلم نتمتع بعهد الملك الطيب «هنري»، عندما كنت تشاهد في «اللوفر» الهجان والقردة، والمعتوهين ومهرجي البلاط، والأقزام والكسحان، والموسيقيين والشعراء، وكان الملك يتسلى بحضورهم. الآن ها هم اليسوعيون الداعرون كالتيوس يرعدون ضدّ من يقرأ «رابلي» والشعراء اللاتينيين، ويريدوننا كلنا قدِّيسين لنطهر الأرض من الأوغونيين. رباه، الحرب شيء جميل، ولكنني اريد ان أقاتل لشيء يروقني لا لأن عدوي يأكل اللحم يوم الجمعة. كان الوثنيون أكثر حكمة منا. كانت لهم أيضاً ثلاث آلهات، ولكن أمهم «سيبال» على الأقلّ لم تدّع يوما انها انجبتهم وهي عذراء».

فاحتج روبارتو قائلا: «سيّدي»، بينما ضحك الآخرون.

«سيدي،» أجاب سان سافان «إن أول فضيلة ينبغي ان يتحلى بها الرجل الشريف هو ازدراء الدين، الذي يجعلنا نخاف من الشيء الأكثر طبيعية في الدنيا، وهو الموت، ويجعلنا نكره الشيء الوحيد الجميل الذي حبانا به القدر، وهو الحياة، ويجعلنا نتوق إلى سماء لا تعيش فيها في حبور دائم الا الكواكب، التي لا تنعم لا بثواب ولا بعقاب، بل بحركتها الدائمة في أحضان الفراغ. كونوا أقوياء كفلاسفة اليونان القدامى وانظروا إلى الموت بعين لا تزيغ ودون خوف. لقد تعب عيسى كثيرا وهو ينتظر الموت. ومن ناحية أخرى، ممّ كان يخاف، بما انه سيبعث حيا؟»

فقال أحد الضباط بلهجة تكاد تكون آمرة «كفى يا سيد دي سان سافان»، ثم أخذه من ذراعه مضيفا «لا تزعج صديقنا الشاب، فهو لا يعرف ان التجديف في باريس وفي هذا الوقت هو أليق شكل يتجلى فيه «le bon ton»، وقد يأخذ كلامك مأخذ الجدّ. ومن الأفضل لك أيضا يا سيد دي لاغريف ان تذهب للنوم. واعلم ان الرب في رحمته سيغفر أيضاً للسيد دي سان سافان. وكما كان يقول ذلك اللاهوتي، قويٌّ ذلك **الملك** الذي يدمر كل شيء، وأقوى منه المرأة التي تحصل على كل ما **تريد**، ولكن أقوى من كلّ ذلك الخمر التي تضبّب الإدراك».

ففمغم سان سافان «انك لم تكمل استشهادك يا سيدي»، بينما كان اثنان من رفاقه يجرانه خارجا وقد كادا يحملانه حملا، «تنسب هذه القولة إلى «اللسان»، الذي يضيف: وأقوى من ذلك كله هي الحقيقة وأنا الذي يعلنها. ولساني، حتى وان اصبحت أحركه بصعوبة، لن يسكت. على الحكيم ان يكافح البهتان لا بقوة السيف فحسب بل وأيضا بقوة اللسان. يا أصدقائي، كيف يمكنكم ان تسموا رحيما إلهاً يريد تعاستنا الأبدية فقط لتهدئة لحظة من غضبه؟ يجب علينا نحن ان نعفو عن امثالنا وهو لا؟ ويجب علينا ان نحب كائنا بهذه القساوة؟ لقد نعتني القس بالبيرونيّ، ولكننا نحن البيرونيون، كما أرادنا ان نكون، نعمل على مواساة ضحايا التضليل. ذات مرة وزعنا مع ثلاثة من رفاقي على بعض السيدات مسبحات تحمل صورا فاحشة. لا يمكنكم ان تتصوروا كيف اصبحن ورعات منذ ذلك اليوم»!

وخرج، ترافقه ضحكات جميع الحاضرين، وعلق الضابط قائلا: «ان لم يسامحه الله، فنحن على الأقل نسامح لسانه، لما لسيفه من مزايا جميلة.» ثم توجه إلى روبارتو قائلا: «اجعل منه صديقا لك، ولا تعارضه أكثر من اللزوم. لقد اسقط في باريس من الفرنسيين لأجل مسألة لاهوتية أكثر ممّا استطاعت كتيبتي ان تسقط من الإسبان في هذه الأيام. لا أريده بجانبي عند اقامة القداس، ولكني اعتبر نفسي محظوظا بصحبته في ساحة المعركة».

وهكذا تلقن روبارتو الشكوك الأولى، وكان عليه ان يتلقن شكوكا أخرى في اليوم الموالي. كان قد عاد إلى ذلك الجناح من القلعة حيث قضى الليلتين الأوليين صحبة من جاؤوا معه من «مونفيراتو»، ليأخذ كيسه، ولكنه كان يجد صعوبة في التعرف على وجهته بين تلك الساحات والأروقة. وكان ماضيا في احداها وقد تفطن إلى انه تاه في الطريق، عندما رأى في آخر الرواق مرآة داكنة اللون من فرط الأوساخ، وفيها رأى نفسه. ولكنه عندما اقترب اكثر تفطن إلى ان صورته في

المرآة، كانت فعلا تحمل وجهه، ولكن اللباس كان مزركشا على الطريقة الإسبانية، وكان يحمل شعره ملفوفا في شعرية. ولا يكفي ذلك، صورته تلك في لحظة ما لم تعد أمامه، بل اختفت جانبيا.

لم تكن إذن مرآة. وأدرك فعلا انها كانت نافذة كبيرة، اتسخ زجاجها بالغبار، تفضي إلى مسطح خارجي، يمكن النزول منه عبر مدرج إلى الساحة. إذن لم ير نفسه بل شخصا آخر، يشبهه كثيرا، قد فقد الآن أثره. بطبيعة الحال فكّر لفوره في فيرّانتي. إمّا ان فيرانتي تبعه إلى «كزالي» وإمّا انه سبقه اليها، ربما في كتيبة أخرى من نفس الفوج، أو ضمن احد الأفواج الفرنسية وبينما كان هو يغامر بحياته في القليعة، من يدري ماذا كان هو يجني من الحرب.

أصبح روبارتو في تلك السن يضحك من خيالاته الصبيانية حول فيرّانتي، وبعد اعادة التفكير في تلك الرؤيا اقتنع بسرعة انه بكل بساطة رأى شخصا ربما كان يشبهه قليلا.

أراد ان ينسى الحادثة. طيلة سنوات هتر بوجود اخ لامرئيّ، ظن تلك الليلة انه رآه ولكن (محاولا ان يقول بعقله عكس ما كان يقول بقلبه) ان كان قد رأى فعلا شخصا، فلا يمكن ان يكون خيالا، وبما ان فيرانتي خيال، ما رآه لا يمكن ان يكون فيرانتي.

ربما أبدى استاذ في المنطق اعتراضا على هذا الاستدلال الزائف، ولكن في الوقت الراهن كان ذلك يكفي روبارتو.

6

الفنّ العظيم للنور والظل

بعد ان كرّس روبارتو رسالته لأولى ذكرياته عن الحصار، عثر في حجرة القبطان على بعض القنينات من الخمر الإسباني. فلا يمكننا إذن ان نعيب عليه أن يشعل النار ويعدّ لنفسه مقلاة من البيض فتّت فيها قطعا من السمك المدخن، وأن يفتح قنينة من الخمر وأن يرضي نفسه بعشاء ملكي فوق طاولة هيّئت حسب قواعد الفن. إن كان عليه ان يبقى وسط البحر مدّة طويلة فمن الأفضل له ان يحتفظ بالعادات الطيبة حتى لا يسقط في الهمجية. كان يذكر انه في «كزالي»، عندما أضحت الجروح والأمراض تجعل حتى الضباط يتصرفون كما لو نجوا من الغرق، طلب السيد دي تواراس من الجميع ان يتذكروا، على الأقل حول المائدة، ما تلقنوه في باريس: «المثول في ثياب نظيفة، عدم الشرب بعد كل لقمة، تنظيف الشاربين واللحية أولا، عدم لحس الأصابع، عدم البصق في الصحن، عدم مخط الأنف في المنديل. لسنا امبراطوريين، ايها السادة»!

استفاق في الصباح الموالي على صياح الديك، ولكنه تكاسل طويلا في الفراش. وعندما فتح من جديد نافذة الرواق أدرك انه نهض متأخرا بالمقارنة مع يوم أمس، والفجر كان يترك الأفق للشروق: وراء الهضاب كان شفق السماء يزيد من احمراره تحت بياض السحب المتناثرة.

وبما ان الأشعة الأولى ستضيء بعد حين الشاطىء وتجعل النظر لا يطيق نوره، فكر روبارتو في تأمل الساحل من الجهة التي لم تسيطر عليها بعد انوار الشمس، وعبر الرواق إلى طرف دافني الآخر، نحو الجهة الغربية من اليابسة. وبانت له على الفور صورة فيروزية اللون مسننة انقسمت بعد بضع دقائق إلى شريطين افقيين: فرشة فاتحة من الخضرة والنخيل تبهر العين تحت ظل الجبال القاتم، تسيطر عنيدة فوق قممها غيوم الليل. ولكن هذه الأخيرة، التي كان وسطها اسود قاتما، اخذت شيئا فشيئا تتلاشى في حواشيها في خليط بين ابيض ووردي.

كانت وكأنما الشمس، عوض ان تضربها من الخارج بأشعتها، تتحايل للبروز من داخلها وبدورها، بينما كانت تتلاشى نوراً من حواشيها، كانت تتصلب محمّلة بالضباب، لا تريد ان تذوب في السماء لتجعل منه مرآة خالصة للبحر، الذي صار الآن ساحر الضياء، يلمع ببقع باهرة، كأنما تمر فيه اسراب من السمك تشعّ بمصباح داخلي. ولكنها لبت بسرعة نداء النور، وتخففت من حملها ثم استسلمت فوق القنن، ومن جانب كانت تلتصق بالمنحدرات ملبدة ومتراكمة كالقشدة، خفيفة في سيلانها نحو الأسفل، أكثر كثافة نحو القمة اين تكوّن مجلدة، ومن جانب آخر، كانت مجلدة السحب مثل الطفح الواحد من الثلج، تتفرقع في الهواء في شكل فطر، فورات شهية في بلد النعيم.

ما شاهده كان يكفي ربما لتبرير حالته كناج من الغرق: ليس فقط لما كان يحدثه شكل الطبيعة المتغير في نفسه من شعور باللذة، بل للنور الذي كان يسلطه على كلمات سمعها من قسّ «دينيو».

كان إلى ذلك الحين يتساءل فعلا ان لم يكن يحلم. ما كان يحدث له لا يحدث في العادة للبشر، أو على الأكثر كان يذكره بروايات الصغر: كانت السفينة والمخلوقات التي تعيش فوقها مثل كائنات الأحلام. ومن نفس ماهية الأحلام كانت تبدو له الظلال التي كانت تغلفه

منذ ثلاثة ايام ويدرك، بعقل بارد، انه حتى الألوان التي تأملها بإعجاب في الحديقة وفي المطيرة كانت تبدو زاهية فقط لعينيه المتعجبتين، ولكنها في الواقع كانت تظهر من خلال ذلك الزنجار الذي يغلف جميع اجهزة السفينة، في نور كان يلمس الروافد والأضلاع من اللوح الذي جففه القدم، دهن بالزيوت، والبرنيق والقطران... ألا يكون حلما إذن ذلك المسرح العظيم من الفيالق السماوية الذي توهم رؤيته الآن في الأفق؟

كلا، كان يقول روبارتو في نفسه، إن الألم الذي يؤذي به هذا النور عيني يقول لي انني لا أحلم، بل أرى. إن حدقتيّ تتألمان من عاصفة الذرات التي كان ذلك الساحل، وكأنه من سفينة حربية عظيمة، يقذفني بها، وليس شيئا آخر رؤية هذا اللقاء للعين بغبار المادة الذي يضربها. من المؤكد، كما كان يقول القسّ، ان الأشياء من بعيد لا ترسل اليك، كما يريد ابيقور، صورا كاملة توحي بشكلها الخارجي وبجوهرها الخفي. أنت لا تستمد الا علامات، أو اشارات، تصنع منها ذلك الاحتمال الذي نسميه رؤية. ولكن الأمر نفسه الذي جعله قبل ذلك بقليل يسمي باستعارات مختلفة ما كان يتوهم مشاهدته، مكونا في شكل كلمات ما كان ذلك الشيء العديم الشكل يوحي به اليه، يؤكد انه فعلا كان يرى. ومن بين الثوابت التي نشكو من انعدامها، واحدة فقط كانت موجودة، وهي ان جميع الأشياء تبدو لنا كما تبدو، وليس ممكنا ان لا يكون حقيقيا جدا انها تبدو لنا فعلا هكذا.

لذا، بما انه كان يرى، وكان متأكدا من أنه يرى، كان روبارتو يملك اليقين الوحيد الذي يمكن لحواسّه ولعقله ان تعتمد عليه، وهو اليقين انه كان يشاهد شيئا: وذلك الشيء هو الشكل الوحيد من الوجود الذي يمكنه الحديث عنه، بما ان الوجود ليس الاّ المسرح العظيم للمرئيّ المنظّم في قوقعة الفضاء ـ وفي هذا ما يقول لنا الكثير عن ذلك القرن الغريب.

كان على قيد الحياة، في حالة يقظة، وهنالك، جزيرة كانت ام قارّة، يوجد شيء. ماذا يكون ذلك الشيء، كان لا يدري ذلك: بما ان الألوان تتوقّف على الشيء الذي يمسّها وعلى النور الذي ينعكس فوقها، وعلى العين التي تحدّق فيها، هكذا كانت تظهر له الأرض الأكثر بعدا في التقائها العرضي والمؤقت بالنور، وبالرياح، وبالسحب وبعينيه المهتاجتين والمتألمتين. ربما في يوم الغد، أو بعد بضع ساعات، ستصبح تلك الأرض مختلفة.

ما كان يراه لم يكن فقط الرسالة التي كانت السماء تبعث بها اليه، ولكنه كان نتيجة صداقة بين السماء والأرض والموقع (والساعة، والفصل، والزاوية) الذي كان يشاهده منه. من الأكيد أنه لو رست السفينة في مكان آخر من اتّجاه الرياح، لكان المنظر مختلفا، ولكانت الشمس والفجر والبحر والأرض شمسا أخرى، وفجرا آخر، وبحرا وأرضا توأمين ولكنهما مختلفا الشكل. تلك العوالم اللانهائية التي كان يحدّثه عنها سان سافان لا ينبغي البحث عنها فقط وراء مجموعات الكواكب، بل في نفس نقطة مركز تلك الدائرة من الفضاء التي صار فيها الآن، وقد أصبح عيناً بحتة، منبعاً لاختلاف لانهائي من المناظر.

ولنقبل من روبارتو إن هو، في خضمّ كلّ تلك الأحداث، لم يعمّق أكثر من هذا الحدّ تأمّلاته في الميتافيزيقا، أو في فيزيا الأجسام؛ وذلك أيضاً لأنه، كما سنرى، سيفعل ذلك من بعد، وأكثر من اللزوم؛ ولكننا حتى عند هذا الحدّ نجده يفكّر انه، إن كان يوجد عالم واحد تظهر فيه جزر متعدّدة (كثيرة في تلك اللحظة لكثير من الروبارتيين ينظرون من سفن كثيرة راسية على درجات مختلفة من الهواجر) إذن في هذا العالم الوحيد يمكن ان يظهر ويختلط روبارتيون كثيرون وفيرّانتيون كثيرون. ربّما ذلك اليوم في القلعة تحرّك هو، دون ان يتفطّن لذلك، بضع اذرعة بالنسبة إلى اعلى جبل في جزيرة الحديد، ورأى العالم الذي يسكنه روبارتو آخر، ليس محكوما عليه ان يحتلّ قليعة خارج الأسوار،

أو أنقذه أب آخر لم يقتل ذلك الإسباني النبيل.

ولكن روبارتو كان يرتدّ دون شكّ إلى هذه التأملات لكي لا يعترف ان ذلك الجسم البعيد، الذي كان يتركّب ويتفكّك في تحوّلات مثيرة، صار بالنسبة اليه جناسا تصحيفيا لجسم آخر، كان يشتهي ان يمتلكه؛ وبما أن الأرض كانت تبتسم له عاشقة، فقد كان يريد ان يبلغها وان يذوب فيها، قزما سعيدا فوق نهدي تلك العملاقة الجميلة.

الاّ انني أظن انه ليس الخجل، بل الخوف من قوّة النور هو الذي جعله يدخل ـ وربما دعاه أيضاً نداء آخر. وفعلا فقد سمع الدجاجات تؤذن بدفعة جديدة من البيض، وفكّر أن يمتع نفسه تلك الليلة بفرّوج على السفود. ولكنه أخذ وقته قبل ذلك ليشذّب، مستعملا مقصّ القبطان، شاربيه ولحيته وشعره، التي كانت لا تزال تبديه بمظهر الناجي من الغرق. لقد قرّر ان يعيش نجاته من الغرق كأنها عطلة في فيلاّ، تمنحه سلسلة ممتدّة من الأسحار، والأفجرة و(كان يلتذّ مسبّقا بذلك) من المغارب.

نزل إذن بعد أقلّ من ساعة منذ ان صاحت الدجاجات، وتفطّن على الفور انها، إن كانت قد باضتِ (ولا يمكن ان تكون شدت بذلك كذبا)، فقد كان لا يرى أثرا للبيض. وليس ذلك فقط بل جميع الطيور كانت مزوّدة بحبوب جديدة، وزّعت بنظام، كما لو أنها لم تنبش فيها بعد.

وخامره شكّ، فعاد إلى الحديقة، واكتشف انه مثل اليوم السابق وأكثر من اليوم السابق، كانت الأوراق لامعة من قطرات الندى، والنواقيس قد جمّعت ماء صافيا، والتراب عند جذورها كان رطبا، والوحل كان اكثر توحّلا: دليل على ان أحدا أثناء الليل جاء لسقي النباتات.

قد يبدو غريبا لو قلنا ان أول ردّ فعله كان نابعا من الغيرة: كانت

لأحد آخر سيادة على سفينته وكان يحرمه من العناية بها ومن حقّه في مزاياها. خسر العالم ليحتلّ سفينة مهجورة، وها هو يتفطّن الآن إلى ان أحدا غيره يسكنها. كان ذلك فوق احتماله بقدر خوفه من ان تصبح مولاته، موضع رغبته المستحيل إرضاؤها، فريسة رغبة شخص آخر.

ثمّ خامره ارتباك قياسيّ. مثلما كان عالم طفولته مسكونا من قبل شخص آخر، كان يسبقه أو يتبعه، من الواضح ان دافني كانت تملك عنابر ومخابىء لم يكتشفها بعد، يعيش فيها ضيف مختبىء، كان يجوب نفس المسالك التي كان هو يسير فيها، وذلك ما أن يبتعد هو أو لحظة قبل ان يسير فيها.

وهرع هو للاختباء في حجرته، مثل النعامة الإفريقية، التي تخفي رأسها وتظنّ انها بتلك الطريقة محت العالم.

ولبلوغ مقدمة السفينة مرّ أمام مدخل سلّم يقود إلى قاع السفينة: إن كان قد وجد تحت سطح السفينة جزيرة مصغّرة، ترى ماذا يمكن ان يوجد هنالك؟ أتكون تلك هي مملكة الدخيل؟ ولنلاحظ انه صار يتصرّف مع السفينة مثل موضوع حبّ، ما أن يكتشفه ويكتشف انه يحبّه، يصبح جميع من امتلكوه قبله مغتصبين. وعند هذا الحدّ فعلا يعترف روبارتو في رسالته إلى مولاته انه عندما رآها في المرّة الأولى، ورآها وهو يتبع فعلا انظار شخص آخر كانت تقع عليها، أحسّ باشمئزاز من يرى دودة فوق وردة.

هناك ما يبعث على الضحك أمام مثل هذه النوبة من الغيرة من أجل مركب نتن بالسمك، والدخان والبراز، ولكن كان روبارتو الآن وسط متاهة غير ثابتة، حيث كان كلّ مفترق يقوده دائما إلى صورة واحدة. كان يتألّم في نفس الوقت للجزيرة التي لا يملكها، وللسفينة التي كانت تملكه ـ كلاهما مستحيل المنال، الأولى لبعدها، والثانية لأسرارها ـ ولكن الاثنتين كانتا بمثابة المحبوبة التي كانت تتجنّبه ملاطفة

اياه بوعود كان يمنّي بها نفسه. ولا يمكنني ان أفسّر بغير ذلك هذه الرسالة التي يطيل فيها روبارتو من شكاويه المجمّلة فقط ليقول لها في نهاية الأمر ان أحدهم حرمه من فطور الصباح.

سيّدتي،

كيف لي أن أنتظر رحمة ممّن يضنيني؟ ومع ذلك إلى من ـ إن لم يكن إليك ـ أشكو عذابي متوسّلا التعزية، إن لم يكن في اصغائك، على الأقلّ في كلماتي اللامسموعة؟ إن كان الحبّ دواءً يشفي من كلّ الأوجاع بوجع أكبر، الا يمكنني ربما أن أفهمه على أنه مرض يقتل من فرط قوّته كل الأمراض الأخرى، حتى انه يصبح دواء كل الأمراض الأخرى، الاّ دواء نفسه؟ بما أنني إن كنت رأيت جمالا، وأردته، فلم يكن الاّ الحلم بجمالك، لماذا أتألم ان كان جمال آخر حلما من أحلامي؟ سيكون أسوأ لو أردته، ورضيت به، وانتهى عذابي لغياب صورتك: ستكون متعتي دواء حقيرا، وسيزيد عذابي من الندم على خيانتي. أفضل لي ان أحتفظ بصورتك، خاصّة الآن وقد تفطّنت مرّة أخرى لوجود عدوّ لا أعرف قسماته وربما لا أودّ أن أعرفها ابدا. ولكي أنسى ذلك الشبح الكريه، فليسعفني خيالك المحبوب. ليجعل مني الحبّ على الأقلّ شظية فاقدة الحسّ، لفّاحا، عيناً من الصخر تسكب من خلال بكائها ما في نفسها من جزع...

ولكنه في تعذيب نفسه مثلما كان يفعل، لم يصبح روبارتو عينا من الصخر، وها هو يحوّل ما كان يحسّ به من جزع إلى الجزع الذي أحسّه في «كزالي»، والذي كانت عواقبه ـ كما سنرى ذلك ـ وخيمة أكثر.

7

بافانية دمعية

القصة واضحة شفافة بقدر ما هي غامضة. بينما كانت تتوالى المناوشات الخفيفة، التي كان لها نفس الدور الذي تلعبه، في الشطرنج، لا النقلة نفسها، بل النظرة التي تعلق على الحركة التي يتهيأ لها المنافس، لحمله على العدول عن رهان رابح - رأى تواراس انه ينبغي أن يحاول القيام بخرجة أكثر قوة. كان من الواضح ان اللعبة اصبحت الآن تدور بين جواسيس وجواسيس مضادين: انتشر الخبر في «كزالي» ان جيش النجدة قد اقترب يقوده الملك نفسه، مع السيد دي مونمورانسي القادم من «آستي» ومع الماريشالين دي كريكي ودو لافورس القادمين من «إفريا». ليس ذلك صحيحا، كما علم روبارتو من غضب تواراس عند استقباله لرسول قادم من الشمال: وفي هذا التبادل للرسائل كان تواراس يعلم ريشليو ان الزاد قد نفد وكان الكاردينال يجيبه بأن السيد أجونكورت قد عاين المخازن في وقت سابق وأعلن ان «كزالي» بإمكانها ان تصمد جيدا كامل الصيف. والجيش سيتحرك في شهر أغسطس، مستغلا في طريقه المحاصيل التي تم جمعها.

وكانت دهشة روبارتو كبيرة لما رأى ان تواراس اعطى تعليماته لمجموعة من الكورسيكيين بترك مواقعهم والاتصال بسبينولا لإبلاغه ان الجيش لن يصل قبل شهر سبتمبر. ولكنه سمعه يشرح لمجلس قيادته:

«لو اقتنع سبينولا بأن لديه متسعا من الوقت، لأخذ ما يكفيه من الوقت لصنع أنفاقه، ولأمكننا نحن ان نصنع انفاقا مضادة للألغام. أما اذا ايقن ان النجدة قريبة، ماذا سيبقى له ان يفعل؟ من المؤكد انه لن يذهب لمجابهة الجيش الفرنسي، لأنه يعلم انه ليست لديه قوات كافية؛ ولن ينتظره، لأنه سيصبح بدوره محاصرا؛ ولن يعود على أعقابه إلى ميلانو ليستعدّ للدفاع عن منطقتها، لأن عزة نفسه تمنعه من التراجع. لن يتبقى له إذن الا ان يستولي فورا على «كزالي». ولكن بما انه لا يقدر على تحقيق ذلك بهجوم جبهي، سيضطر إلى دفع اموال طائلة للتشجيع على الخيانة. ومنذ ذلك الحين كل صديق سيصير بالنسبة الينا عدوا محتملا. لنرسل إذن جواسيس إلى سبينولا لإقناعه بتأخر الإمدادات، لنتركه يصنع انفاقا ملغمة حيث لا يضرنا ذلك كثيرا، ولندمر تلك التي تهددنا فعلا، وبهذه الطريقة نجعله يستنفد قواه في هذه اللعبة. أيها السيد بوتسو، انت خبير بهذه الجهات: اين نتركه يفعل ما يريد وأين ينبغي علينا أن نسدّ طريقه مهما كلفنا ذلك؟»

وأشار بوتسو الشيخ، دون ان يولي بآلاً للخرائط (التي كانت تبدو له منمقة أكثر مما هي في الواقع) بيده إلى خارج النافذة وبيّن كيف انه في بعض المواضع صارت الأرض بطبيعتها تهدد بالانهيار لأنها مشبعة بماء النهر، وهنالك بإمكان سبينولا ان يحفر بالقدر الذي يريد وعمّاله سيدفنون احياء وسيختنقون بابتلاع الحلازين. بينما في مواضع اخرى سيكون حفر الأنفاق عملا سهلا، وهنالك ينبغي قصفهم بالمدفعية وتنظيم خرجات هجومية.

فأجاب تواراس: «حسنا، غدا سنجبرهم إذن على التحرك للدفاع عن مواقعهم خارج حصن «سان كارلو»، ثم نأخذهم على غرة خارج حصن «سان جيورجيو». وهيئت الخطة بإحكام، مع تعليمات دقيقة لجميع الأفواج.

وبما ان روبارتو اظهر أن خطه جميل، فقد ابقاه تواراس معه من

السادسة مساء إلى الثانية صباحا يملي عليه الرسائل، وطلب منه ان ينام بثيابه فوق كنبة أمام حجرته، لتلقي الأجوبة ولتفحصها، على ان يوقظه في حالة حدوث أمر طارىء. وذلك ما حدث أكثر من مرة من الثانية إلى طلوع الفجر.

في الصباح الموالي كانت الفرق تنتظر في الطرق المحمية في المنحدرات الخارجية وداخل الأسوار. وبإشارة من تواراس الذي كان يراقب العملية من القلعة تحرك فريق أول بعدد لا بأس به في الاتجاه المخادع: في المقدمة طليعة من الرماحين والفرسان، مع مجموعة خمسين من حاملي البندقيات يتبعهم على مسافة قريبة، ثم، بتحدّ واضح، فيلق من المشاة من خمسمائة رجل وفوجان من الفرسان. كان عرضا جميلا، وعند التفكير في ذلك من بعد يتجلى ان الإسبان فهموه على أنه عرض.

شاهد روبارتو خمسة وثلاثين رجلا كانوا تحت أوامر القائد كولومبات يهجمون بدون انتظام على خندق، والقائد الإسباني يبرز من وراء المتاريس ويؤدي لهم تحية جميلة. توقف كولومبات ومن معه، من باب الأخلاق، وردوا التحية بمثلها. بعد ذلك تراجع الإسبان بينما واصل الفرنسيون تقدمهم؛ ومن الأسوار أمر تواراس بإطلاق قذيفة مدفعية على الخندق، وفهم كولومبات الدعوة فأمر بالهجوم وتبعه الفرسان وهجموا على الخندق من الجانبين، واتخذ الإسبان، على كره، من جديد مواقعهم ولكنهم لم يصمدوا أمام الهجوم. كان الفرنسيون وكأنهم جنّوا وبعضهم كان عند ضربه للعدو يصيح بأسماء رفاقه الذين قتلوا في الخرجات السابقة: «هذه لبيسيّار، وهذه لخرجة دار «بريكيتّو»!» وبلغ الهيجان أوجه حتى ان كولومبات عندما أراد اعادة تنظيم فريقه لم يقدر على ذلك، وكان رجاله يتمادون في التنكيل بضراوة بالذين سقطوا، ملوحين نحو المدينة بالغنائم من أقراط، وأنطقة، وقبعات مرشوقة فوق الرماح المهتزة.

لم يحدث على الفور هجوم معاكس، وأخطأ تواراس عندما اعتبره خطأ، بينما كان حسابا. ظن ان الإمبراطوريين كانوا بصدد ارسال مجموعات أخرى للتصدي لذلك الهجوم، ورماهم بقذائف أخرى كأنه يدعوهم للإسراع بذلك، ولكنهم اكتفوا بقصف المدينة، وأصابت قذيفة كنيسة القديس انطونيو، قرب مركز القيادة.

وبدا تواراس راضيا على كل ذلك فأمر المجموعة الثانية بالتحرك انطلاقا من حصن «سان جيورجيو». افواج قليلة، ولكنها تحت قيادة السيد دي لاقرونج، الذي كان نشيطا كالشاب المراهق رغم الخمسة والخمسين عاما التي تثقل كاهله. وأعطى دي لاقرونج وهو يلوّح بسيفه نحو الأمام الأمر بالهجوم ضد كنيسة صغيرة مهجورة، كانت تسير حذوها أشغال حفر نفق متقدم، وفجأة ظهر من وراء هضبة صغيرة جلّ الجيش المعادي، الذي كان ينتظر منذ ساعات ذلك الموعد.

عندئذ صاح تواراس «انها خيانة!» ونزل إلى الباب وأرسل يأمر لاقرونج بالانسحاب.

بعد ذلك بقليل، قاد اليه بعض الجنود يحملون راية فوج «بومبادور» شابا من أبناء «كزالي»، موثوق اليدين، فوجيء في برج صغير قرب القلعة بينما كان يرسل بواسطة منديل أبيض إشارات إلى المحاصرين. فأمر تواراس بطرحه على الأرض وأقحم ابهام يد الشاب اليمنى تحت الديك المرفوع ووجه الأستون نحو يده اليسرى، ثم وضع اصبعه على الزناد وسأله: «والآن؟»

فهم الشاب بسرعة المأزق الذي وجد نفسه فيه وبدأ يعترف: في المساء الفائت وعده أحدهم يدعى القائد غمبيرو بست بستولات ذهبية أعطاه سلفاً اثنتين منها ان هو فعل ما فعل، عندما يترك الجنود الفرنسيون حصن «سان جيورجيو». والأدهى من ذلك أن الشاب كان يطالب بالبستولات المتبقية، دون ان يفهم شيئا من امور الحرب، كما لو كان تواراس سيسرّ للخدمة التي قدمها. وفجأة شاهد روبارتو وأخذ

يصيح انه هو ذلك الغمبيرو الذي تحدث عنه.

وبقي روبارتو مذهولا، بينما اندفع بوتسو الأب نحو المفتري البائس وكان سيخنقه لو لم يمسكه بعض الأسياد من أتباع تواراس. وهذا الأخير تذكر في الحين ان روبارتو قضى كامل الليل إلى جانبه وانه، مهما كان الأمر، لا يمكن لأحد ان يخلط بينه وبين قائد. وفي الأثناء أدت تحريات الآخرين إلى ان هذا القائد غمبيرو موجود حقا، وينتمي إلى فيلق باسياني، وأتوا به مدفوعا بالركل والضرب أمام تواراس. وكان غمبيرو يعلن براءته، وفعلا عندما رآه السجين أقر بأنه لا يعرفه، ولكن من باب الحيطة أمر تواراس بسجنه. ومما زاد الأمر فوضى ما بلّغه أحد الجنود من أنه، بينما كانت فرق لاقرونج تنسحب، خرج أحدهم فارا من حصن «سان جيورجيو» ملتحقا بصفوف الإسبان، الذين تلقوه وسط علامات الترحاب. لا أحد يعرف عنه شيئا، الا أنه شاب، يلبس على الطريقة الإسبانية وشعرية تغطي رأسه. وفكر روبارتو حالا في فيرّانتي. ولكن ما راعه أكثر هو تلك الريبة التي بات الفرنسيون ينظرون بها إلى الإيطاليين الذين كانوا في حاشية تواراس.

وسمع أباه يحتجّ: «أيكفي غادر لئيم لتعطيل جيش كامل؟» بينما كان يشير إلى الفرنسيين المتراجعين أمام الإسبان، ثم أضاف متوجها إلى تواراس: «أطلب المعذرة ايها الصديق ولكني أظن ان الجميع هنا يعتبرنا مثل ذلك الخائن غمبيرو، أم أنا مخطىء؟» وفي حين كان تواراس يؤكد له صداقته وتقديره بهيئة يغلب عليها الشرود، قال مواصلا: «دعنا من هذا. فهمت. أرى ان الجميع هنا يرتعدون من الخوف وأنا لا أحتمل مثل هذه المهازل. لقد نفد صبري من هؤلاء الإسبان الملعونين وإن سمحت سأصرع اثنين أو ثلاثة منهم، حتى يرى الجميع أننا عند الحاجة لا نهاب ولا نجفل، ومتى طاب لنا لا نبالي بأحد، أي والله»!

ثم خرج من باب المدينة وركض بجواده كالمجنون، وسيفه مشهور ضد صفوف العدوّ. أكيد انه لم يكن يريد ارغامهم على الفرار،

ولكن بدا له من المناسب ان يفعل حسب رأيه، حتى يرى الجميع ذلك.

كانت شاهدا طيبا على الشجاعة ولكنها كعملية عسكرية كانت كأسوأ ما يكون. أصابته رصاصة في جبينه جعلته ينهار على صهوة جواده بانيوفلي. وانطلقت نحو المنحدر شحنة أخرى من الطلقات، وأحس روبارتو بضربة حادة على صدغه، كأن حجراً أصابه، وكاد يفقد توازنه. أصيب جانبيا، ولكنه تملّص من يدي مسانده واستقام مناديا اسم والده، ثم شاهد الجواد بانيوفلي مترددا، يركض في أرض بلا سيّد حاملا جسم سيّده وقد فارقته الحياة.

ومرة أخرى حمل روبارتو اصبعيه إلى فمه وأطلق الصفير المعتاد. سمعه الجواد بانيوفلي وانطلق عائدا نحو الأسوار، ولكن ببطء، بركض خفيف كأنه في استعراض رسمي، حتى لا يقلب راكبه الذي لم يعد يشدّ بقوة على جانبيه. ودخل الأسوار وهو يصهل بافانيته على روح سيده الميت، مسلما جسده إلى روبارتو الذي أغمض العينين المفتوحتين ونشف ذلك الوجه الملطخ بالدم المتجمّد، بينما كان دمه هو يسيل ساخنا على وجنته.

لعلّ الضربة التي تلقاها أصابت أحد الأعصاب، من يدري؟: في اليوم الموالي، ما أن خرج من كاتدرائية القديس ايفازيو ـ حيث أقام تواراس مأتما رسميا للسيد بوتسو دي سان باتريتسيو دي لاغريف ـ حتى وجد صعوبة في تحمّل ضوء النهار. ربما كانت عيناه محمرّتين من جراء الدموع، على كل حال منذ ذلك الحين اصبحت عيناه تؤلمانه. اليوم يقول علماء النفس انه، بدخول أبيه عالم الظلام، يريد هو الآخر ان يدخل في الظلام. كان روبارتو لا يعرف كثيرا عن علم النفس، ولكن هذه الصورة الكلامية ربما هي التي جذبته، على الأقل إما إلى نور، أو إلى ظلمة، الأحداث الموالية.

أظن ان بوتسو مات استجابة لعزة نفسه، وهذا يبدو لي شيئا رائعا،

إلا ان روبارتو لم يستطع ان يقدّر ذلك حق قدره. كان الجميع يشيدون ببسالة والده، وكان عليه ان يتحمل الحداد برباطة جأش، بينما كان يشهق. وحين يتذكر ان اباه كان يقول له ان السيد الشريف يجب ان يعتاد على تحمل المصائب دون ان تبلل جفونه الدموع، كان يعتذر لما يبديه من ضعف (ازاء والده الذي لم يعد بإمكانه تأنيبه على ذلك)، معيدا بينه وبين نفسه انها المرة الأولى التي يصير فيها يتيما. كان يظن أنّ من واجبه ان يعتاد على هذه الفكرة، ولم يفهم انه من العبث ان يعتاد على فقدان ابيه، لأن ذلك لن يحدث مرة ثانية: فليترك إذن الجرح مفتوحا.

ولكن لكي يعطي معنى لكلّ ما حدث لم يقدر على الامتناع عن التفكير مرة أخرى في فيرّانتي. فيرّانتي، الذي تبعه عن قرب باع إلى العدو الأسرار التي كان مطلعا عليها، ثم التحق بكل رذالة بصفوف العدو ليجني ثمار خيانته: وأبوه، الذي فهم كل شيء، أراد بتلك الطريقة ان يغسل الفضيحة التي لطخت شرف العائلة، ويعكس على روبارتو نور شجاعته لتطهيره من ظل الريبة التي رمي بها بينما كان بريئا. وحتى لا يذهب موته هباء، كان على روبارتو ان يتحلى بالسلوك الذي ينتظره الجميع في «كزالي» من ابن البطل.

لم يكن بوسعه ان يفعل غير ذلك: وجد نفسه الآن السيد الشرعي دي لاغريف، وارث اسم العائلة وممتلكاتها، ولم يعد تواراس يجرؤ على تشغيله في الأمور الحقيرة ـ كما لم يكن بإمكانه تكليفه بتلك الهامة. وهكذا، بعد ان بقي وحيدا، وحتى يقوم بدوره الجديد كيتيم من نسل شريف وجد نفسه وحيدا أكثر من ذي قبل، وليس من حركة تخفف من تلك الوحدة. وفي خضم الحصار، وقد تخفف من كل عبء، كان يتساءل كيف يقضي أيامه كمحاصر.

8

المذهب الغريب لعقول ذلك الزمن الجميلة

أوقف روبارتو لحظة تيار الذكريات، وتفطن إلى أنه أعاد إلى ذهنه موت أبيه لا لنيّـة بارّة في ترك ذلك الجرح مفتوحا، ولكن عن غير قصد، بينما كان يعاوده شبح فيرانتي، وقد حرّكه شبح الدخيل الموجود على متن دافني. وبدا له ان الاثنين كانا توأمين إلى حدّ انه عزم على التخلص من الأضعف للتغلب بعد ذلك على الأقوى.

في نهاية الأمر، كان يقول لنفسه، هل حدث في تلك الأيام من الحصار أن سمعت من جديد شيئا عن فيرّانتي؟ كلاّ. بل ماذا حدث؟ حدث أن أقنعني سان سافان بعدم وجوده.

وفعلا قد ارتبط روبارتو بصداقة مع السيد دي سان سافان. رآه مرة أخرى أثناء الجنازة، ولمس منه تعبيرا صادقا عن العطف. وسان سافان، عندما لا يكون فريسة لنشوة الخمر، رجل شريف في منتهى اللياقة. كان قصير القامة، عصبيّ المزاج، ذا حيوية، يحمل على وجهه، ربما، آثار المجون الذي حكى انه عاشه في باريس، ولعله لم يتجاوز بعد سن الثلاثين.

عـاب عـلى نـفسـه الإفـراط في الـكـلام أثـنـاء ذلـك الـعـشـاء، لا بخصوص ما قاله، بل بخصوص الكيفية غير اللائقة التي تكلم بها. وأراد

ان يحدثه روبارتو عن السيد دي بوتسو، وشكره روبارتو في دخيلته لأنه، على الأقل، أظهر اهتماما كبيرا. وروى له كيف ان أباه علّمه ما يحسن الآن في فن المسايفة، وألقى سان سافان عدة أسئلة وتحمس عندما وصف له روبارتو نوعا من الضربات، فاستلّ سيفه، هكذا وسط احدى الساحات، وأراد ان يريه روبارتو تلك الضربة. إما انه كان يعرفها أو أنه كان سريعا، لأنه تصدى لها برشاقة، ولكنه اعترف انها حيلة تنمّ عن مدرسة عالية.

واعترافا بالجميل كشف لروبارتو عن إحدى ضرباته. طلب منه ان يتهيأ، ثم تبادلا بعض الضربات الخادعة، انتظر الهجوم الأول، وفجأة بدا وكأن قدمه زلت به إلى الأرض، وعندما ترك روبارتو حذره متحيّرا، استقام بصفة غريبة وخلع له زرا من أزرار سترته ـ ممّا يدل على انه كان بوسعه ان يجرحه لو أغمد سيفه أكثر.

وقال سان سافان «هل أعجبتك هذه الضربة، أيها الصديق؟» بينما كان روبارتو يحييه معترفا بهزيمته «يسمّونها «Coup de la Mouette» أو «ضربة النورس»، كما تقولون. لو ركبت يوما البحر لرأيت هذه الطيور تنزل عموديا وتكاد تسقط في الماء، ولكنها ما أن تلمس سطح الماء حتى ترتفع من جديد والفريسة في منقارها. انها ضربة تتطلب تمرينا طويلا، ولا تنجح دائما. لم تنجح معي للمتهوّر الذي اخترعها. وهكذا أهداني حياته وسرّه. وأظن أن ندمه كان أكبر على فقدان الثاني من فقدانه للأولى».

وكانا سيتماديان أكثر لولا ان تجمّع حولهما جمع من المدنيين، فقال روبارتو: «لنتوقف. فلا أريد ان يذهب ظن البعض إلى إني نسيت حدادي».

فأجاب سان سافان: «إنك تكرم أباك الآن بتذكرك تعاليمه أحسن من اكرامك له قبل ذلك وأنت تنصت في الكنيسة إلى لاتينية رديئة».

فقال له روبارتو: «يا سيد دي سان سافان، ألا تخاف ان تنتهي يوما فوق المحرقة؟»

فتجهم وجه سان سافان لحظة ثم قال: «عندما كنت في سنك تقريبا كنت معجبا بشخص كان لديّ بمثابة أخي الكبير. على منوال الفلاسفة القدامى كنت أدعوه لوقريتيوس، وكان هو أيضاً فيلسوفا، وكان علاوة على ذلك كاهنا. كانت نهايته المحرقة، ولكن قبل ذلك قطعوا لسانه ثم خنقوه. وإذن، كما ترى نحن الفلاسفة عندما نحذق استعمال اللسان ليس فقط، كما قال ذلك السيد تلك الليلة، لنضفي على أنفسنا ما سمّاه bon ton. بل للإنتفاع به قبل ان يقطعوه. أو بالأحرى، وأترك المزاح جانبا، كي نضع حدا للأفكار المسبّقة ونكتشف علّة الوجود الطبيعية».

ـ «إذن انت لا تعتقد حقيقة في وجود الإله؟»

ـ «لا أجد علة لذلك في الطبيعة. ولست الوحيد في هذه الحالة. يروي لنا سترابون ان الغاليسيين لم تكن لديهم اية فكرة عن كائن سام. وعندما أراد المبشرون في الهند الشرقية ان يحدثوا أهل البلاد عن الربّ، يروي لنا أكوستا (الذي كان مع ذلك عيسويا) انهم اضطروا إلى استعمال العبارة الإسبانية Dios. ربما لا تصدق، ولكن في لغتهم لا يوجد أي مصطلح ملائم. وإن كانت فكرة الإله غير معروفة طبيعيا فهذا يعني انها من اختراع الإنسان... ولكن لا تنظر اليّ كمن لا يملك مبادىء شريفة أو كمن لا يخدم ملكه خدمة صادقة. الفيلسوف الحق لا يطلب أبدا قلب النظام الذي تقوم عليه الأشياء. انه يقبله. يطلب فقط ان ينمّي افكاره فالأفكار عزاء المفكرين الوحيد. بالنسبة للآخرين، من حسن الحظ انه يوجد البابوات والأساقفة لمنع الرعاع من الثورة ومن ارتكاب الجرائم. إن نظام الكون يحتم سلوكا متماثلا، الدين ضروري للشعب وعلى الحكيم ان يضحي بجزء من حريته ليؤمن استقرار المجتمع. أما أنا، فأظن أنني رجل نزيه: انني مخلص لأصدقائي، لا أكذب، إلا

عندما أعلن حبي لبعض السيدات، أحب المعرفة وأصنع، حسب ما يقولون، شعرا جميلا. ولذلك تعتبرني السيدات رجلا ظريفا. أود ان أكتب روايات، التي هي موضة هذا العصر، ولكني أفكر في العديد منها، ولا أتهيأ لكتابة أي منها..».

ـ «ما هي الروايات التي تفكر فيها؟»

ـ «أحيانا أنظر إلى القمر، وأتصور ان تلك البقع مغارات، ومدن، وجزر، وان الأجزاء التي تلمع هي الأماكن التي يتلقى فيها البحر نور الشمس كبلور المرآة. أريد أن أقص حكايات ملوكهم، أن أروي اخبار حروبهم وثوراتهم، أو أن اروي شقاء المحبين هناك، الذين يتنهدون وأنظارهم معلقة بأرضنا. ويروقني أن أروي حكايات الحروب والصداقة بين مختلف أعضاء الجسم، الأيدي تتحارب مع الأرجل، والأوردة في وصال عشق مع الشرايين، أو العظام مع المخّ. جميع الروايات التي أودّ كتابتها تتابعني. عندما أنفرد بنفسي في حجرتي يبدو لي انها حولي، كجمع من الشياطين الصغيرة، هذه تجذبني من أذني، والآخرى من أنفي، وكل واحدة تقول لي: «سيدي، اكتبني، فأنا جميلة جداً،». ثم أتفطن إلى أنه يمكن رواية قصة جميلة بتصور مبارزة طريفة، مثلا أن تبارز ثم تقنع منافسك حتى ينكر وجود الإله وعند ذلك تطعنه في صدره مما يجعله يموت كافرا. هيّا، يا سيد دي لاغريف، أخرج سيفك مرة أخرى، نعم، هكذا، تصدّ لهذه، خذ! إنك تصع قدميك على نفس الخط: هذا خطأ، انك تفقد ثبات الساق. لا يجب ان ترفع رأسك كثيرا، لأن الطول بين الكتفين والرأس يعرض مساحة كبيرة لضربات المنافس..».

ـ «ولكني أغطي رأسي بسيفي المشهور في يدي الممتدة».

ـ «وهذا غلط، في تلك الوضعية يفقد المبارز من قوته. ثم، أنا افتتحت بتحدّ على الطريقة الألمانية، بينما تهيأت أنت على الطريقة الإيطالية. وهذا خطأ. ينبغي ان تحاكي أكثر ما يمكن نوع التحدي الذي

جاء به المنافس. ولكنك لم تحدثني عن نفسك، وعن الأحداث التي عشتها قبل مجيئك إلى هذا الوادي المغبرّ.»

لا شيء يمكن أن يفتن شابا مثل رجل بالغ تسطع شخصيته بتناقضات منحرفة، فإذا به يريد منافسته. وهكذا فتح روبارتو قلبه لسان سافان، وحتى يثير اهتمامه ـ بما ان سنواته الستّ عشرة الأولى لا تمنحه الا بعض الأحداث القليلة ـ حدثه عن وسواسه المتعلق بأخيه المجهول.

فقال له سان سافان «إنك أكثرت من قراءة الروايات، وها انك تحاول ان تعيش واحدة منها، لأن مهمة الرواية هي التعليم عن طريق التسلية، وما تعلّمه ايانا هو ان نتعرف على مكائد الدنيا».

ـ «وماذا يعلّمني ما سمّيته برواية فيرانتي؟»

فشرح له سان سافان: «الرواية ينبغي ان تقوم دائما على لبس، اما في شخص، أو في فعل، أو مكان أو زمان أو ظرف، ومن هذه الالتباسات الأساسية تتولد التباسات عرضية، وتطورات، وانقلابات، وفي النهاية تعرّفات غير منتظرة وشيّقة. أعني باللبس مثلا موت البطل موتا غير حقيقي، أو ان يقتل شخص عوضا عن آخر، أو لبس في الكمّ، كالمرأة التي تظن ان عشيقها مات فتتزوج بآخر، أو في الكيف، عندما تخدعنا حواسنا، أو عندما يدفن أحد يبدو انه ميت، بينما هو في الواقع تحت تأثير مخدر منوّم؛ أو أيضاً لبس في العلاقة كأنْ يتهم أحد خطأ بجريمة قتل شخص ثان؛ أو في الأداة، مثل ان يتظاهر أحد بضرب الآخر بخنجر مستعملا سلاحا مصنوعا بطريقة تجعل الشفرة عوض ان تنغرس في العنق تدخل في المقبض، فتضغط على أسفنجة مبلّلة بالدم... ولا أتحدث عن الرسائل المغشوشة، والأصوات المزيفة، والرسائل التي لم تسلّم أو التي سلمت اما إلى مكان خاطىء أو إلى شخص آخر. ومن بين جميع هذه الحيل، تلك المفضلة أكثر، ولكنها أيضاً تلك الشائعة أكثر، التي تجعلنا نخلط شخصا بآخر، ويأتي الخلط

عن طريق الشبيه... الشبيه هو الظل الذي يجرّه البطل وراء ظهره أو الذي يسبقه في كل ظرف معين. انها خدعة شيطانية، تجعل القارىء يتقمص شخصية بطل الرواية، ويشاطرها ذلك الخوف الغامض من «الشقيق العدوّ». ولكن انظر كيف ان الإنسان أيضاً هو عبارة عن آلة، ويكفي ان تحرك لولبا سطحيا حتى يحرك بدوره لوالب أخرى بداخله: الشقيق والعداوة ليسا إلاّ انعكاس الخوف الذي يحسّه كل واحد من نفسه، وخبايا النفس، حيث تقبع الرغبات الشائنة، أو كما يقولون في باريس، أفكار صمّاء ولا يعبّر عنها. بما أنه اتضح انه توجد افكار غير محسوسة، تشغل النفس دون ان تشعر النفس بذلك، أفكار خفيّة يبرهن على وجودها أنه عندما يمتحن كل واحد منا نفسه، لا يفوته أن يتفطن إلى أنه يحمل في قلبه الحب والحقد، والفرح والحزن، دون أن يتذكر بوضوح الأفكار التي كانت سببا في تولّدها».

فجازف روبارتو متسائلا: «إذن فيرانتي..». وأتمّ سان سافان مختتما: «إذن فيرانتي هو مخاوفك وخجلك. غالبا، كي لا يقول الإنسان انه المسؤول عن مصيره، يرى ذلك المصير كأنه رواية، يحركها مؤلف صعلوك حالم».

- «ولكن ماذا يمكن أن يعني هذا المثال الذي يبدو انني صنعته لنفسي دون أن أدري؟»

- «من يدري؟ ربما كنت لا تحب أباك بالقدر الذي كنت تتصوره، وكنت ترهب الشدة التي كان يعاملك بها ليجعلك مستقيما، ونسبت اليه هفوة، لتعاقبه من بعد لا عن طريق هفواتك، بل من خلال هفوات الآخر».

- «سيدي، إنك تحادث ابنا لا يزال يبكي فقدان والده العزيز! أظن ان الحث على عقوق الوالدين اثم أشنع من التجديف باسم سيدنا المسيح»!

ـ «هوّن عليك، هوّن عليك، يا عزيزي لاغريف! ان الفيلسوف ينبغي ان تكون له الجرأة لانتقاد جميع التعاليم الكاذبة التي لقّنونا اياها، ومن بينها ذلك الإجلال الأحمق للشيخوخة، كما لو لم يكن الشباب خيرنا الأكبر وأفضله. أقول لك صادقا، عندما يكون الرجل الشاب قادرا على التصور، والحكم والعمل، أليس أفضل لتسيير شؤون العائلة من رجل في الستين أبله، قد أثلج الشيب الذي نبت على دماغه مخيِّلته؟ إن ما نقدّره في من يكبرنا على انه تعقّل، ليس في الواقع إلا خوفا واضحا من الفعل. تريد ان تخضع لهؤلاء عندما يكون الكسل قد أوهن عضلاتهم، وأيبس شرايينهم، وبخّر عقولهم وامتص نخاع عظامهم؟ إن أنت عشقت امرأة أليس لجمالها؟ لعلّك ستواصل عشقها بعد أن تكون الشيخوخة جعلت من ذلك الجسم شبحا، لا يصلح إلا ليذكرك بقرب الأجل؟ وإن كان هذا سلوكك مع خليلاتك لماذا لا يكون هو نفسه مع أولئك المسنّين؟ ستقول لي إن ذلك الشيخ هو ابوك وان السماء تعدك بعمر طويل إن أنت بجّلته. من قال ذلك؟ شيوخ يهود كانوا يظنون انه بإمكانهم ان يعيشوا في الصحراء فقط باستغلال ثمرة الصلب. إن كنت تظن ان السماء تهديك ولو يوما زائدا من الحياة لو سلمت نفسك نعجة في يد ابيك، فأنت مخطىء. أتظن ان تحيّة إجلال تمسح بها الأرض عند رجلي أبويك ستشفيك من ورم خبيث، أو ستدمل جرح طعنة أو أنها ستريحك من حصاة في المثانة؟ لو كان الأمر كذلك لما وصف لك الأطباء جرعاتهم المقززة، ولنصحوك لمداواتك من المرض الإيطالي ان تنحني إجلالا أربع مرات قبل العشاء أمام السيد أبيك، وان تقبل السيدة أمك قبلة قبل النوم. ستقول لي انه دون أبيك ما كنت ترى الوجود، ولا هو دون أبيه، وهكذا حتى نصل إلى ملكي صادق. ولكنه هو مدين لك بشيء، لا أنت: انت تدفع بسنوات طويلة من الدموع ثمن لحظة قضاها في المداعبة المسلية».

ـ «إنك لا تؤمن بما تقول.»

- «نعم، هذا صحيح. لا أكاد اؤمن أبدا بما أقول. ولكن الفيلسوف مثل الشاعر. هذا الأخير ينظم حروفا تصورية لحورية خيالية، ولا يبحث من خلال الكلمات الا عن سبر أعماق الهوى. الفيلسوف يمتحن برودة نظرته، ليرى إلى أي حدّ يمكن ان ينال من قلعة التزمت.لا أريد ان ينقص احترامك لأبيك، بما انك قلت لي انه لقنك تعاليم طيبة. ولكن لا ينبغي أن تحزنك ذكراه. أراك تدمع..».

- «اوه، ليس من جراء ألمي. ربما الجرح الذي أصبت به في رأسي قد أضعف نظري..».

- «اشرب القهوة».

- «القهوة؟»

- «أقسم أنها بعد وقت قليل ستصبح دارجة. إنها ترياق. سأحصل لك على شيء منها. إنها تجفف الأخلاط الرطبة، وتطرد الهواء من الجسم، وتقوي الكبد، انها علاج ناجع جدا لمرض الاستسقاء والجرب، تنعش القلب، وتخفف من آلام المعدة. وبخارها ينصح به فعلا في مداواة احتقان العينين، وطنين الأذنين، والزكام، والبرد أو نزلة الأنف كما تريد ان تسمي ذلك. ثم ادفن مع ابيك ذلك الشقيق المزعج الذي ابتكرته. وبالخصوص اعثر لنفسك على حبيب»

- «حبيب؟»

- «سيكون أفضل من القهوة. عندما ستتألم من أجل إنسان حيّ ستبخل بآلامك على مخلوق ميت».

فاعترف روبارتو وقد احمرّ وجهه من الخجل «ولكنني لم أعشق أبدا امرأة».

- «لم أقل امرأة. يمكن أن يكون رجلا».

فصاح به روبارتو: «يا سيد دي سان سافان»!

ـ «من الواضح انك تأتي من الريف».

اشتد الارتباك بروبارتو فاعتذر بأن عينيه اصبحتا تؤلمانه كثيرا ووضع حدا لذلك اللقاء.

وحتى يقنع نفسه بكل ما سمع من حديث، قال في نفسه ان سان سافان جعل منه ألهية: كما لو كانا في مبارزة، أراد ان يريه التحركات المعروفة في باريس. وظهر روبارتو بمظهر الآتي من الريف. بل وأكثر، في اتخاذه تلك الأقوال مأخذ الجدّ ارتكب خطيئة ما كان يرتكبها لو أخذها مأخذ الهزل. وأخذ يعرض على نفسه قائمة الخطايا التي ارتكبها وهو يستمع لتلك الأحاديث الكثيرة ضد العقيدة، والعرف، والدولة، والاحترام الواجب أداؤه نحو العائلة. وبينما كان يفكر في تهاونه، انتابه جزع آخر: تذكر أن أباه توفي وهو يجدّف.

9

المنظار الأرسطوطاليسي

في اليوم الموالي عاد روبارتو للصلاة في كاتدرائية القديس ايفازيو. وقد فعل ذلك ليخفف ما بنفسه: في تلك العشية من أوائل يونيو كانت الشمس تضرب بأشعتها الحارة الشوارع التي تكاد تكون خالية ـ كما كانت في تلك الآونة، وهو يشعر على متن دافني بالحرارة التي تشيعها في ذلك الخليج الصغير وقد عجزت جوانب السفينة على ردّها كما لو كان اللوح حاميا. ولكنه أحس أيضا بحاجة ملحة إلى الاعتراف بخطيئته وبخطيئة أبيه. فأوقف كاهنا في جناح الكنيسة وهذا الأخير قال له في بداية الأمر إنه لا ينتمي إلى الخورنية ثم، أمام نظرة الشاب المتوسلة، قبل وجلس على كرسي الاعتراف ودعاه للتوبة.

كان الأب إيمانويل لا يبدو طاعنا في السن، ربما ناهز الأربعين وكان، على حدّ تعبير روبارتو، «ذا وجه لطيف ومورّد تلوح عليه علامات الرقة والجلال»، ممّا شجع روبارتو على البوح له بجميع ما يشغله. وذكر له قبل كل شيء تجديف والده متسائلا ان كان ذلك باعثا كافيا كي لا ينعم والده الآن بين ذراعي «الأب»، وكي يتألم في قاع الجحيم؟ فألقى عليه المعرّف بعض الأسئلة وحث روبارتو على الإعتراف بأنه، مهما كان الظرف الذي لاقى فيه الشيخ بوتسو الموت، فمن المحتمل جدا انه لاقى حتفه بينما كان يذكر اسم الرب عبثا:

فالتجديف عادة سيئة تؤخذ عن الفلاحين والأسياد الذين يعيشون في أرياف «مونفيراتو» يعتبرون من قبيل احتقار الغير، ان يتكلموا أمام أندادهم، كما يتكلم فلاحوهم.

وختم المعرّف قائلا: «انظر يا ابني، إن أباك مات بينما كان يقوم بإحدى تلك الأعمال الكبيرة والنبيلة التي يقولون ان المرء يدخل من أجلها فردوس الأبطال. الآن، حتى وإن كنت لا أؤمن بوجود فردوس مثل هذا، وأعتقد انه في ملكوت السماء يعيش في انسجام مقدس شحاذون وملوك، أبطال وجبناء، من المؤكد ان الإله في طيبته لم يرفض أباك في ملكوته فقط لأن لسانه زلق بينما كان مشغولا بمهمة صعبة، بل وأجرؤ على القول انه في مثل تلك الحالات حتى مثل ذلك الهتاف يمكن ان يكون طريقة لدعوة الله ان يكون شاهدا وحكما على ذلك العمل العظيم. وإن كان هذا الأمر يزعجك حقا، فعليك ان تصلي ترحما على روح أبيك وأقم من حين لآخر قداسا، لا لحث الإله ان يغير من حكمه لأنه ليس راية تتحول حسب أهواء المتزمتين، بل ليشمل الخير روحك».

وحدثه عندئذ روبارتو عن الأقوال المتمردة التي سمعها من صديق له، ففتح الكاهن ذراعيه بتأسف وقال: «إنني يا بنيّ أعرف القليل عن باريس، ولكن ما سمعته عنها جعلني عالما بما يوجد في تلك الـ«سدوم» الجديدة من طائشين، وطماعين، ومارقين، وجواسيس، وأهل خداع. ومن بينهم تجد من يشهد بالزور، ومن يسرق حقق القربان في الكنائس، ومن يدوس الصليب المقدس، وأولئك الذين يعطون النقود للشحاذين لحثهم على الكفر بالله، وحتى الذين يعمّدون الكلاب استهزاء بالدين... ويسمّون ذلك تجاوبا مع موضة العصر. ولم يعد الناس يؤمون الكنائس للصلاة، بل للهو وللاختباء وراء الأعمدة لإغواء السيدات، والضجيج متواصل حتى عند اقامة القداس، يدّعون الفلسفة ويلاحقونك بالأسئلة الخبيثة، لماذا أعطى الإله الشرائع للعالم؟، لماذا

يمنع الزنا؟، لماذا تجسّد المسيح؟، ويستعملون كل واحدة من أجوبتك لتحويلها إلى حجّة إلحاد. هي ذي عقول العصر النيّرة: ابيقوريون، بيرونيّون، ديوجينيون، وفاسقون! وإذن لا تصغ إلى تلك الإغراءات التي يأتي بها الشيطان».

لم يكن روبارتو يكثر في العادة من استعمال حرف البداية المضخم الذي كان كتاب عصره يبالغون في استعماله: ولكنه عندما ينقل اقوال الأب ايمانويل وحكمه كثيرا ما كان يضع حرف بداية مضخما كما لو كان الأب حاضرا لا عن طريق الكتابة فحسب بل وكأنما يتحدث مؤكدا على عظمة تلك الأشياء التي كان يقولها ـ دليل على انه كان رجلا ذا بلاغة في الكلام كبيرة وأخاذة. وفعلا ارتاح روبارتو لكلماته حتى إنه، عندما نهض من كرسي الاعتراف، أراد ان يتمادى قليلا في محادثته. وهكذا عرف انه عيسوي من جهة سافويا وأنه دون شك رجل ذو شأن، بما أنه يقيم في «كزالي» كملاحظ بتفويض من دوق سافويا؛ وليس هذا غريبا في ذلك الوقت عند اقامة حصار.

وكان الأب ايمانويل يقوم بمهمته عن طيب خاطر: فتلك الكآبة الحصارية كانت تسمح له بمواصلة دراساته بصفة مرضية ما كانت ممكنة وسط ملاهي مدينة مثل تورينو. وعندما سأله روبارتو عن أشغاله قال إنه هو أيضا مثل علماء الفلك كان بصدد صنع منظار.

ـ «إنك سمعت دون شك بذلك الفلكي الفلورنسي الذي فسَّر الكون مستعملا المنظار، وهو عبارة عن مكبر للعينين، وبواسطة المنظار رأى ما كانت العين تتصوره فقط. إنني أقدّر جدا استعمال الآلات الميكانيكية لكي نفهم، كما يقال، الكون المنبسط. ولكن لتفهم الكون الثقيل، أو بالأحرى طريقتنا في معرفة عالمنا، ليس بإمكاننا الا ان نستعمل منظارا آخر، نفس ذلك المنظار الذي استعمله ارسطو، والذي ليس أنبوبا ولا عدسة، بل نسيج من كلمات، ورأي ثاقب، لأنه ليس هناك الا هبة الفصاحة المصطنعة التي تمكننا من فهم هذا الكون.»

وأثناء الحديث كان الأب إيمانويل قد قاد روبارتو خارج الكنيسة وبينما كانا يتفسحان صعدا مدارج الأسوار، ووقفا في مكان كان في ذلك الصباح هادئا، بينما كانت اصداء طلقات مدفعية تصلهما من طرف المدينة المقابل. كان يمتدّ أمامهما بعيدا المعسكر الإمبراطوري، ولكن على مساحة كبيرة كانت الحقول خالية من الجنود والعربات، والمروج والهضاب كانت مشرقة تحت الشمس الربيعية.

عند ذلك سأله الأب إيمانويل: «ماذا ترى يابنيّ؟» وأجابه روبارتو، وهو لا يزال قليل الفصاحة: "المروج».

ـ «أكيد، كل انسان بإمكانه ان يرى هنالك مروجا. ولكنك تعلم جيدا انه حسب موقع الشمس، ولون السماء، وساعة النهار والفصل، فهي تبدو لك في أشكال مختلفة وتثير فيك عواطف مختلفة. فالفلاح المتعب من العمل يرى فيها مروجا ولا غير.ويحدث نفس الشيء لصيّاد السمك المتوحّش الذي تفزعه تلك الصور الليلية من النار التي تشقّ السماء فتبهره وترعبه؛ ولكن ما أن يتجرّأ دارسو الشّهب، الذين هم أيضاً شعراء، على تسميتها بشهب مشعّرة، وملتحية ومذنّبة، بالجدي، والمثلثات، والدروع، والشعل والومضات، هذه الصور الكلامية تبيّن لك عبر أي رموز ثاقبة تتكلّم الطبيعة، التي تستعمل هذه الصور مثل طلاسم، ترجع من ناحية إلى صور البروج ومن ناحية أخرى إلى أحداث ماضية أو مقبلة. والمروج؟ انظر كم يمكنك ان تتحدّث عن المروج، وكيف بحديثك عنها تراها أكثر وتفهمها أكثر: يهبّ النسيم، وتنفتح الأرض، وتبكي العنادل، وتتبختر الأشجار المكلّلة بالأوراق، وتكتشف المواهب الرائعة للمروج في تنوّع سلالات حشائشها تسقيها الجداول تترقرق في حبور بريء. المروج الحافلة تتهلّل بفرحة عارمة، وعند طلوع الشمس تفتح وجوهها فترى فيها قوس ابتسامة وتبتهج لعودة الكوكب، ثملة من قبلات الكوكب العذبة، ويرقص الضحك على الأرض نفسها التي تنفتح في حبور صامت، والدفء الصباحي يغدقها بالفرحة حتى انها

تبكي دموعا من ندى. المروج، متوّجة بالأزهار، تستسلم لمواهبها وتكوّن مبالغات ذكيّة من أقواس قزح. ولكن سرعان ما يعرف شبابها انه يسرع نحو الموت، فيتكدّر ضحكها بشحوب مفاجىء، وتفقد السماء الوانها والنسيم الذي يتباطأ يتنهّد فوق أرض واهنة، حتى اذا ظهرت بوادر غضب السماء الشتائي، ذبلت المروج، وجفّت تحت الصبر. هوذا يا ابني: لو قلت ببساطة ان المروج نزهة فأنت لم تفعل الا ان صوّرت لي خضرتها ـ وهو الشيء الذي أعرفه ـ ولكنك لو قلت لي ان المروج ضاحكة فأنت تصوّر لي الأرض كبشر حيّ، وفي المقابل سأتعلّم ان أرى في وجوه البشر كلّ الدرجات اللونية التي التقطتها من المروج... وهذه وظيفة الصورة الممتازة فوق جميع الصور، الإستعارة. إن كانت الموهبة، وإذن المعرفة، تتمثّل في الجمع بين مفاهيم متباعدة وفي ايجاد اوجه شبه بين اشياء لا تتشابه، الإستعارة، هي من بين الصور أحدّها وأغربها، وهي الوحيدة القادرة على خلق العجيب، الذي تنشأ منه المتعة، مثلما يحدث في تغييرات المناظر على المسرح. وإن كانت المتعة التي تعطينا اياها الصور هي أن نتعلّم اشياء جديدة دون تعب وكثيرا من الأشياء في كتاب صغير، فها إن الإستعارة، عندما تحلّق بفكرنا من نوع إلى آخر، تجعلنا نرى من خلال كلمة واحدة أكثر من شيء».

ـ «ولكن ينبغي ان يعرف الإنسان كيف يبتكر الاستعارات، وليس هذا بمتناول ريفي مثلي، كانت المروج طيلة حياته مكانا يصيد فيه الطيور بالحجارة».

ـ «أنت رجل من أصل نبيل، ولم يبق إلا قليل كي تصبح ما يسمونه في باريس رجلا شريفا، بارعا في الجدل بالكلام مثل براعتك في المبارزة بالسيف. وأن تحسن استعمال الاستعارات، وإذن ان ترى العالم متنوعا بصفة خارقة لا تخطر على بال من هو جاهل، فنّ يتعلّمه المرء. لأنه، إن شئت، في هذا العالم الذي فقد فيه الكثيرون صوابهم

أمام الآلات الكثيرة والعجيبة ـ وترى بعضها، للأسف حتى هنا في هذا الحصار ـ أنا أيضا أصنع آلات ارسطوطاليسية، تمكن كل شخص من أن يرى من خلال الكلمات..».

في الأيام الموالية تعرف روبارتو على السيّد ديلاّ ساليتّا، الذي كان الضابط المكلف بالاتصالات بين تواراس وأعيان المدينة. وكان قد بلغ إلى سمعه ان توراراس كان يتشكى من أهالي «كزالي» وأنه كان لا يثق في ولائهم وكان يقول بسخط: «ألا يفهمون أنه حتى في وقت السلم تجد المدينة نفسها في وضعية لا تمكنها من تمرير جندي أو سلّة من الزاد دون أن تطلب الإذن بالمرور من الوزراء الإسبان؟ وأنه دون الحماية الفرنسية ليس بإمكانها ان تضمن لنفسها احترام الآخرين؟» ولكنه الآن علم من السيّد ديلاّ ساليتّا ان «كزالي» لم تشعر بالاطمئنان حتى مع أدواق مانتوفا. وكانت سياسة آل قونزاقا تهدف دائما إلى الحدّ من معارضة الكزاليين، ومنذ ستين سنة عانت المدينة من التنقيص التدريجي من امتيازاتها.

ـ «أفهمت يا سيّد دي لاغريف،» كان ساليتّا يقول «قبل الآن كنا نشتكي من كثرة الأداءات، والآن ها نحن نتحمّل المصاريف لإعاشة الحامية. إننا لا نحب رؤية الإسبان في ديارنا،ولكن هل نحب حقا الفرنسيين؟ أنموت من أجلهم أم من أجلنا نحن؟»

فسأله روبارتو: «إذن من أجل من مات أبي؟» ولكن السيّد ديلاّ ساليتّا لم يجد جوابا لسؤاله.

اشمأزت نفس روبارتو من كل تلك الأحاديث السياسية فعاد بعد بضعة أيام لملاقاة الأب إيمانويل في الدير حيث كان يقيم، وهنالك وجّهوه لا نحو حجرة بل نحو ربع خصص لإقامته تحت قباب رواق يسوده الصمت. ووجده في محادثة مع رجلين نبيلين، كان أحدهما ذا لباس باذخ: كان يلبس ثوبا ارجوانيا مزخرفا ببرندبورية مذهبة، ومعطفا

مزركشا بشرائط ذهبية مبطنا بفرو ذي شعر قصير، وصديرية مكففة بسبيبة حمراء متقاطعة وشريط من الأحجار الصغيرة. وقدمه اليه الأب إيمانويل على انه الفارس دون غسبار دي سالزار، وعلى كل حال من طريقته المتعالية في الكلام ومن هيئة شاربيه وشعره كان روبارتو قد تكهن بأنه من أشراف جيش العدوّ. والرجل الآخر كان السيد ديلاّ ساليتا. وخامر روبارتو لحظة الشك في أنه يجد نفسه في وكر جواسيس، ثم علم، كما أعلم الآن بهذه المناسبة، أن بروتوكول الحصار يسمح لممثل عن الجيش المحاصر بدخول المدينة المحاصرة، قصد القيام باتصالات وبمفاوضات، كما ان السيد ديلاّ ساليتّا يتمتع بحرية الدخول إلى معسكر سبينولا.

وكان الأب إيمانويل يقول انه كان فعلا يتهيأ للكشف لزائريه عن «آلته الأرسطوطاليسية»: وقاد ضيوفه إلى حجرة كان يوجد بها أغرب أثاث يمكن ان يتصوره المرء ـ ولا أدري إن كان باستطاعتي أن أعيد تركيب شكله من خلال الوصف الذي وصفه روبارتو لمولاته، لأنه بكل تأكيد كان شيئا لم يسبق ان رآه من قبل ولا من بعد.

كانت القاعدة السفلى متكونة من صندوق ينفتح على واجهته، في شكل رقعة شطرنج، واحد وثمانون درجاً، تسعة صفوف أفقية على تسعة عمودية، كل صفّ في كلتا الجهتين يحمل حرفا محفورا (BCDEFGHIK). على سطح الصندوق كان يوجد على اليسار مقرأ وضع عليه كتاب كبير، مخطوط وبحروف تاجيّة ملوّنة. على يمين المقرأ، كانت هناك ثلاث اسطوانات معلّبة احداها في الأخرى، ينقص طولها بقدر ما يزيد عرضها (اقصرها هي اكبرها اتساعا، مجعولة لتحمل الاثنين الأكثر طولا)، بشكل يجعل مدوّرة مركزة على الجانب تديرها بقصور ذاتي احداها داخل الأخرى بسرعة تناسب الوزن. وكانت كل اسطوانة تحمل على الحاشية اليسارية نفس الحروف التسعة المحفورة على الأدراج. يكفي أن تشغّل المدوّرة حتى تتحرك الأسطوانات بصفة

مستقلّة، وعندما تتوقف يمكن ان نقرأ ثلاثيات من حروف جمعتها الصدفة، مثل CBD، KFE أو BGH.

وأخذ الأب إيمانويل يفسّر الفكرة التي ترتكز عليها آلته:

«كما يعلّمنا الفيلسوف، ليس العقل الاّ القدرة على النفاذ إلى الأشياء تحت عشرة اصناف، وهي الماهية، والكميّة، والصفة، والعلاقة، والحركة، والعاطفة، والموقع، والزمان، والمكان، والمظهر. والماهيات هي الموضوع نفسه لكلّ التماع وبخصوصها ينبغي ان نشدو بمشابهاتها الأريبة. مهما كانت الماهيات، فذلك ما سجّلته في هذا الكتاب تحت حرف A، وقد لا تكفي حياتي كلّها لوضع قائمة منها كاملة. مهما يكن من أمر فقد تمكّنت من جمع بضعة آلاف منها استمددتها من كتب الشعراء والعلماء، ومن هذا السجلّ العظيم الذي هو مصنع العالم للتلميذ. لذا من بين الماهيات نضع تحت الرب العظيم، الأشخاص الإلهيين، والأفكار، والآلهات الأسطورية، الكبيرة، والمتوسّطة والصغيرة، والآلهات السماوية، والهوائية والبحرية والأرضية والجهنمية، والأبطال المتألّهين، والملائكة، والشياطين، والقطارب، والسماء والنجوم السابحة، والعلامات السماوية والمجموعات الكوكبية، والبروج، والدوائر والكرات، والعناصر، والأبخرة، والروائح، ثمّ - وحتّى لا اذكرها جميعها - النيران التحتية والشرارات، والشهب، والبحار، والأنهار، والعيون والبحيرات والصخور... وهكذا دواليك من خلال الماهيات الاصطناعية، مع مصنوعات كلّ الفنون، والكتب، والأقلام، والحبر، والكرات، والفراجير، والزوايا، والقصور، والمعابد والأكواخ، والدروع، والسيوف، والطبول، واللوحات، والفرش، والتماثيل، والفؤوس والمناشير، وأخيرا الماهيات الميتافيزيقية مثل الجنس، والنوع، والخصوصيّ والعارض وما يشابهها من مفاهيم».

كان الأب يشير إلى أدراج صندوقه، وكان يفتحها ليظهر كيف ان كلّ درج منها يحتوي على ورقات مربعة من الرقّ الخشن جداً، من

ذلك الذي يستعمل لتجليد الكتب، مرصّفة حسب النظام الأبجدي: «كما تعرفون، كل صفّ عمودي يعود، من B إلى K، إلى واحد من الأصناف التسعة، وبالنسبة لكل صنف منها كل واحد من الأدراج الستّة يجمع عائلات من أعضاء. على سبيل المثال، بخصوص الكميّة نسجّل عائلة كميّة الأحجام، التي من أعضائها الصغير، والكبير، والطويل والقصير؛ أو عائلة الكميّة العددية، التي من اعضائها اللاشيء، والواحد، والاثنان وما يتبع، أو كثير وقليل. أو تحت صنف الصفة تجد عائلة الصفات المتعلّقة بالرؤية، مثل المرئي واللامرئي، والجميل، والدميم، والنيّر والمعتم؛ أو المتعلّقة بالشمّ، مثل الرائحة الفائحة والنتنة؛ أو صفات العواطف، مثل الفرح والحزن. ويمكن قول نفس الشيء بخصوص كل صنف. وكلّ ورقة تسجّل عضوا، وبخصوص ذلك العضو اسجّل جميع الأشياء المتعلّقة به. هل هذا واضح؟»

وأجاب الجميع بالإيجاب معجبين، وواصل الأب قائلا: «لنفتح الآن كما اتفق كتاب الماهيات الكبير، ولنبحث فيه عن واحدة مهما كانت... هوذا، قزم. ماذا يمكن أن نقول، قبل ان نتحدّث في ذلك بصفة ثاقبة، عن القزم؟

«Que es pequeno، صغير، petit»، أوعز دون غسبار دي سالزار، «y que es feo, y infeliz, y ridiculo...».

فاعترف الأب ايمانويل قائلا، «فعلا، ولكنني لا أعرف ماذا أختار، وإنني متأكد انه لو كان عليّ أن أتحدّث لا عن قزم بل، لنقل عن المرجان، هل سيمكنني ان أجد حالا خصوصيات في مثل هذا البروز؟ ثم، القصر له علاقة بالكميّة، والدمامة بالصفة، من اين ينبغي أن أبدأ؟ كلاّ، من الأفضل ان اعهد بذلك إلى الحظ، الذي خدمه هي اسطواناتي. الآن سأجعلها تدور وأحصل، كما يحصل بالصدفة الآن، على الثلاثية BBB. حرف B في الموقع الأول هي الكميّة، B في الموضع الثاني تحملني إلى البحث، في خط الكميّة، داخل درج

الحجم، وهنا، فعلا في بداية الأشياء B، أجد صغير. وفي هذه الورقة المخصّصة إلى «صغير» أجد ان الصغير هو الملاك، الذي تحتويه نقطة، والقطب، الذي هو نقطة ثابتة في الكرة، ومن بين الأشياء الأولية الشرارة، وقطرة الماء وسكروبل من حجرة، والذرّة، التي حسب ديمقريطس، يتكوّن منها كلّ شيء؛ بخصوص الأشياء الإنسانية، نجد الجنين، والمقلة، والكعب؛ بالنسبة للحيوان النملة والبرغوث، وبالنسبة للنبات الشجن، وحبّة الخردل وفتاتة الخبز؛ وبالنسبة للعلوم الرياضية النهاية الصغرى، وحرف I، والكتاب المجلّد في حجم السادس من العشر، أو درهم العطّار؛ وبالنسبة للهندسة علبة الجواهر أو المحور، أو بالنسبة للخرافات بسيكاباكس جنرال الفئران ضدّ الضفادع والميرميديون المولودون من النمل...ولكن لنكتف بهذا، اذ يمكنني ان اسميّ قزمنا علبة الطبيعة، رضّاعة الأطفال، فتاتا من انسان. مع الملاحظة أنه لو ادرنا من جديد الإسطوانات لتحصّلنا على العكس، مثلا هوذا، CBF، الحرف C يرجعني إلى الصفّة، والحرف B يوعز لي ان أبحث عن الأعضاء في الدرج الذي يخصّ الرؤية، وهنا يجعلني الحرف F التقي كعضو بالكائن اللامرئي. ومن بين الأشياء اللامرئية أجد، يا للصدفة الرائعة، الذرّة، والنقطة، اللتين تمكّنانني منذ الآن ان اصف قزمي على أنه ذرّة من انسان، أو نقطة من لحم».

كان الأب ايمانويل يدير اسطواناته ويورّق في أدراجه سريعا مثل لاعب الخفّة، ممّا يجعل الإستعارات تخرج كأنما بفاعل السحر دون ان نشعر بلهث الآلة التي كانت تنتجها. ولكنه لم يكن راضيا. وواصل قائلا:

«ايها السّادة، ان الإستعارة الذكية يجب ان تكون اكثر تعقيدا بكثير. كلّ الأشياء التي عثرت عليها يجب ان تحلّل بدورها حسب الأصناف العشرة التي ذكرناها، وكما يفسّر كتابي، لو كان علينا ان نتمعّن في شيء ينتمي إلى الصفة، يجب ان نرى ان كان مرئيّا، وعلى كم مسافة،

إلى أي حدّ هو جميل أو دميم، وما هو لونه؛ كيف صوته، وكيف رائحته، وكيف طعمه؛ إن كان محسوسا أو ملموسا، ان كان نادرا أو كثيفا، حارّا أم باردا، ومن أي صورة، وعاطفة، وهوى، وفنّ، وعلم، وصحّة، ومرض ؛ وإن كان من الممكن صنع علم بخصوصه. وأسمّي جميع هذه الأسئلة جزيئات. الآن أعرف ان محاولتنا الأولى قادتنا إلى العمل حول صفة الكميّة، التي تحتوي من بين أعضائها على صفة الصغير. الآن سأدير من جديد الإسطوانات، وأتحصّل على الثلاثية BKD. الحرف B، الذي كنّا قد قرّرنا انه يرجع إلى الكميّة، وإن أنا رجعت إلى كتابي لقال لي ان الجزيئة الأولى هي تحديد بأيّ شيء يجب قياسه. لو بحثت في الكتاب إلى ماذا يرجع القياس، لأعادني من جديد إلى درج الكميّة، تحت عائلة الكميّات بصفة عامّة. أعود إلى ورقة القياس وأختار منها الشيء K، الذي هو قياس الإصبع الهندسي. وهنا أنا استطيع الآن ان أكوّن تعريفا ثاقبا، مثل انني لو أردت أن اقيس رضّاعة الأطفال تلك، تلك الذّرة من انسان، لكان الإصبع الهندسي قياسا مفرطا، يقول لي الكثير، مضيفا إلى الإستعارة المبالغة أيضاً، في سوء حظّ القزم وهيئته المضحكة.

فقال السيّد ديلاّ ساليتّا «يا للروعة، ولكنك من الثلاثية الثانية التي تحصّلت عليها لم تستعمل بعد الحرف الأخير، حرف D». .

«لست انتظر اقلّ من هذا من فكر مثل فكرك، يا سيّدي»، أجاب الأب ايمانويل وعليه علامات الرضى، «ولكنك وضعت اصبعك على النقطة الرائعة في نظامي! إن هذا الحرف الذي تبقّى (والذي بإمكاني ان القي به لو سئمت، أو اعتبرت انني بلغت مرامي)، هو الذي يسمح لي بأن أواصل بحثي! هذا الحرف D يسمح لي بأن ابدأ من جديد مرحلة الجزيئات وتحملني إلى البحث في صنف المظهر (على سبيل المثال، أي مظهر يليق به، أو يمكن ان يكون رمزا لشيء ما)، ومن هنالك اواصل، مثلما فعلت مع الكميّة، فأدير وأدير الإسطوانات، مستعملا

الحرفين الأولين محتفظا بالحرف الثالث لمحاولة جديدة، وهكذا دواليك إلى ما لا نهاية له، للحصول على الملايين من التركيبات المحتملة، حتى وإن بدا بعضها ثاقبا اكثر من الآخر، وسيكون لعقلي الحكم أيّها تكون أقدر من غيرها على إحداث الإعجاب. ولكنني لا أريد ان أكذب عليكم، يا حضرات السادة، لم أختر القزم عرضا: هذه الليلة بالذات تمرّنت بكثير من الدقّة على استمداد اكثر ما يمكن من هذه المادّة».

ولوّح بورقة وأخذ يقرأ سلسلة التعريفات التي كان يدفن تحتها قزمه المسكين، رجل صغير أقصر من اسمه، مضغة، شظية من مسخ، حتى ان الذرّات التي تنفذ مع النور من النافذة تبدو اكبر منه بكثير، جسم مع الملايين من أمثاله يشير إلى الساعة في حلق ساعة رملية، تركيبة يجد القدم فيها نفسه قريبا من الرأس، جزء من لحم يبدأ من حيث ينتهي، خطّ يتكتّل في نقطة، طرف ابرة، شخص ينبغي التحدّث اليه بهدوء لئلاّ يطيره النفس بعيدا، مادّة هي من الصغر حتى انها لا تملك لونا، شرارة من خردل، جسيم لا يملك أكثر ولا أقلّ ممّا كان له أبدا، مادّة دون شكل، شكل دون مادّة، جسم دون جسم، كنه بحت من عقل، ابتداع من الفكر منيع بقدر مناعته لصغر حجمه الذي يحميه من كلّ الضربات، بمقدوره ان يهرب عبر شقّ وأن يتغذّى عاما كاملا بحبّة واحدة من الشعير، موجز إلى حدّ انك لا تعرف ان كان جالسا، ام راقدا أم واقفا، يمكن ان يغرق في قوقعة حلزون، بذر، حبّة، عنبة، نقطة على i، فرد رياضي، لا شيء حسابي...

وكان سيواصل، لكثرة ما كان لديه من مادّة، لولا ان الحاضرين أوقفوه بتصفيقة .

10

جغرافيا وهيدروغرافيا مقوّمة

فهم روبارتو الآن ان الأب إيمانويل كان في الواقع يتصرف كما لو كان من أتباع ديمقريطس وأبيقور: كان يجمع ذرات من مفاهيم ويركبها في أشكال مختلفة لتكوين أشياء عديدة. وكما أن القسّ يؤكد ان عالما متكونا من ذرات لا يتناقض مع فكرة وجود اله ينظمه حسب العقل، كان الأب ايمانويل يقبل من الذرور من التصورات فقط التركيبات الذكية. ربما فعل الشيء نفسه لو كرس جهده لخلق مشاهد للمسرح: ألا يستمد المسرحيون فعلا أحداثا غريبة وطريفة من شتات أحداث واقعية ولكنها دون ذوق، لإمتاعنا بوقائع لامعقولة وغير منتظرة.

وإن كان الأمر هكذا، ألا تكون تلك الظروف التي خلقها وغرقه في البحر والحالة التي يجد فيها نفسه على متن دافني - كل تلك الأحداث الصغيرة التي هي محتملة مثل رائحة العفونة وصرير هيكل السفينة، ورائحة النباتات، وأصوات الطيور - جميع ذلك يساهم في خلق انطباع حول حضور لم يكن سوى نتيجة استشباح لا يبصره الا الذهن، كضحك المروج أو دموع الطلّ؟ إذن، كان شبح الدخيل المختفي متكونا من ذرات أحداث، مثل الشقيق المفقود، كلاهما متكون من أشلاء صورته نفسها ورغباته وأفكاره.

وفعلا بينما كان يسمع صوت رذاذ خفيف يسقط على النوافذ

مخففا من حرّ تلك العشية، كان يقول لنفسه: هل من الطبيعي أن أكون أنا، لا آخر، من يصعد فوق هذه السفينة كالمتطفل، ويقطع هذا الصمت بصدى خطواته، وها إني، ربما من خوفي ان أكون انتهكت حرم آخرين، صنعت من نفسي شخصا آخر يطوف تحت نفس الألواح. ما هي الأدلّة التي تثبت ان هناك شخصا آخر؟ بعض القطرات من الماء فوق الأوراق؟ ألا يمكن، كما هو الحال الآن، ان تكون قد أمطرت ولو قليلا في الليلة الماضية؟ والحبوب؟ ألا يمكن ان تكون الطيور قد حركت تلك الموجودة، فبدا لي ان احدهم رمى اليها بأخرى؟ ونقصان البيض؟ ولكن ألم أر بالأمس صقرا يلتهم فأرا طائرا! إنني أتوهم سكانا في قاع السفينة حيث لم أدخل بعد، وأفعل ذلك ربما لأطمئن نفسي، بما انه يذعرني ان أجد نفسي مهجورا وحيدا بين الماء والسماء. يا سيّد دي لاغريف، كان يعيد بينه وبين نفسه، إنك وحيد وربما ستبقى وحيدا إلى آخر يوم في حياتك، وقد تكون هذه النهاية وشيكة: المؤونة فوق السفينة وافرة، ولكنها تكفي لبضعة أسابيع لا لأشهر. وإذن اذهب وضع فوق سطح السفينة بعض الأواني لجمع أكثر ما يمكن من ماء المطر، وتعلم صيد السمك من فوق الحاجز، متحملا سطوة الشمس. وعليك في يوم من الأيام ان تجد طريقة للوصول إلى الجزيرة، لتعيش عليها ساكنا وحيدا. يجب أن تفكر في كل هذا لا أن تشغل بالك بحكايات متطفلين وأشقاء مفقودين.

جمع بعض البراميل الفارغة ورصفها فوق السطح، متحمّلا ضوء النهار الذي كان ينفذ من خلال السحب. وتفطن عند قيامه بهذه العملية إلى انه كان لا يزال واهنا. ثم نزل من جديد وأضاف الأكل للحيوانات (ربما لكي لا يترك الفرصة لغيره للقيام بذلك)، وعدل مرة أخرى عن النزول إلى الجزء السفلي من السفينة. دخل إلى حجرته وقضى بضع ساعات مستلقيا بينما كانت الأمطار لا تؤذن بالكفّ. ونفخت هبات من الريح، ولأول مرة تفطن إلى أنه فوق دار عائمة، تتحرك كما لو كانت

دوحا، بينما كانت الأبواب في انفتاحها وانغلاقها تضفي حياة على ذلك الحجر اللوحي.

وأعجبته هذه الصورة الأخيرة وتساءل كيف يمكن أن يقرأ الأب ايمانويل السفينة كمنبع لرموز غامضة. ثم فكر في الجزيرة وعرّفها على أنها قرب منيع. وبينت له هذه الصورة الجميلة، للمرة الثانية في ذلك اليوم، الشبه المختلف بين الجزيرة وحبيبته، وسهر حتى الليل وهو يكتب اليها الأشياء التي أذكرها في هذا الباب.

تأرجحت دافني طول الليل، وهدأ اهتزازها، مع هدوء الأمواج في الخليج، في الصباح الباكر. وأبصر روبارتو من النافذة علامات فجر بارد ولكنه صاف. وتذكر «مضخم العينين» الذي عاود ذكرياته في اليوم السابق، فقال لنفسه إنه بإمكانه أن يشاهد الساحل بالمنظار الذي رآه في الحجرة المجاورة: حافة العدسة والمشهد المحدود سيخففان من انعكاس نور الشمس.

ركّز إذن الأداة على حافة نافذة في الرواق وحدّق بكل جرأة في حدود الجون القصوى. وبدت له الجزيرة واضحة، تغطي قمّتها كبّة من الصوف الأبيض. وكما سبق ان عرف على متن أماريلّي، جزر المحيط تشدّ الرطوبة التي تدفعها الصابيات وتكثفها لتجعل منها كبّات سحابية، حتى أنه غالبا ما يتعرف البحارة على وجود جزيرة قبل ان تلوح لهم سواحلها، من هبات ذلك العنصر الهوائي المشدود اليها وكأنه راسٍ في مرافئها.

وكان قد حدّثه الدكتور بيرد عن الصابيات ـ وكان يسميها Trade-Winds، ولكن الفرنسيين كانوا يدعونها : alisées فوق تلك البحار توجد الرياح الشديدة التي تحكم في الأعاصير والنواسم، ولكن الصابيات تهزأ بها، لأنها رياح متقلبة، حتى ان الخرائط ترسم تجوالها في شكل رقصة من الخطوط المقوسة والتيارات، أو في شكل دوّارات حالمة وانعطافات

رقيقة. إنها تتسلّل في تيار الرياح الشديدة فتشوش مسارها، وتخترقها ميلاً، وتشبك فيها تيارات. إنها عظايا تنساب عبر دروب غير متوقعة، تتلاقى وتتفادى دورا بدور، كما لو أن في «بحر النقيض» كانت تصلح فقط قوانين الفن دون نواميس الطبيعة. لها صورة الأشياء المصطنعة وتأخذ شكلها لا من التنظيم المنسجم الذي يحكم الأشياء الآتية من الأرض والسماء، مثل الثلج أو البلّور، بل من الطيّات الحلزونية التي يمليها المهندسون على القباب وتيجان الأعمدة.

وفعلا خامر روبارتو الشك ان ذلك البحر ليس الا بحر الخدعة، وهذا ما يفسر له كيف ان الكسموغرافيين تصوروا دائما هنالك كائنات تناقض نواميس الطبيعة، كأن تسير وسيقانها إلى أعلى.

والفنانون الذين كانوا يصنعون في بلاطات اوروبا مغارات مرصعة باللازورد وفيها نافورات تحركها مضخات خفية، لم يوحوا إلى الطبيعة في خلقها لأراضي هذه البحار؛ كما أن طبيعة «القطب المجهول» لم تلهم اولئك الفنانين. ذلك ان الفن والطبيعة على حدّ السواء، كان يقول روبارتو في نفسه، يميلان إلى الإبداع، وهكذا تفعل أيضاً الذرات عندما تتكتّل طورا على نحو وطورا على نحو آخر. أهناك أعجوبة أكثر اصطناعا من السلحفاة، من عمل جواهري خلقها منذ آلاف وآلاف سنين مضت، درع أخيل نقش بصبر طويل يسجن بداخله ثعبانا له أرجل؟

عندنا، يقولون، ما هو نباتي له رقة الورقة بتعاريقها ورقّة الزهرة التي تعيش مدى صبيحة، بينما النباتي هنا يبدو جلداً، مادة غليظة وزيتية، حراشف جعلت لمقاومة أشعة الشمس الضارية. كل ورقة ـ في هذه الأراضي التي دون شك لا يعرف فيها الأهالي المتوحشون فن المعادن والخزف ـ يمكن ان تصبح أداة، موسى، كأسا، ملعقة، وحيث ترى أوراق الأزهار كما لو طليت بالبرنيق. كل ما هو نباتي تجده هنا قويا، وتجد ضعيفا جميع ما هو حيواني، حسب ما يظهر من الطيور

التي شاهدتها، كأنها صبّت من البلّور ذي الألوان المختلفة، بينما عندنا الحيواني هو قوة الحصان أو صلابة الثور البليدة...

والغلال؟ عندنا ثمرة التفاحة، بلونها الموحي بالصحة، تشير إلى طعمها الصديق، بينما لون الفقاع الشاحب يدلنا على سمّها. ولكن هنا، ورأيت ذلك بالأمس، وأثناء رحلة أماريلّي، تستهويك لعبة النقائض الطريفة: الأبيض الجنائزي يؤكد لذة الغلة المفعمة بالحياة بينما الغلال ذات الألوان الزاهية يمكن أن تحوي شرابا مميتا.

من خلال المنظار كان يتفحص الساحل ويشاهد بين الأرض والبحر تلك الجذور المتسلّقة التي تبدو وكأنها تقفز نحو فضاءات السماء، وعراجن من الغلال المستطيلة التي تكشف نضجها العسلي وهي تبدو عنبية فجّة. وتعرّف في نخلات أخرى على جوز أصفر اللون مثل بطيخ الصيف، بينما كان يعرف جيدا انها لن تشدو بنضجها الا عندما يصير لونها في لون التراب الميت.

إذن لكي يعيش في هذا العالم الأرضي الآخر ـ وكان عليه ان يتذكر ذلك، إن أراد ان يتصالح مع الطبيعة ـ ينبغي ان يعمل بنقيض ما تمليه عليه غريزته، بما أن الغريزة هي ربما التعرّف من جديد على أولئك العمالقة الأوائل الذين حاولوا ان يتأقلموا مع طبيعة الجزء الآخر من الأرض وبما انهم كانوا يظنون ان الطبيعة الأكثر طبيعية هي تلك التي تكيفوا معها، كانوا يفكرون فيها كما لو انها نشأت لتتكيّف معهم. لذا ظنوا ان الشمس صغيرة الحجم لأنها هكذا تبدو لهم، وان بعض النباتات عظيمة لأنهم ينظرون اليها وعيونهم مثبتة على الأرض.

الحياة في المتقاطرات تعني إذن اعادة صنع الغريزة، وان يجعل من الشيء العجيب طبيعة ومن الطبيعة شيئا عجيبا، وأن يكتشف كم ان العالم غير مستقرّ، وكيف أنه في نصفه الأول يتبع نواميس معيّنة وفي النصف الآخر نواميس معاكسة .

كان يسمع من جديد استفاقة الطيور، هنالك على الجزيرة، وخلافا لليوم الأول، تفطن إلى مدى تفنّن ذلك الشدو، بالمقارنة مع الزقزقة التي تعوّد عليها في بلاده: فهي قرقرات وتصفير وغليان وشقشقة وقرقعة ألسنة، وعواء، وطلقات ضعيفة، وسلالم ملونة من الطقطقات، وأحيانا تسمع معها شبه نقنقة ضفادع مختفية بين أوراق الشجر، في حوار هوميري متواصل.

وكان المنظار يمكّنه من مشاهدة مغازل وكرات من الريش، ورعشات سوداء أو في الوان غير بيّنة، تسقط من أعالي الأشجار نحو الأرض وكأن كلاها «ايكار» مجنون يسارع إلى هلاكه. وفجأة بدا له ان شجرة، ربما شجرة من النارنج الصيني، أطلقت في الهواء أحد ثمارها، كرة زعفرانية متألقة، خرجت سريعا من حدقة المنظار. أقنع نفسه انها نتيجة انعكاس ولم يشغل باله بذلك، أو على الأقل هذا ما ذهب بظنه. سنرى من بعد، كيف انه بخصوص الأفكار الغامضة، كان سان سافان على حق.

وخطر بباله ان تلك الكائنات المجنحة ذات الطبيعة اللاطبيعية ترمز إلى المجتمعات الباريسية التي تركها منذ شهور عديدة: في ذلك الكون الخالي من البشر، حيث الكائنات الحية الوحيدة، ودون شك الكائنات الناطقة الوحيدة هي الطيور، كان يجد نفسه وكأنه في ذلك الصالون، حيث عند دخوله أول مرة لم يلتقط سمعه سوى لغط مبهم في لغة مجهولة، كان يتذوق طعمها بحياء ـ حتى وإن هو، حسب رأيي، تشرّب في نهاية الأمر من علم ذلك الطعام، والاّ ما استطاع أن يتحدّث عنه كما يفعل الآن. ولكنه، تذكر انه لاقى هناك مولاته ـ واذن لو كان هناك مكان أعلى من كلّ الأمكنة الأخرى فهو ذلك المكان لا هذا ـ واستنتج انه لا تحاكي هنالك طيور الجزيرة، ولكن هنا على الجزيرة تحاول الحيوانات ان تحاكي لغة الطيور البشرية.

وبينما كان يفكر في حبيبته وفي بعدها عنه، الذي شبهه في اليوم

الفائت ببعد تلك الأرض المتعذّرة المنال نحو الغرب، عاد إلى مشاهدة الجزيرة، التي كان المنظار يكشف له منها فقط عن ملامح محدودة وشاحبة، ولكن كما يحدث للصور التي تشاهد في المرايا المحدبة التي عندما تعكس جانبا فقط من حجرة صغيرة، توحي بكون كروي لانهائي ومدهش.

كيف ستبدو له الجزيرة لو وطئها ذات يوم؟ من خلال المشهد الذي كان يراه من شرفته، ومن العينات التي وجدها في السفينة، ربما كانت جنة عدن التي تجري انهارها بالحليب والعسل، وسط غدق من الثمار والحيوانات الوديعة؟ علامَ كانوا يبحثون في تلك الجزر في الجنوب المعاكس اولئك الجسورين الذين يبحرون مجابهين أنواء محيط خادع الهدوء؟ أليس هذا ما كان يريده الكاردينال عندما أرسله في مهمّة ليكشف سرّ أماريلّي، إمكانية ان يحمل زنابق فرنسا فوق أرض مجهولة تجدد أخيرا هبات واد لم تدنسه لا خطيئة بابل، ولا الطوفان الكوني، ولا الخطيئة الآدمية الأولى؟ العنصر البشري فيها دون شك أمين صادق، أسود البشرة ولكنه أبيض القلب، لا يعبأ بجبال الذهب وبالبلاسم التي كانت في حفظه وهو لا يدرك.

وفي هذه الحالة، ألا يجدد هو خطيئة المذنب الأول في محاولته اغتصاب عذرية الجزيرة؟ ربما أرادت حكمة المقادير ان يبقى شاهدا طاهرا على جمال لا ينبغي عليه ابدا ان يدنسه. ألا يكون في هذا أجلى تعبير عن الحب الخالص، كالحب الذي كان يصارح به مولاته، أن يحب عن بعد، عادلا عن مغريات الهيمنة؟ أيكون محبا من تاق إلى الغزو؟ إن كانت الجزيرة تظهر له شيئا واحدا مع المحب، فعليه ان يجلّ الجزيرة قدر اجلاله للحبيب. الغيرة الجنونية نفسها التي تملكته كلما خاف أن ينتهك نظر شخص آخر ذلك المعبد الموصد، لا يجب ان تفهم على انها نزعة لفرض حق من حقوقه، بل على انها إنكار حق الآخر، وعلى انها واجب كان حبه يفرضه عليه كحارس لذلك

الـ«قرال». وكان يحس بنفسه ملزما بنفس الطهارة حيال الجزيرة التي كلما تأكد لديه ثراها بالوعود ألزم نفسه بعدم المسّ منها. بعيد هو عن حبيبته، بعيد أيضا عن الجزيرة، وعن كليهما، كان عليه فقط ان يتحدث، لأنه يريدهما طاهرتين حتى تبقيا طاهرتين، لا تمسهما الا لمسات العناصر. إن كان هناك جمال في مكان ما، فهدفه هو أن يبقى دون هدف.

أهكذا كانت فعلا الجزيرة التي كان يشاهدها؟ ما الذي يحثّه على فك رموزها بهذه الطريقة؟ يعلم الجميع، منذ الرحلات الأولى إلى هذه الجزر التي ترسمها الخرائط على انها اماكن غير محددة، انه يترك فوقها المتمردون واذا بها تصبح سجونا ذات قضبان هوائية، مسجونوها سجناء انفسهم، يعاقب احدهم الآخر. عدم بلوغها، عدم اكتشاف سرها، ليس واجبا، بل حق في الفرار من أهوال لا نهاية لها.

ولكن لا، الحقيقة الوحيدة في الجزيرة هو ان في وسطها تقوم، مغرية بألوانها الشاحبة، «شجرة النسيان»، التي بأكل ثمارها سيمكن لروبارتو ان يجد أخيرا راحة النفس.

النسيان. وهكذا قضى يومه، خاملا في الظاهر، شديد النشاط جاهدا في محو كل شيء. وكما يحدث لمن يريد أن ينسى، كلما اجتهد في بلوغ ذلك كلما توقدت فيه جذوة الذكرى.

كان يحاول ان يطبق جميع التوصيات التي سمع بها. كان يتصور نفسه في حجرة مليئة بأشياء تذكره بشيء ما، خمار سيدة قلبه، الأوراق التي كان يبعث عليها صورتها من خلال شكواه لغيابها، أثاث وزرابي القصر الذي تعرف فيه عليها، وكان يتمثل نفسه وهو يلقي بجميع تلك الأشياء من النافذة، إلى ان تصبح الحجرة (ومع الحجرة فكره) فارغة عارية. كان يبذل عناء كبيرا في حمل تلك الأشياء إلى حافة النافذة، أوان من الخزف، وخزائن، كراسي وشكك، وعكس ما قيل له، كلما زاد

تكدّره في القيام بتلك الأشغال المرهقة، تضاعفت صورة حبيبته، ومن زوايا مختلفة كانت تتبعه وعلى شفتيها ابتسامة ماكرة.

وهكذا، بعد ان قضى يومه يجرّ ويحمل أشياء، لم ينس شيئا. بل العكس. كانت اياما يفكر فيها في ماضيه مركزا أنظاره على المشهد الوحيد الذي كان أمامه، مشهد السفينة دافني، وكانت دافني تتحول إلى "مسرح الذكريات»، كما كان يتصوره معاصروه، كل جزء فيه يذكره بحدث قديم أو جديد من تاريخه: الصاري كان يذكره بوصوله بعد الغرق، عندما فهم انه لن يرى بعد ذلك حبيبته؛ الأشرعة المشدودة، التي من خلالها كان يفكر في فقدان الحبيبة، كانت تذكره بالحبيبة المفقودة؛ الرواق، الذي كان يكتشف منه الجزيرة البعيدة، كان يذكره ببعدها... ولكنه كرس لها الكثير من التأملات مما.يجعل كل زاوية من تلك الدار البحرية، على مدى الوقت الذي سيقضيه فيها، تذكره لحظة بلحظة بكل ما كان يريد نسيانه.

وتأكد له ذلك عندما خرج على سطح السفينة، للترويح عن نفسه مستقبلا هبات الريح. تلك كانت غابته، اين يتمشى كما يتمشى المحبون التعساء في الغابات؛ هي ذي الطبيعة المصطنعة التي تحيط به، أشجار صقلها نجارو «أنفارسا»، وأنهار من الكتان الخام في مهب الريح، ومغارات مجلفطة، ونجوم اسطرلابية. وكما يرى المحب حبيبته في كل زهرة، وفي حفيف أوراق الشجر وفي الدروب، كان هو يرى نفسه يموت عشقا وهو يمسح فوهة مدفع...

ألم يكن الشعراء يمجدون الحبيبة مشبهين شفتيها بالياقوت، وعينيها بالفحم الأسود، ونهديها بالرخام وقلبها بالماس؟ وإذن، هو أيضاً، في سجنه وسط ذلك المنجم من التنوب المتحجّر ـ ستشتعل نفسه فقط بالأشواق المعدنية، وستبدو له الحبال ذات الخواتم من العقد جدائل حبيبته، والمسامير اللامعة عينيها المنسيتين، وصفّ المزاريب أسنانها التي تقطر لعابا فائحا، والملفاف ذو البكرات جيدها المحلى

بقلائد القنّب، وسيجد سلام النفس في توهمه انه عشق عمل صانع آليات.

ثم ندم على معاملته الشديدة في تصور شدتها، وقال لنفسه انه عندما يحجّر ملامحها انما يحجّر تشوقه - بينما كان يريده حيّاً نابضاً - وبما ان المساء قد هبط، أدار نظره نحو قبة السماء الفسيحة المنقطة بالمجرات المبهمة. إلا بتأمل الأجرام السماوية سيتمكن من تصور أفكار سماوية تليق بمن حكم عليه، بمشيئة سماوية، ان يحب أسمى مخلوق بشري.

أميرة الغابات، التي في ثوبها الأبيض تضيء الأدغال والحقول، لم تظهر بعد فوق الجزيرة، ملتفة بالأكفان. كانت بقية السماء ملتهبة وواضحة وفي الطرف الجنوبي الغربي، على مستوى سطح البحر وراء الأرض الكبيرة، رأى كتلة من النجوم علّمه الدكتور بيرد ان يتعرف عليها: كانت «صليب الجنوب». ومن شاعر منسي، لقنه معلمه الكرملي عن ظهر قلب بعض اشعاره، تذكر روبارتو رؤيا سحرته في طفولته عن زائر في عوالم ما بعد الموت خرج فعلا فوق ذلك الشاطىء المجهول، ورأى تلك النجوم الأربعة، التي لم يشاهدها أي كان ما عدا أول (وآخر) من سكن الفردوس الأرضي.

11

فن الحذر

أكان يراها لأنه غرق حقيقة عند حدود جنة عدن أم لأنه خرج من بطن السفينة كمن يخرج من قمقم الجحيم؟ ربما كلا الأمرين. غرقه، الذي أعاده إلى مشهد طبيعة مختلفة، انتزعه من «جحيم العالم» الذي ولجه، بعد ان فقد أوهام الطفولة، في أيام «كزالي».

هنالك أيضاً، بعد أن بدأ روبارتو يفهم ان التاريخ انما هو مسرح للأهواء، ولمكائد غامضة يفرضها «داعي المصلحة العليا»، أفهمه سان سافان كيف ان آلة العالم الكبيرة كلها خداع، يحكمها جور الصدف. انتهى منذ بضعة ايام حلم الأعمال البطولية الذي راوده في طور المراهقة، ومع الأب ايمانويل فهم انه ينبغي ان يتحمس للأعمال البطولية - وانه يمكن ان تدفع حياة لا لمقاتلة عملاق بل لتسمية قزم بعدة طرق.

ترك الدير رفقة السيد ديلاّ ساليتا، الذي كان يصاحب بدوره السيد دي سالزار خارج الأسوار. ولبلوغ ما كان سالزار يسميه «Puerta de Estopa» قطعوا جزءا من البرج.

وكان الرجلان النبيلان يثنيان على آلة الأب إيمانويل فسأل روبارتو بسذاجة ما نفع كل ذلك العلم في تقرير مصير حصار.

فأجابه السيد دي سالزار ضاحكا: «يا صديقي الشاب، جميعنا هنا، في خدمة ملوك مختلفين، نعمل من أجل ان تنتهي هذه الحرب بطريقة عادلة ومشرفة. ولكننا لم نعد في زمن يمكن ان يغير فيه مسار القدر بقوة السيف. لقد انتهى الزمن الذي كان فيه النبلاء يخلقون الملوك؛ الآن أصبح الملوك يخلقون النبلاء. في وقت مضى كانت الحياة في البلاط هي انتظار اللحظة التي سيظهر فيها الرجل الشريف نبله في الحرب. الآن، جميع النبلاء الذين تراهم هنالك»، وأشار إلى الخيام الإسبانية، «وهنا»، وأشار إلى المعسكر الفرنسي، «يعيشون هذه الحرب ليتمكنوا بعد ذلك من الرجوع إلى مكانهم الطبيعي، الذي هو البلاط، وفي البلاط، يا صديقي، لم يعد الأشراف يتنافسون لمضاهاة الملك في الفضائل، وإنما للحصول على رضاه. ترى اليوم في مدريد أشرافا لم يستلّوا يوما سيوفهم، ولا يبتعدون عن المدينة، وإن تركوها، لمجابهة غبار المعركة في ساحات المجد، فهي تبقى بين ايدي بورجوازيين اثرياء ونبلاء ذوي مال ودون نسب حتى الملك اصبح الآن يوليهم شأنا كبيرا. لم يبق للمحارب اليوم الا ان يترك البسالة ليتبع الحذر.

فسأله روبارتو «الحذر؟»

عند ذلك دعاه سالزار لمشاهدة السهل. كان الفريقان يتبادلان بعض المناوشات الضعيفة وكان الغبار يرتفع من افواه الأنفاق حيث كانت تقع قذائف المدافع. في الجهة الشمالية الغربية كان الإمبراطوريون يدفعون نقالا: كانت عربة قوية، ذات مناجل كبيرة على جانبيها، تنتهي في مقدمتها بحاجز من أضلاع صنعت من البلوط القوي مدرعة بالحديد المثبت بالمسامير. وكانت تفتح على تلك الواجهة كوّات تبرز منها رماح، وحنشيّات، وقرابينات، وعلى جانب كنت تشاهد المرتزقة محصّنين بداخلها. كانت الآلة الشائكة بالأوتاد في مقدّمتها وبالأمواس على جانبيها، تتقدّم بصرير سلاسلها وتنفث أحيانا أنفاسا من نار من احد أفواهها. لا شكّ في ان العدوّ لن يستعملها في الحال، لأنها كانت

آلة تستخدم تحت الأسوار عندما تكون الألغام قد فرغت من مهمّتها، ولكنهم كانوا دون شكّ أيضاً يعرضونها بقصد بعث الرعب في المحاصرين.

كان سالزار يقول: «أرأيت؟ ستقرر الآلات مصير الحرب أكانت هي عربات مسلحة بالمناجل أم أنفاقا ملغمة. والبعض من رفاقنا الكرام، من كلا الجانبين، من الذين عرّضوا صدورهم للعدو، إن لم يموتوا خطأ، فقصدهم من ذلك ليس الانتصار، بل الحصول على فخر يتباهون به في البلاطات عند عودتهم. ومن كان منهم أكثر شجاعة فسيختار أن يقوم ببعض العمليات الباهرة ولكنه يقيس النسبة بين مقدار المجازفة ومقدار الربح الذي سيعود عليه..».

فقال روبارتو، وهو يتيم بطل لم يقرأ حسابا لشيء، «وأبي...»، فقاطعه سالزار: «أبوك هو فعلا رجل من رجال الأزمنة الغابرة. لا تظنني غير آسف عليه، ولكن أينفع القيام بعمل جسور عندما يصبح التراجع المتبصر أفضل من الهجوم الجريء؟ ألم تر منذ قليل آلة حربية مستعدّة لتقرير مصير حصار أفضل مما يمكن ان تقرّره السيوف؟ ثمّ ألم تترك السيوف منذ عدة سنين مكانها للبندقية؟ نحن لا زلنا نحمل الدروع، ولكن سيتعلّم متسكّع في يوم واحد أن يثقب درع بياردو العظيم».

- «ماذا بقي إذن للرجل الشريف؟»

- «بقيت له الحكمة، يا سيّد دي لاغريف. لم يعد الفوز يحمل لون الشمس، بل بات ينمو على ضوء القمر، ولم يقل أحد ان هذا الكوكب الثاني مستكره لدى خالق جميع الأشياء. وعيسى نفسه أعمل الرأي، وهو في بستان الزياتين، أثناء الليل».

- «ولكنه أخذ بعد ذلك قرارا كأروع ما يكون، ودون احتراس..».

- «ولكننا لسنا مثل ابن الرب، إننا أبناء الدنيا. عندما سينتهي هذا الحصار، إن لم تخطف آلة حربية حياتك، ماذا ستفعل يا سيد دي

لاغريف؟ هل ستعود إلى غاباتك، حيث لن تتوفر لك فرصة للظهور جديرا بأبيك؟ منذ بضعة ايام وأنت تعيش بين أشراف باريسيين ها إنك تبدو منذ الآن أسير عاداتهم. أنت تريد ان تجرب حظك في المدينة الكبيرة، وتعرف جيدا ان هنالك فقط يمكنك ان تنشر ذلك الإشعاع من الفخر الذي منحتك اياه هذه الأيام وأنت سجين هذه الأسوار. ستبحث أنت أيضا عن الحظ، ويجب ان تكون ماهرا في الحصول عليه. إن أنت تعلمت هنا ان تتفادى رصاصة بندقية، هنالك يجب ان تتعلم كيف تحاذر من الحسد، والغيرة، والطمع، وان تقاوم بنفس الأسلحة منافسيك، أي جميع الآخرين. إذن اصغ اليّ. منذ نصف ساعة وأنت تقاطعني مصرحا بما تعتقد، وبينما تلقي علي أسئلتك تريد ان تظهر لي انني مخطىء. لا تفعل ذلك ابدا، خاصة مع ذوي النفوذ. أحيانا تدفعك الثقة في بعد رأيك وحبك في اظهار الحقيقة إلى نصح من هو أعلى منك مقاما. لا تفعل ذلك ابدا. ان كل فوز يثير الحقد في المغلوب، وان كان ذلك الفوز على حساب وليّ امرك فإما ان يكون ضارا أو أحمق. الأمراء يريدون من يساعدهم لا من يتفوّق عليهم. ولكن يجب ان تكون حذرا أيضاً مع أندادك. لا تذلهم بفضائلك. لا تتحدث ابدا عن نفسك: إما انك ستمدح خصالك، وهذا غرور، أو انك ستثلب نفسك، وهذا حمق. اترك الآخرين يكشفون البعض من خطاياك الطفيفة، وينهشونك بحسدهم دون ضرر بليغ. يجب ان تكون من أهل الكثير وان تبدو مع ذلك من أهل القليل. لا تطمع النعامة في ان تطير في الهواء، لئلا تسقط سقوطا شنيعا: انها تكشف عن جمال ريشها شيئا فشيئا. وبالخصوص، ان كانت لك عواطف، لا تظهرها، مهما بدت لك نبيلة. لا ينبغي ان تفتح للجميع باب قلبك. الصمت المتبصر والحذر هما صندوق الحكمة».

- «سيدي، انت تقول لي ان واجب الرجل الشريف الأول هو ان يتعلم كيف يتصنع»!

عند ذلك تدخل السيد ديلا ساليتا مبتسما: «انظر، يا عزيزي روبارتو، لم يقل السيد دي سالزار ان على الحكيم ان يتصنع. إنه يقول لك، إن كان فهمي صحيحا، إنه يجب ان يتعلم كيف يخفي ما بدخيلته. من يتصنع يتظاهر بغير ما هو عليه، من يخفي فهو يخفي ما هو فعلا موجود. إن تباهيت بعمل لم تقم به فأنت تتصنّع. ولكنك ان أبيت الكشف عمّا أنجزت، دون ان يبدو ذلك عليك، فأنت تخفي. واكبر الخصال ان تخفي خصلة. السيد دي سالزار كان يلقنك طريقة متبصرة لتكون فاضلا، أو ان تكون فاضلا باتّباع البصيرة. منذ ان فتح الإنسان الأول عينيه وعرف انه كان عاريا، أعمل فكره لستر عريه حتى عن خالقه: وهكذا نشأت العناية بالتستّر منذ ان نشأ الكون. التكتّم هو مدّ ستار من العتمة الشريفة، لا ينتج منها الزيف ولكنها تعطي بعض الراحة للحقيقة. الوردة تبدو جميلة لأنها تخفي من أول وهلة انها شيء سريع الزوال، ورغم انه يقال عادة عن الجمال الفاني انه لا يبدو شيئا دنيويا، فهي ليست الا جثمانا يخفيه فضل السنّ عليه. في هذه الحياة لا ينبغي ان يكون القلب دائما مفتوحا، والحقائق التي تهمّنا أكثر لا ينبغي أن تكشف كليّا. الكتمان ليس غشا. انها مهارة في اظهار الأشياء خلافا لما هي عليه. وهي مهارة صعبة: كي يتقنها المرء يجب ان لا يتفطن الآخرون إلى مهارته فيها. لو اشتهر أحد بمهارته في فن التقنع، مثل الممثلين، لعرف الجميع انه غير ما يريد ان يبدو. ولكن عن المتكتّمين العظام، الذين عاشوا في السابق ويعيشون اليوم، لا أحد يعرف شيئا».

ثم أضاف السيد دي سالزار: «وألفت نظرك مع ذلك، إلى انني عندما أدعوك إلى التكتم فأنا لا أدعوك إلى البقاء صامتا مثل الأبله. بل العكس. يجب ان تحذق استعمال الكلمة الموحية اكثر من حذقك للكلمة المفصحة ؛ وأن تتعلم ان تتحرك في عالم، يؤثر المظاهر، بكل ما تملك فصاحتك من خفة، وان تنسج كلمات من حرير. ان كانت النبال تنفذ إلى الجسم، فالكلمات تنفذ إلى الروح. ما هو في آلة الأب

إيمانويل فنّ ميكانيكي، اجعل منه أنت طبيعة مغروسة في نفسك.»

فقال روبارتو: «ولكن، يا سيدي، آلة الأب ايمانويل تبدو لي صورة من «العقل»، الذي لا يبحث عن الزهو أو الإغراء، بل يبين ويكشف ترابطا بين الأشياء، ليصبح أداة جديدة لخدمة الحقيقة».

ـ «هذا للفلاسفة. ولكن للحمقى، استعمل «العقل» لإثارة الإعجاب، وستجد منهم الرضا. الناس يحبون من يثير فيهم الإعجاب. لو تقرر مصيرك وكان حظك لا على ساحة المعركة، بل في صالونات البلاط، فسيكون ردّ بليغ في مناقشة اكثر ربحا من هجوم جميل في معركة. الرجل الحصيف، بجملة ذكية يخلص نفسه من كل مأزق، ويحذق استعمال لسانه بخفة الريشة. جلّ الأشياء يمكن شراؤها بالكلام».

عند ذلك قال ساليتا: «سالزار، انهم ينتظرونك عند الباب،». وهكذا انتهى ما كان بالنسبة لروبارتو درسا غير منتظر في الحياة وفي الحكمة. لم يجد في كل ذلك مثالا وعبرة، ولكنه اعترف بالجميل لأستاذيه. لقد شرحا له كثيرا من الأمور الغامضة، لم يسبق في «لا غريف» ان قال له أحد شيئا عنها.

12

أهواء النفس

وفي ذلك الانهيار لجميع أوهامه، سقط روبارتو ضحية هوس غرامي.

الآن أشرف شهر يونيو على نهايته وصار الحرّ شديدا؛ منذ عشرة ايام تقريبا بدأت تذيع الأخبار الأولى حول تفشي الوباء في المعسكر الإسباني. في المدينة بدأ الزاد ينفد، وكانت لا توزع على الجنود أكثر من 14 اوقية من الخبز الأسود، ولا تجد بنتة من الخمر لدى الكزاليين بأقل من 3 فلورينات، أي ما يعادل 12 نقدا ملكيا. وتوالت زيارات سالزار إلى المدينة وساليتا إلى المعسكر للتباحث بخصوص فداء الضباط الذين اسروا من الجانبين اثناء المواجهات، والذين كان عليهم ان يتعهدوا بعدم المشاركة في أي قتال بعد ذلك. وعاد الحديث من جديد بخصوص ذلك القائد مزاريني الذي كان صيته ينتشر يوما بعد يوم في المحافل الدبلوماسية، والذي عهد اليه البابا بإجراء المفاوضات.

ما عدا ذلك، بعض الأمل، بعض الهجمات، ولعبة متواصلة بين الطرفين لتدمير الأنفاق، هكذا كان يتواصل ذلك الحصار الخامل.

في انتظار المفاوضات، أو وصول فرق العون، هدأت حمّى العداوة في النفوس. وبعض الكزاليين قرروا الخروج وراء الأسوار

لحصاد القمح من تلك الحقول التي نجت من العربات ومن الخيول، غير آبهين بتلك الطلقات الواهنة التي كان الإسبان يطلقونها من بعيد. ولكنهم لم يكونوا جميعهم عزّلاً من السلاح: فقد شاهد روبارتو فلاحة طويلة القامة صهباء كانت من حين لآخر تتوقف عن العمل بالمنجل، وتنحني بين السنابل، ثم ترفع بندقية وتسددها كأنها جندي مجرب مركزة اياها على وجنتها المحمرة وتطلق النار في اتجاه المشاكسين. والإسبان الذين كدرتهم طلقات تلك «السيراس» المحاربة، ردوا بالمثل، وإحدى الطلقات أصابتها جانبيا في احد ساعديها. فها هي تتقهقر والدم يسيل من الجرح، ولكنها لم تكف عن شحن البندقية وإطلاق النار، صائحة ببعض الشتائم نحو العدو. وعندما أصبحت تحت الأسوار، صاح بها بعض الإسبان: «Puta de los franceses!» فأجابتهم قائلة: «Si, a sun la putan'na dei frances, ma ad vui no !»(*).

تلك الصورة العذرية، تلك الخلاصة من الجمال الخصيب والغليان الحربي، اضافة إلى تلك اللمسة من الفحش التي ندت من شتمتها وزادت من انوثتها الحيوانية، أذكت حواس المراهق.

ذلك اليوم جاب شوارع «كزالي» ليجدد تلك الرؤيا؛ وسأل بعض الفلاحين فعرف ان الفتاة تدعى، حسب البعض، آنا ماريا نوفاريزي، وحسب البعض الآخر، فرانشسكا، وفي احدى الحانات قالوا له ان لها من السن عشرين سنة، وهي آتية من الريف ولها علاقة مع احد الجنود الفرنسيين. «L'e' brava la Francesca, se l'e' brava,» كانوا يقولون وعلى وجوههم ابتسامة من يعرف كل شيء، وأذكى ذلك من رغبة روبارتو لما كانت تضفيه على الحبيبة كل تلك الإشارات الإباحية.

* ـ يا عاهرة الفرنسيين.

ـ نعم، أنا عاهرة الفرنسيين، ولكنني لست عاهرتكم.

بعد ذلك ببضع ليال، كان مارا أمام دار فلحظها في غرفة معتمة

على المستوى الأرضي. كانت جالسة قرب النافذة تستقبل نسمة لا تخفف الا قليلا من حرّ «مونفيراتو»، يضيئها نور مصباح، لا يراه من الخارج، كان موضوعا قرب الحافة. لم يتعرف عليها من أول وهلة لأن شعرها الجميل كان مجمعا فوق رأسها، الا من خصلتين تدلّتا على اذنيها. كان لا يرى منها الا الوجه، منحنيا قليلا، في شكل بيضوي خالص النقاء، مع قطرات من العرق كأنها لآلىء، حتى انها كانت تبدو المصباح الوحيد الحقيقي في تلك العتمة.

كانت تخيط على طاولة صغيرة قصيرة، ونظرها مركّز عليها، حتى انها لم تنتبه إلى الشاب، الذي تراجع ليبصرها جانبيا، ملتصقا إلى الحائط. كان قلبه يرتجف في صدره وهو يلحظ شفتها المظللة بغشاوة شقراء. وفجأة رفعت يدا أكثر اشعاعا من الوجه، وحملت إلى فمها خيطا داكنا: أدخلته بين شفتيها الحمراوين كاشفة عن اسنان ناصعة وقطعته بقضمة واحدة، بحركة وحش جميل، وهي تبتسم راضية عن قساوتها الوديعة.

ربما انتظر روبارتو الليل كله، بينما كان لا يكاد يتنفس، خوفا من ان يكشف ولأن الانفعال كان يشلّه. ولكن بعد هنيهة اطفأت الصبية المصباح، واضمحلت الرؤيا.

في الأيام الموالية مرّ من جديد بذلك الشارع دون ان يشاهدها، ما عدا مرة، ولكنه لم يكن متأكدا من ذلك لأنها، كانت جالسة منحنية الرأس، ورقبتها الوردية عارية، وشلاّل من الشعر يغطي وجهها، وامرأة وراءها كانت تجوب تلك الأمواج من الشعر بمشط من أمشاط الرعاة، تتركه من حين لآخر لتقبض بإصبعيها على حيوان صغير يهم بالفرار، وتفرقعه بقرصة واحدة بين أظافرها.

لم تكن عادة التنظيف من القمل جديدة على روبارتو، الا انه كان يكتشف لأول مرة ما كان في ذلك من جمال، ويتصور يديه وهما

تسبحان في ذلك البحر من الحرير، واصابعه وهي تضغط على تلك الرقبة، وفمه وهو يشبع بالقبل تلك الثنايا، ويتصور نفسه وهو يبيد بيديه تلك القطعان التي تسرح فيها.

واضطر إلى الابتعاد عن ذلك الحلم لاقتراب زمرة صاخبة من ذلك الشارع، وكانت تلك آخر مرة منّت فيها عليه تلك النافذة برؤى غرامية.

في بعض العشيات واللّيالي الأخرى رأى هنالك المرأة، وفتاة أخرى، أما هي فلم يرها. واستنتج ان تلك لم تكن دارها، بل دار اقارب، قصدتها للقيام ببعض الأشغال فقط. ومرت ايام طويلة دون ان يعرف اين ذهبت.

وبما ان سقام العشق خمرة تزيد قوتها اذا ما أفرغت في أذن صديق، بينما كان يوما يجوب «كزالي» دون جدوى، وقد أهزله البحث، لم يقدر روبارتو على اخفاء امره عن سان سافان. وأطلعه على سره بدافع الغرور، لأن كل محب يزدان بجمال حبيبته ـ وهو لا يشك لحظة في حقيقة ذلك الجمال.

ـ «الأمر واضح، أنت عاشق»، أجاب سان سافان بكل بساطة «ليس هذا بالأمر الجديد. يبدو ان الإنسان، خلافا للحيوان، يجد متعة في ذلك».

ـ «الحيوانات لا تعشق؟»

ـ «كلا، الآلات البسيطة لا تعشق. ماذا تفعل عجلات العربة في منحدر؟ انها تتدحرج نحو الأسفل. الآلة ثقل، والثقل يميل، وهو اسير الحاجة العمياء التي تجذبه نحو السقوط. وهكذا الحيوان: يجذبه السفاد، ولا يهدأ الا عندما ينال غرضه».

ـ «ولكن ألم تقل لي بالأمس ان الإنسان أيضاً آلة؟»

ـ «صحيح، ولكن الآلة البشرية أكثر تعقيدا من الآلة المعدنية، أو تلك الحيوانية، ويلذ لها ان تعيش في حالة تأرجح».

ـ «ماذا يعني؟»

ـ «يعني انك عاشق، وأنت إذن ترغب ولا ترغب. الحب يجعلنا أعداء نفوسنا. أنت تخشى الخيبة لو بلغت المرام. واذن تلتذ in limine كما يقول اللاهوتيون، تلتذ بالتأخير».

ـ «كلا، ليس صحيحا، أنا... أنا اريدها حالا!»

ـ «ان كان الأمر هكذا، فذلك يعني انك لا زلت قرويا لا غير. ولكنك رجل نبيه. لو كنت تريدها حقا لأخذتها ـ ولكنت آنذاك انسانا فظا. كلا، انك تريد ان يزداد شوقك توقدا، وفي الأثناء يتوقد أيضاً شوقها هي. لو التهب شوقها إلى حد يجعلها تخضع لك فورا، ربما رفضتها آنذاك. الحب ينمو مع الانتظار. والانتظار يسرح في فضاءات الزمن الفسيحة نحو الفرصة».

ـ «ولكن ماذا أفعل في هذه الأثناء؟»

ـ «تغازلها».

ـ «ولكن... انها تجهل كل شيء، وأصارحك انني أجد صعوبة في الاقتراب منها..».

ـ «اكتب لها رسالة وصارحها بحبك.»

ـ «ولكنني لم اكتب أبدا رسائل غرامية! بل، يخجلني ان اقول انني لم اكتب ابدا رسائل».

ـ «عندما تخلّ بنا طبيعتنا، فلنتوجّه إلى الفن. سأمليها عليك انا. غالبا ما يلذّ للرجل الشريف ان يحرر رسائل لسيّدة لم يسبق له ان رآها، ولا تنقصني الخبرة لذلك. أنا لا أحب، واحسن الحديث في الحب افضل منك، لأن الحب جعلك أبكم.»

ـ «ولكنني اظن ان كل شخص يحب بطريقة مختلفة... سيبدو ذلك مصطنعا.»

ـ «لو بحت لها بحبك بعبارات صادقة لظهرت بمظهر مضحك».

ـ «ولكنني اصارحها بالحقيقة..».

ـ «الحقيقة هي كالصبية التي يضاهي جمالها عفتها ولذا يجب ان تكون دائما ملتفة بحجابها».

ـ «ولكنني اريد ان ابوح لها بحبي، لا بالحب الذي ستصفه أنت!»

ـ «اذن، كي تصدقك يجب ان تتظاهر. ليس هناك كمال دون رونق التحايل.»

ـ «ولكنها ستفهم ان الرسالة لا تتحدث عنها».

ـ «لا تخف. ستظن ان ما سأمليه عليك قد صنع على قياسها. هيا، اجلس واكتب. انتظر فقط ان استلهم خيالي».

وأخذ سان سافان يجوب الغرفة كما لو كان، حسب قول روبارتو، يحاكي طيران نحلة تعود إلى قرص عسل. كأنما كان يرقص، وعيناه سابحتان كأنه يقرأ في الفضاء تلك الرسالة، التي لم تكتب بعد. ثم بدأ.

ـ «سيدتي..».

ـ «سيدتي؟»

ـ «وماذا تريد ان تقول لها؟ ربما تريد ان تناديها: يا هذه، يا عاهرة كزالي؟»

ولم يتمالك روبارتو من ان يهمس لنفسه «Puta de los franceses»، وقد راعه كيف اقترب سان سافان بتلك الصفة وبطريقة عفوية ان لم نقل من الحقيقة، على الأقل من النميمة.

ـ «ماذا قلت؟»

ـ «لا شيء. حسنا. سيدتي. وبعد؟»

ـ «سيدتي، لقد كتب في هندسة الكون الرائعة، منذ اليوم الأول الذي خلق فيه، انني سألاقيك وأنني سأحبك. ولكن منذ السطر الأول من هذه الرسالة أحس ان روحي تفيض حتى انني لست أدري ان كانت لن تفارقني قبل ان ينهي قلمي..».

ـ «...ينهي. ولكنني لا أدري ان كانت ستفهم..».

ـ «الحقيقة تحلو أكثر عندما تكون محفوفة بالصعوبات الشائكة، والسرّ يعجبنا أكثر عندما يصعب علينا كشفه. بل أرى ان نرفع اكثر من النبرة. لنقل اذن... سيدتي..».

ـ «ثانية؟»

ـ «نعم. سيدتي، لإمرأة جميلة مثل «ألسيديانا»، كان يجدر بك دون شك، مثل تلك البطلة، مقام منيع. أظن أن سحراً حملك إلى مكان آخر وان بلدك صار جزيرة ثانية عائمة تبعدها رياح تأوّهاتي كلّما حاولت الاقتراب منها، بلد المتقاطرات، أرضاً يمنع الجليد من أن تطأها الأقدام. أراك حائرا، يا لاغريف: هل يبدو لك هذا رديئا؟»

ـ «كلاّ، إنه... يبدو لي على العكس».

ـ «لا تخف»، أجاب سان سافان وقد أساء الفهم، «لن تنقص الطباقات من الأضداد. لنواصل. ربما يحقّ لمحاسنك أن تجعلك بعيدة المنال كما يجدر بالآلهة. ولكن ألا تعرفين أن الآلهة تتقبّل برضى على الأقلّ البخور الذي نحرقه تقرّبا اليها؟ وإذن لا ترفضي ولعي: إن كنت تملكين اعلى درجة من الجمال ومن الروعة، فستحمليني على الكفر لو أنت منعتني من عشق شيئين في شخصك هما من أكبر الصفات الإلهية... هل يبدو لك هذا أحسن؟»

عند ذلك الحدّ كان روبارتو يفكّر في أن المشكل الوحيد الذي بقي هو أن تكون النوفاريّة تعرف القراءة. ما عدا هذه العقبة، كلّ ما ستقرأه سيجعلها دون شك ثملة، بما أنني أنا أيضا أثمل وأنا أكتب.

ثم قال «يا إلهي، ستجنّ..».

«دعها تجنّ. واصل الكتابة. وعوض أن أفقد قلبي عندما أهديتك حرّيتي، ها أنا أجده منذ ذلك اليوم أكبر بكثير، قد تضاعف إلى حدّ أنه، كما لو أن قلبا واحدا لا يكفي لحبّك، قد تكاثر في جميع عروقي حيث أحسّ به ينبض».

«يا إلهي..».

«إهدأ. إنك تتحدّث عن الحبّ، لا أنك تحبّ. اعذري يا سيّدتي جنون يائس، أو بالأحرى، لا تحملي غمّا: لم يسمع قطّ ان الملوك يسألون عن موت عبيدهم. إيه نعم، يجب أن أعتبر نفسي محظوظا، عندما عزمت على هلاكي: لو وهبتني على الأقلّ كرهك، لأظهر لي ذلك انك لا تتجاهلينني. كذلك الموت الذي تظنين انك عاقبتني به، سيكون لي مصدر بهجة. نعم الموت: إن كان الحب هو الاقتناع ان روحين خلقتا لتكونا موصولتين، عندما تشعر واحدة أن الأخرى لا تحسّ، لم يبق لها الا أن تموت. لذا ـ بينما لا يزال جسمي يحيا، ولوقت قصير ـ فإن روحي، التي انفصلت عنه، تعطيك خبرا».

ـ «...التي انفصلت عنه، تعطيك؟»

ـ «خبرا».

ـ «اتركني استرجع انفاسي. احسّ برأسي يحترق..».

ـ «تحكّم في نفسك. لا تخلط بين الحبّ والفنّ».

ـ «ولكنني أحبّها! أحبّها، هل فهمت؟»

ـ «أنا لا أحبّها. لذا عهدت اليّ بأمرك. اكتب دون التفكير فيها. فكّر، لنقل، في السيّد دي تواراس..».

ـ «أرجوك!»

ـ «لا داعي لأن تنظر إليّ بهذا الشكل. إنه في نهاية الأمر رجل جميل. ولكن اكتب. سيّدتي..».

ـ «مرّة أخرى؟»

ـ «مرّة أخرى. سيّدتي، لقد قدّر عليّ، إضافة إلى ذلك، أن أموت أعمى. ألم تجعلي أنت من عينيّ إنبيقين تقطّرين منهما حياتي؟ وكيف يحدث أنّه كلّما ابتلّت عيناي، زاد احتراقي؟ ربما لم يصنعني أبي من الطين الذي خلق منه الإنسان الأول، بل من الجير، بما أن الماء الذي أسكبه يحرقني. وكيف أمكن انني مع احتراقي لا زلت أحيا، مسيلا دموعا أخرى لكي أحترق من جديد؟»

ـ «أليس مبالغا؟»

ـ «في المناسبات العظيمة حتى الأفكار ينبغي أن تكون عظيمة».

الآن صار روبارتو لا يحتجّ. كان يبدو له أنه صار الفتاة النوفاريّة وأنه اصبح يحسّ ما كانت ستحسّه لو قرأت تلك الصفحات. وكان سان سافان يملي:

«لقد تركت في قلبي، بعد ان هجرته، لئيمة، هي صورتك، تتباهى بامتلاكها عليّ حقّ الحياة والموت. وأنت ابتعدت عنّي مثلما يفعل الملوك الذين يبتعدون عن مكان الإعدام لئلاّ تحرجهم طلبات العفو. إن كانت روحي وحبّي يتكوّنان من نفسين، عندما أموت أترجّى الاحتضار ان يكون نفس حبّي هو الأخير الذي يتركني، وستتحقّق عندئذ ـ كآخر هبة منّي اليك ـ المعجزة التي ستجعلك تسيرين فخورة، وهي انه على الأقلّ لمدّة لحظة صعد نفس متشوّق اليك من جسم كان قد مات».

ـ «مات. انتهى؟»

ـ «كلاّ. دعني أفكّر، يجب ان نجد عبارة فيها une pointe...»

ـ «..une puen . ماذا يعني؟»

ـ «نعم، ابتداع من الفكر يبدو انه يعبّر عن تطابق غريب بين شيئين، يفوق قدرتنا على التصديق، حتى انه في هذه اللعبة التي تشوّق الفكر يضيع لحسن الحظ كلّ اعتبار لجوهر الأشياء».

ـ «لا أفهم..».

ـ «ستفهم. هوذا: لنقلب قبل كلّ شيء معنى النداء، أنت فعلا لم تمت بعد، لنعطها امكانية ان تسرع لإغاثة هذا المحتضر. اكتب. بإمكانك، سيّدتي، أن تنقذيني. لقد وهبتك قلبي. ولكن كيف لي أن أعيش دون محرّك الحياة نفسه؟ لا اطلب منك ان تعيديه اليّ، اذ هو في سجنك فقط يستمتع بالحرية، ولكنني أترجّاك أن ترسلي اليّ في المقابل قلبك، لأنه لن يجد بيتا اكثر استعدادا لقبوله. لكي تعيشي لست بحاجة إلى قلبين، وقلبي ينبض بقوّة تجعله يضمن لك أكثر الأشواق سرمديّة».

ثمّ، بعد أن قام باستدارة وانحناءة، مثل ممثّل ينتظر هتاف الجمهور ختم قائلا: «أليس جميلا؟»

ـ «جميلا؟ ولكنني أجده... كيف أقول... سخيفا. ألا يبدو لك انك ترى هذه السيدة وهي تجري عبر «كزالي» تتسلّم وتبلّغ القلوب، مثل الساعي؟»

ـ «أتريد ان تحبّ رجلا يتكلّم مثل ايّ بورجوازي؟ وقّع وضع الختم».

ـ «ولكنني لا أفكّر في السيّدة، أفكّر لو أنها أطلعت أحدا آخر على الرسالة، لمتّ من الخجل».

ـ «لن تفعل ذلك. ستحتفظ بالرسالة في حضنها وستشعل كلّ ليلة شمعة قرب فراشها لقراءتها من جديد، ولتغمرها بالقبل. وقّع وضع الختم».

ـ «ولكن لنتصوّر، واقول ذلك على سبيل المثال، انها لا تعرف القراءة. ستطلب من أحد ان يقرأها عليها..».

ـ «ماذا يا سيّد دي لاغريف! أظنك تريد ان تقول لي انك شغفت بفلاّحة؟ وأنك بدّدت إلهامي لتحرج به فظّة خشنة؟ لم يبق الاّ أن نتبارز».

ـ «كان فقط على سبيل المثال. كنت أمزح. ولكنهم علّموني انه على الرجل الحذر ان يعتبر جميع الحالات، والظروف، ومن المحتملة حتى تلك الأبعد احتمالا..».

ـ «أرأيت أنك تعلّمت كيف تعبّر كما ينبغي. ولكنك أخطأت الاعتبار واخترت أسخف الاحتمالات. على كلّ حال، أنا لا أريد أن أجبرك. امح الجملة الأخيرة، وواصل حسب ما سأملي عليك..».

ـ «ولكن لو محوتها لوجب أن أعيد كتابة الرسالة».

ـ «أنت كسول أيضا. ولكن على الحكيم ان يستمدّ الفائدة من المآسي. امح...هل فعلت؟ انتظر». وغمس سان سافان اصبعه في إبريق ثم ترك قطرة تسيل فوق الفقرة الممحاة، متحصّلا على بقعة صغيرة من البلل، كانت حواشيها تتلوّن شيئا فشيئا بسواد الحبر. «والآن اكتب. اعذريني يا سيّدتي، إن لم أجسر على إبقاء خاطر، مع أنه سلب منّي عبرّة، فقد راعني لجرأته. كما يحدث أن تخلق نار بركانية نهرا عذبا من ماء أجاج. ولكن، يا سيّدتي، قلبي هو مثل قوقعة البحر، التي تشرب عرق الفجر الجميل فتنتج اللؤلؤة، وتكبر في جسم واحد معها. عند التفكير في ان لامبالاتك ستأخذ من قلبي اللؤلؤة التي غذّاها بكلّ غيرة، فإن قلبي يسيل من مقلتيّ... نعم، يا لاغريف، هذا دون شكّ أفضل، لقد أنقصنا من المبالغات. من الأفضل التنقيص من مغالاة العاشق، لتضخيم تأثّر المحبوبة. وقّع، واغلق الرسالة وبلّغها اليها. ثم انتظر».

ـ «أنتظر ماذا؟»

ـ «شمال بوصلة الحذر يكمن في حلّ الأشرعة للريح في الوقت المناسب. في هذه الحالات الانتظار لا يضرّ أبدا. القرب ينقص من



الصيت والبعد يزيد فيه. عندما تكون بعيدا يحسب لك حساب الأسد، وعندما تكون حاضرا يمكن ان تصبح فأرا تمخّض عنه جبل. انك دون شك تملك خصالا جميلة، ولكن الخصال تفقد من رونقها عندما يكثر لمسها، بينما الخيال يصل إلى أبعد من العين».

شكره روبارتو وسارع إلى بيته مخفيا الرسالة طيّ صدره كما لو كان قد سرقها. كان يخاف ان يسرق أحد غنيمة سرقته.

سأعثر عليها، كان يقول في نفسه، سأنحني أمامها وسأسلّمها الرسالة. كان يتململ في فراشه وهو يفكّر في الطريقة التي ستقرأ بها الرسالة محركة شفتيها. الآن اصبح يتصور أنّا ماريا نوفاريزي متحلية بجميع تلك الخصال التي خصها بها سان سافان. الآن وقد باح بحبه، وان كان عن طريق شخص آخر، أحس بنفسه عاشقا أكثر من ذي قبل. بقيامه بشيء ضدّ مشيئته، ابتسمت له المشيئة. الآن بات يحب نوفاريزي بنفس تلك القوّة الجميلة التي كانت تذكرها الرسالة.

ومضى يبحث عن تلك التي كان مستعدا كل الاستعداد للبقاء بعيدا عنها، بينما كانت تسقط على المدينة بعض القذائف المدفعية، غير عابىء بالخطر، إلى ان شاهدها بعد بضعة ايام عند منعطف شارع، محملة بالسنابل مثل تلك المخلوقات الميثولوجية. جرى وراءها وكيانه يرتجف وقد نسي ماذا يجب ان يفعل أو ان يقول. اقترب منها وهو يرتعد ثم وقف امامها وقال لها: «ايتها الآنسة..».

ـ «من، أنا»؟ أجابت الفتاة وهي تضحك، ثم أضافت: «وبعد؟»

ـ «وبعد»، لم يجد روبارتو إجابة افضل، «أيمكنك ان ترشديني إلى طريق القلعة؟» فأجابت الفتاة وقد أمالت رأسها إلى الخلف، محركة شعرها الغزير: «ألا ترى؟ من هناك»، ثم اختفت وراء المنعطف. عند تلك الزاوية من الشارع، بينما كان روبارتو مترددا ايتبعها ام لا، سقطت قذيفة بصفير حاد، فدمرت جدار حديقة ورفعت سحابة من الغبار. سعل

روبارتو وانتظر ان يتلاشى الغبار ثم فهم انه بسيره المتردد في فضاءات الزمن الفسيحة قد أضاع «الفرصة».

وعقابا لنفسه مزّق بألم الرسالة ومضى نحو بيته، بينما كانت مزق نفسه تتلوّى على الأرض.

أقنعه حبّه الأول الغامض بصفة نهائية ان موضوع الحبّ يكمن في البعد، وأظن ان هذه القناعة حددت مصيره كعاشق. في الأيام الموالية عاد ليزور كل زاوية وكل منعطف (اين بلغه عنها خبر، أو لمس منها أثرا، أو سمع عنها حديثا أو رآها) ليعيد رسم منظر للذاكرة. وهكذا رسم «كزالي» أخرى نشأ من غرامه، محولا الأزقة، والعيون، والساحات إلى «نهر الميل»، إلى «بحيرة اللامبالاة» أو إلى «بحر العداء» ؛ جعل من المدينة المجروحة «موطنا» لحنانه المتعطش، جزيرة (منذ ذلك الحين، حسب ظني) لوحدته.

13

خارطة المشتاق

ليلة التاسع والعشرين من يونيو ايقظت المحاصرين فرقعة هائلة، تبعتها دقات الطبول: انفجر اللغم الأول الذي تمكن العدو من وضعه تحت الأسوار، مدمراً نصف دائرة رُدم تحتها خمسة وعشرون جنديا. في اليوم الموالي، حوالي السادسة مساء، سمع مثل الرعد نحو الغرب، وعند الشرق ظهر قرن، أكثر ضياء من السماء، كان طرفه أحيانا يطول وأحيانا يقصر. كان مذنّبا، أدخل الروع في قلوب المسلحين وألزم سكان المدينة ديارهم. في الأسابيع الموالية تهدمت جوانب اخرى من الأسوار، بينما كان المحاصرون يطلقون النار دون هدف، لأن الأعداء كانوا يتحركون تحت الأرض، والأنفاق المضادة للألغام لم تعد قادرة على ردّهم.

كان روبارتو يعيش تلك الكارثة كمن كان مسافرا غريبا. كان يقضي الساعات الطوال يتحادث مع الأب ايمانويل حول افضل الطرق لوصف نيران الحصار، ولكنه كان يخالط دائما اكثر سان سافان ليخلق معه صورا تجسم بنفس البلاغة نيران غرامه ـ الذي لم يتجرأ ان يبوح بفشله. كان سان سافان يمدّه بمشهد تسير فيه مغامرته العاطفية نحو آفاق سعيدة؛ وكان يتحمل بصمت خزيه وهو يحرر مع صديقه رسائل اخرى، كان يتظاهر بعد ذلك بتسليمها، بينما كان كل ليلة يعيد قراءتها كما لو

كانت تلك اليوميات المحملة بآيات العشق موجهة من لدنها اليه هو.

وكان يتخيل مواقف تبدو فيها ماريا نوفاريزي ضحية تطاردها زمرة من المرتزقة، وتسقط واهية بين ذراعيه، بينما يشتت هو الأعداء ويقودها منهوكة إلى حديقة، حيث ينعم بلذائذ شكرها المتوحش. ويستسلم لتلك الأفكار فوق فراشه ولا يفيق منها الا بعد غياب طويل، فيأخذ حينئذ في كتابة أشعار لحبيبته.

وأطلع مرة سان سافان على واحدة من تلك القصائد، فعلق قائلا: «اعذرني ان قلت لك انني أجدها على غاية من السماجة، ولكن لا تحزن: فأغلب اولئك الذين يقولون عن أنفسهم في باريس انهم شعراء يكتبون أسوأ من هذا. لا تكتب الشعر عن حبّك، فغرامك ينتزع منك تلك البرودة الرائعة التي كانت فخر كاتولّوس».

وجد نفسه كئيبا، فكاشف بذلك سان سافان وعلّق هذا الأخير قائلا: «افرح، فالكآبة ليست روث الدم بل زهره، وتخلق الأبطال لأنها بقربها من الجنون تدفعهم إلى الأعمال الأكثر جسارة». ولكن روبارتو لم يكن يحس بنفسه مدفوعا نحو أي شيء، ويكتئب أكثر لأنه كان يجد كآبته غير كافية.

كان كالأصم لا يسمع لا الصياح ولا طلقات المدافع، بينما كانت تبلغه اصوات الأمل (المعسكر الإسباني في ازمة، يقال ان الجيش الفرنسي يقترب)، ويفرح لأن في منتصف شهر يوليو نجح لغم مضاد أخيرا في قتل العديد من الجنود الإسبان؛ ولكن مع ذلك كانت تسقط العديد من الحصون، وفي اواسط يوليو كانت فرق العدو المتقدمة تطلق النار على وسط المدينة مباشرة. وبلغه ان بعض الكزاليين يحاولون الصيد في نهر «بو» ودون ان يعبأ باجتياز طرق كانت معرضة لنيران العدو، جرى ليرى ان لم تتعرض ماريا نوفاريزي لطلقات الإمبراطوريين.

كان يمر فاتحا طريقه بين الجنود الثائرين، اذ كان عقدهم لا

يتضمن حفر الخنادق؛ ولكن الكزاليين رفضوا القيام بذلك عوضهم، فكان على تواراس ان يعدهم بزيادة في الأجر. وكان يهنىء نفسه على غرار الآخرين عندما علم ان سبينولا اصيب بالطاعون، ويسر لرؤية مجموعة من الجنود النابوليين يدخلون المدينة فارين من معسكر العدو خوفا من الإصابة بالوباء الذي تفشى فيه، ويستمع إلى الأب ايمانويل وهو يقول ان ذلك يمكن ان يصبح سببا في العدوى...

في منتصف سبتمبر ظهر الوباء في المدينة، ولكن روبارتو لم يلق بالاً لذلك، كان يخاف فقط ان تكون ماريا نوفاريزي قد أصيبت، إلى ان أفاق ذات صباح وقد تملكته حمى شديدة. تمكن من ارسال أحد لإعلام الأب ايمانويل، ونقل خفية إلى ديره، حتى لا يدخلوه احد تلك المحاجر التي خصصت ليموت فيها المصابون سريعا ودون ضوضاء حتى لا يلهون الآخرين، المنشغلين في نشر الموت بالمتفجرات.

لم يكن روبارتو يفكر في الموت: كان يظن الحمى غراما محرقا، ويحلم بلمس جسد ماريا نوفاريزي، بينما كان يفرك ثنايا الفراش، أو يلامس اطراف جسده الموجع والناضح بالعرق.

يا لقوة الذاكرة الحازّة، تلك الليلة على دافني، بينما كان الليل يتقدم والسماء تنهي دوراتها البطيئة، وتختفي نجوم «صليب الجنوب» وراء الأفق، لم يعد روبارتو يعلم ان كان يتحرق بعشق جديد نحو «ديانا» المحاربة التي عرفها في كزالي، أو نحو السيّدة البعيدة بُعد الأولى عن نظره.

أراد ان يعرف اين يمكن ان تكون قد هربت، وجرى إلى حجرة الأدوات البحرية حيث بدا له انه رأى خارطة لتلك البحار. وجدها، كانت كبيرة، ملونة وغير كاملة، لأنه في تلك الأزمنة كانت أكثر الخارطات غير كاملة بالضرورة: كان البحّار، الذي يجوب بقاعا جديدة، يرسم السواحل التي يشاهدها، ولكنه يترك الحدود غير كاملة

لأنه لا يعرف كيف وإلى أي حد وأين تنتهي تلك اليابسة؛ حتى ان خارطات المحيط الهادي كانت تبدو في الغالب تعرّجات شواطىء، وملامح دوائر، وفرضيات كتل، وكانت تبدو متمّمة فقط تلك الجزر القليلة التي وقع الطواف حولها، ووجهات الرياح التي تحددها التجربة. والبعض منهم، ليجعل الجزيرة سهلة التعرف عليها، كانوا يرسمون بدقة شكل القمم والسحب التي تغطيها، بحيث يمكن التعرف عليها كما يمكن التعرف من بعد على شخص من خلال شكل قبعته، أو من مشيته.

فوق تلك الخارطة كانت واضحة حدود ساحلين يواجه احدهما الآخر، تفصل بينهما قناة تتجه من الجنوب نحو الشمال، وأحد ذينك الساحلين كان ينتهي بدورات عديدة كأنما يصور جزيرة، يمكن ان تكون جزيرته؛ ولكن على بعد مسافة واسعة من البحر كانت هناك مجموعات اخرى من الجزر المحتملة، متشابهة في اشكالها، يمكن ان تكون المكان الذي كان يجد نفسه فيه.

ربما أخطأنا لو قلنا ان روبارتو كان يحركه حب اطلاع الجغرافيين؛ فقد علّمه كثيرا الأب ايمانويل ان يقلب المرئيّ مستعملا عدسة المنظار الأرسطوطاليسي. وكثيرا ما لقّنه سان سافان ان يوقد الرغبة من خلال الكلام، الذي يحول فتاة إلى تمّ وتمّا إلى انثى، ويحول الشمس إلى قدر وقدرا إلى شمس! في هزيع متقدم من الليل نجد روبارتو يحلم فوق خارطة تحولت إلى جسد انثوي طالما اشتاق اليه.

ان كان العشاق يخطئون عندما يكتبون اسم الحبيبة على رمل الشاطىء، لأن الأمواج شيئا فشيئا تمسحه، كان هو يشعر بأنه محب متبصر لأنه عهد بجسم الحبيبة إلى اقواس الخلجان، وشعرها إلى مهب التيارات في تعرجات الأرخبيل، والعرق الصيفي على وجهها إلى انعكاسات المياه، وسرّ العينين إلى زرقة الإمتدادات الخالية ـ فكانت الخارطة تعيد مرارا رسم جسد المحبوبة، في اضطجاعاته المتنوعة

حسب الخلجان والمرتفعات. كان يغرق، تجتاحه الرغبة، وفمه على الخارطة، يشرب من ذلك المحيط من الشوق، يدغدغ رأساً، ولا يجرؤ ان يلج مضيقاً، وخده ملتصق بالورقة يتنفس من نفس الرياح، ويود لو شرب البحيرات والعيون، لو أنضب من شدة عطشه مصبات الأنهار، لو كان شمسا ليلثم الشواطىء، مدّاً وجزراً يلين الوديان...

ولكنه لم يكن يلتذ بذلك الامتلاك، بل بالحرمان: بينما كان يتلظى بلمس تلك الغنيمة من رسم علامة، ربما كان آخرون، فوق الجزيرة الحقيقية ـ حيث تمتد في اشكال جميلة لم تتمكن الخارطة بعد من تقييدها ـ يقضمون ثمارها، ويستحمون في مياهها... آخرون، عمالقة مندهشون ومتوحشون يقربون في تلك الآونة اياديهم الخشنة إلى نهدها،بركانيّون مشوّهون يغتصبون «افروديت» الرقيقة، يلامسون شفتيها بنفس الغباوة التي يرمي بها صياد الجزيرة التي لم تكتشف، وراء آخر افق لجزر «كناري»، دون ان يدري، أثمن ما ندر من اللآلي...

هي بين ذراعي معشوق آخر... كانت هذه الفكرة تسكره سكرا لامتناهيا يتقلب فيه روبارتو متأوها، صارخا عجزه. وفي تلك الحمى، وهو يتحسّس بيديه فوق الطاولة كمن يريد على الأقل ان يتشبث بطرف فستان، انزلق نظره من صورة ذلك الجسم الوديع، ذي التموجات اللينة، إلى خارطة اخرى حيث حاول صاحبها المجهول ان يصور قنوات البراكين النارية الموجودة في الأرض الغربية: كان دليل سواحل الكرة الأرضية بأجمعها، كلها مداخن على قمم مرتفعات القشرة، وفي الباطن عروق متشابكة جافة؛ وأحس بنفسه فجأة صورة حية من تلك الكرة، وتأوه ناضحاً بالطفح من جميع مسامّه، متجشئاً ليمفا رغبته المتعطشة، إلى ان فقد اخيرا وعيه ـ وقد أضناه الاستسقاء الملتهب (هكذا كتب) ـ فوق ذلك الجسد الجنوبي الذي كان يحلم به.

14

مؤلف في علم السّلاح

في «كزالي» أيضاً كان يحلم بفضاءات مفتوحة، وبالمنخفض الفسيح الذي شاهد فيه لأول مرة ماريا نوفاريزي. ولكنه الآن لم يعد مريضا، وصار يفكر بكل وعي انه لن يلاقيها بعد ذلك أبدا، لأنه إما سيموت بعد زمن قصير، أو انها هي التي ماتت.

الا انه في الواقع لم يكن قريبا من الموت، بل كان يبرأ شيئا فشيئا، دون ان يتفطن لذلك ويستبدل وهن النقاهة على انه فقدان الحياة. وعاده سان سافان مرّات عديدة، يمدّه بتسلسل الأحداث عندما كان الأب ايمانويل حاضرا (كان يراقبه كأنما يخاف ان يسرق منه تلك الروح)، وعندما يضطر هذا الأخير لتركهما (اذ كانت المفاوضات تتعدّد في الدير) كان يتكلم بفلسفة حول الحياة والموت.

ـ «يا صديقي العزيز، ان سبينولا على وشك الموت. وأنت مدعوّ لحضور الاحتفالات التي سنقيمها عندما سيتركنا».

ـ «في الأسبوع المقبل سأكون أنا أيضاً في عداد الأموات..».

ـ «ليس هذا صحيحا، إنني أُحسن التعرف على وجه من هو على حافة الموت. ولكنني أخطىء لو أبعدتك عن فكرة الموت. بل العكس، انتهز فرصة المرض للقيام بهذا التمرين القيّم».

ـ «يا سيد دي سان سافان، إنك تتحدث مثل رجل كنيسة».

ـ «لا شيء من هذا. إنني لا أدعوك للتأهب للحياة الأخرى، ولكنني ادعوك لاستعمال هذه الحياة الوحيدة التي منحت اياها، كي تواجه، عندما تحين الساعة، الموت الوحيد الذي ستجربه. من الواجب ان تفكر قبل ذلك، ومرّات عديدة، في فن الموت، لتحسن بعد ذلك انجازه مرة واحدة».

كان يريد النهوض، ولكن الأب ايمانويل كان يمنعه من ذلك، لأنه كان لا يعتقد انه اصبح جاهزا للعودة ثانية إلى قرقعة الحرب. وأفهمه روبارتو انه متشوق لملاقاة شخص. فكان رأي الأب ايمانويل انه من الحمق ان يترك جسمه الذابل يفنى من اجل جسم آخر، وحاول ان يظهر له سلالة الإناث على انها سلالة لا تستحق الا الإزدراء، فكان يقول له: «ذلك العالم الأنثوي الباطل الذي تتقمّصه بعض تلك الأطلنطيات الحديثة، يدور حول الفضيحة ومداراه هما السرطان والجدي. والمرآة، التي هي منها المحرّك الأول، ليست أكثر عتمة الاّ عندما تعكس نجوم تلك العيون الفاسقة، التي صارت، من بخار أنفاس العاشقين الحمقى، شهبا تؤذن بمآس تصيب العفّة».

لم يستحسن روبارتو تلك الإستعارة الفلكية، كما انه لم يجد في صورة ساحرات الصالونات المدنية شيئاً من حبيبته. بقي في فراشه، ولكنه صار ينضح أكثرمن ذي قبل بأبخرة عشقه.

في الأثناء كانت تصله أخبار أخرى من قبل السيد ديلا ساليتا. كان الكزاليون يتساءلون ان لم يكن من الأفضل ان يتركوا الفرنسيين يدخلون القلعة: لقد فهموا الآن انه إن ارادوا أن يمنعوا العدو من دخولها، عليهم ان يجمعوا القوى. ولكن السيد ديلا ساليتا كان يوضح، انه الآن أكثر من أي وقت مضى، بينما كانت المدينة تبدو على وشك السقوط، يظهر الكزاليون انهم يتعاونون مع الفرنسيين، ويراوحون بينهم وبين

أنفسهم ميثاق التحالف. كان السيد ديلا ساليتا يقول: «يجب ان نظهر بمظهر الحمامة الوديعة مع السيد دي تواراس، ولكن يجب ان نكون أخبث من الثعبان ان أراد ملكه ان يبيع «كزالي». يجب ان نقاتل حتى يعود الفضل الينا أيضاً في حالة نجاة «كزالي»، ولكن دون مبالغة، حتى اذا سقطت وقع ثقل الهزيمة على الفرنسيين فقط». وأضاف، كأنه يلقن روبارتو درسا: «المتبصّر لا يشدّ نفسه إلى عربة واحدة.»

ـ «ولكن الفرنسيين يقولون إنكم تجار: لا يتفطن أحد اليكم عندما تقاتلون، بينما يراكم الجميع عندما تبيعون بالربا!»

ـ «كي يعيش طويلا من الأفضل للإنسان ان يسوى قليلا. الوعاء المشقوق هو الذي لا ينكسر أبدا بأكمله ويدوم إلى ان نسأم من طول دوامه».

ذات صباح، في أوائل سبتمبر، أمطر على «كزالي» غيث محرّر. من كان معافى أو في فترة نقاهة خرج إلى الهواء الطلق تحت المطر لغسل كل اثر من العدوى. كانت طريقة للانتعاش لا علاجا، وتواصل الداء ضارياً حتى بعد تلك العاصفة الممطرة. والأخبار الوحيدة المعزية كانت تخص ما كان الوباء يحصد في معسكر الأعداء.

الآن وقد صار قادرا على الوقوف، جازف روبارتو وخرج من الدير، وإذا به يشاهد على عتبة دار رسمت عليها علامة صليب باللون الأخضر، بمعنى ان المكان مصاب بالعدوى، أنا ماريا أو فرانشسكا نوفاريزي. كانت شاحبة هزيلة مثل صورة من «رقصة الموت» وقد تحول بياضها الثلجي وحمرتها الوردية إلى اصفرار شاحب، وان كان لا يخفي ما كان في ملامحها من جمال مندثر. وتذكر روبارتو جملة قالها سان سافان: «أتراك ستواصل عبادة ذلك الجمال عندما تجعل الشيخوخة من ذلك الجسم شبحا، لا يوحي اليك الا بقرب الموت؟»

كانت الفتاة تبكي ورأسها متكىء على كتف الراهب الكبوشي،

كأنما فقدت شخصا عزيزا، ربما حبيبها الفرنسي. والراهب، بوجهه الذي يفوق بياضه بياض لحيته، كان يسندها موجها اصبعه نحو السماء كأنما يقول: «سيأتي يوم، هنالك..».

الحب لا يصبح شيئا ذهنيا إلا عندما يرغب الجسد وتبقى رغبته مكبوتة. عندما يكون الجسد ضعيفا وغير قادر على الرغبة، ذلك الشيء الذهني يتلاشى. واكتشف روبارتو نفسه على قدر من الضعف يجعله عاجزا عن الحب. واضمحلت أنّا ماريا (فرانشسكا) نوفاريزي.

عاد إلى الدير ولزم فراشه، وقد قرر ان يموت فعلا: كان يتألم كثيرا من فقدان ما كان يؤلمه. وكان الأب ايمانويل يحرضه على الخروج لاستنشاق قليل من الهواء المنعش. الا ان الأنباء التي كانت تصله من الخارج كانت لا تشجعه على الحياة. الآن، إضافة إلى الطاعون، صارت هناك المجاعة، بل شيء أفظع من المجاعة، كانوا كلّهم يتصيّدون بوحشية قليلا من الطعام بينما كان الكزاليون يخفونه ولا يريدون إمداد حلفائهم بالغذاء. وقال روبارتو انه إن لم يتمكن من الموت بسبب الوباء فإنه كان يريد ان يموت جوعا.

في نهاية الأمر تغلب عليه الأب ايمانويل، وأخرجه من الدير. وبينما كان يسلك منعطفا، فوجىء بمجموعة من الضباط الإسبان. أراد الفرار، ولكن هؤلاء حيّوه بكل أدب. وفهم بعد ذلك انه، بعد سقوط العديد من الحصون، تمركز الأعداء في نقاط كثيرة من المدينة، بحيث يمكن القول ان الحقول المجاورة لم تكن تحاصر «كزالي»، بل «كزالي» كانت تحاصر قلعتها.

في آخر الشارع اعترضه سان سافان الذي قال له: «يا عزيزي لاغريف، لقد مرضت فرنسياً وها انك برئت اسبانياً. هذا الجزء من المدينة في حوزة العدوّ».

ـ «وهل بإمكاننا نحن ان نمرّ؟»

ـ «ألا تعلم انه قد أمضيت هدنة؟ ثم، إن الإسبان يريدون القلعة، نحن لا. في الجهة الفرنسية الخمر نادرة والكزاليون يخرجونها من اقبيتهم كما لو كانت دم سيدنا المسيح. لا يمكن منع النبلاء الفرنسيين من التردد على بعض الحانات في هذه الناحية، حيث يجلب أصحابها من الريف خمراً جيدة جدا. والإسبان يتقبّلوننا بما يناسب كبار الأسياد. الا انه ينبغي احترام اللياقات: ان اراد أحدنا ان يشاجر، فعليه ان يفعل ذلك في دارنا ومع أناسنا، اذ في هذه الناحية ينبغي ان يكون سلوكنا لائقا، كما تتطلب قواعد المعاملة مع الأعداء. لذا اعترف ان الجهة الإسبانية أقل تسلية من الفرنسية، على الأقل بالنسبة الينا. هيّا معنا. هذا المساء سننشد سريناد لسيّدة أخفت عنّا مفاتنها إلى ان رأيتها يوما تطل من النافذة.»

وهكذا وجد روبارتو ذلك المساء خمسة وجوه معروفة في بلاط دي تواراس. حتى القسّ كان حاضرا، وبالمناسبة لبس ثوبا كله تشابيك ودانتيلا، مع حمّالة من الساتان، وكان يقول بنفاق واضح: «الله يغفر لنا، ولكن يجب ان يتسلّى المرء قليلا ان اراد مواصلة القيام بالواجب..».

كانت الدار وسط ساحة، في الجهة التي صارت في حوزة الإسبان، ولكن الإسبان في تلك الساعة كانوا دون شك كلهم في الحانات. في رقعة السماء التي كانت ترسمها السطوح القصيرة وكتل الأشجار التي تحيط بالساحة، كان القمر يسطع هادئا، لا تشوبه الا بعض النقاط الداكنة، وينعكس في مياه نافورة كان خريرها يتوسط تلك الرقعة الحالمة.

وراح سان سافان يقول: «يا ديانا العذبة، كم تكون مدنك وقراك في هذه الآونة هادئة مسالمة،فهي لا تعرف الحروب، بما ان القمريّين يعيشون في حبور طبيعي، لا يعرفون الخطيئة..».

فأجابه القسّ: «لا تجدف يا سيد دي سان سافان، فحتى لو كان القمر مسكونا، كما هذر بذلك السيد دي موليني في روايته الأخيرة، بينما الكتب المقدّسة لا تقول ذلك، فسيكون سكانه من أتعس المخلوقات، اذ انهم لم يعرفوا تجسّد المسيح».

فردّ عليه سان سافان: «وسيكون الإله سيدنا قاسيا جدا اذ حرمهم من هذا الوحي العظيم،»

ـ «لا تحاول ان تنفذ إلى الأسرار الإلهية. حتى سكان امريكا لم يحظوا بحكمة من الإله بتبشير سيدنا المسيح، ولكن الرب في طيبته اللامتناهية يرسل اليهم الآن المبشرين، ليحملوا اليهم النور».

ـ «وإذن لماذا لا يرسل البابا المبشرين إلى القمر أيضاً؟ أم ان القمريّين ليسوا ابناء الخالق؟»

ـ «كفّ عن هذه الحماقات!»

ـ «أقبل ان تصفني بالأحمق، يا سيدي القس، ولكن اعلم ان هذه الحماقة تخفي سرا، لا يريد البابا ان يكشفه. لو اكتشف المبشرون ان في القمر سكّانا، ورأوهم ينظرون إلى عوالم اخرى في متناول انظارهم ولا نراها نحن، لسمعوهم يتساءلون ان لم يكن في تلك العوالم مخلوقات اخرى تشبهنا. ولتساءلوا ان لم تكن النجوم القارة شموسا تحيط بها اقمارها وكواكبها، وان لم يكن سكانها يرون هم الآخرون نجوما اخرى نجهل نحن وجودها، وهي الأخرى شموس مرفوقة بكواكبها، وهكذا إلى ما لا نهاية له..».

ـ «لقد خلقنا الإله عاجزين عن تصور المطلق، وإذن ليقنع الجنس البشري بذلك».

ـ «السريناد، السريناد»، كان الآخرون يهمسون «تلك هي النافذة». كان يملأ النافذة ضياء وردي متأتّ من داخل مخدع كان يدغدغ خيال كل واحد منهم. ولكن الاثنين صارا الآن هائجين.

كان سان سافان يلحّ بسخرية: «أضف إلى انه، لو كان العالم منتهيا ومحاطا باللاشيء، يكون الرب هو أيضاً منتهيا: بما ان عمله يقتضي منه، كما تقولون، ان يكون في السماء وفي الأرض وفي كل مكان، فهو لا يستطيع ان يكون حيث لا يوجد شيء. واللاشيء هو اللامكان. أو انه، لتوسيع العالم يجب ان يوسع نفسه، ويولد للمرة الأولى حيث لم يكن سابقا، وهذا يناقض خلوده المزعوم».

«كفى ايّها السيّد! انك تنفي خلود الخالد، وهذا ما لا أسمح لك به. آن الأوان ان أقتلك، حتى لا يتمكن فكرك القوي، كما يقولون، من ان يضعفنا!» واستل سيفه.

ـ «إن كان هذا ما تريد»، قال سان سافان بعد ان حيّا ووقف وقفة المتهيىء «ولكنني لن أقتلك: لا أريد ان يخسر ملكي أحد جنوده. سأكتفي بتشويهك، حتى تضطر ان تعيش بقية حياتك وأنت تحمل قناعا، كما يفعل الكوميديون الإيطاليون، اذ هذا ما يليق بك. سأحدث لك جرحا ينطلق من العين إلى الشفة، ولن أسدّد لك هذه الضربة اللائقة بخصي الخنازير الا بعد ان ألقّنك، بين ضربة وأخرى، درسا في الفلسفة الطبيعية».

وهاجمه القسّ محاولا ان يصيبه حالا بضربات قوية تشقّ الفضاء، صائحا بأنه حشرة سامة، برغوث، قملة يجب سحقها دون رحمة. وواجه سان سافان ضرباته، ثم هاجمه بدوره، مجبرا اياه على التقهقر إلى ان حصره إلى شجرة، ولكنّه كان يواصل تفلسفه مع كل ضربة.

ـ «آه، ان الضربات اليمينية والعنيفة ضربات مبتذلة يسدّدها من أعماه الغضب! تنقصك فكرة المسايفة. ولكن تنقصك أيضاً الرحمة، لأنك تحتقر البراغيث والقمل. إنك حيوان صغير لا تقدر على ان تتصور العالم حيوانا كبيرا، كما أبرز لنا ذلك افلاطون العظيم. حاول ان تتصور النجوم عوالم تسكنها حيوانات اخرى اصغر، وان تلك الحيوانات

الصغيرة هي بدورها عوالم لسكان آخرين ـ وعند ذلك لن ترى تناقضا في تصور اننا نحن أيضاً، والخيول، والفيلة عوالم للبراغيث والقمل التي تسكننا. انها لا ترانا، لضخامة حجمنا، وكذلك نحن لا نرى عوالم أكبر، لصغر حجمنا. ربما يوجد الآن شعب من القمل اتخذ من جسمك عالما، وعندما يجوب احدهم مسافة بين الجبهة والرقبة، يقول عنه رفاقه انه تجاسر وبلغ حدود الأرض المعروفة. إن هذا الشعب الصغير يرى في شعرك غابات تغطي موطنه، وعندما سأضربك سيرى في جرحك انهارا وبحارا. وعندما تمشط شعرك يرى في تلك الحركة مدّ المحيط وجزره، ومن حظه التعيس ان العالم الذي يسكنه في تغير وحركة دائمين لميلك إلى تمشيط شعرك في كل لحظة كما تفعل النساء، والآن عندما سأقطع تلك الشرابة ستبدو له صيحتك الحانقة مثل هدير الإعصار، خذ»! واقتلع له حلية، وكاد ان يمزق جبته المزخرفة.

فاستشاط القس غضبا وتحول إلى وسط الساحة، ملتفتا خلفه للتأكد من ان لديه فضاء كافيا للمراوغات التي كان يحاول القيام بها، ثم تقهقر ليحمي ظهره بالنافورة.

وكان سان سافان يرقص حوله دون ان يهاجمه: «ارفع رأسك يا سيدي القسّ، وانظر إلى القمر، وفكر ان ربك لو أمكنه ان يجعل الروح خالدة لكان بإمكانه ان يجعل العالم لا متناهيا. ولكن لو كان العالم لا متناهيا، لكان كذلك في الزمان والمكان، ولكان إذن سرمديا، وعندما يكون هنالك عالم سرمدي، لا يحتاج لخلق تصبح فكرة الخالق عديمة الجدوى. يا للسخرية، يا سيدي القسّ، لو كان الرب لامتناهيا لما كان بالإمكان تحديد قدرته: لن يمكنه ابدا ان يكفّ عن الخلق، وسيكون العالم إذن لا متناهيا ؛ ولكن إن كان العالم لا متناهيا فذلك يعني انه لن يكون هنالك رب، كما انه بعد حين لن تكون هنالك زخارف على جبتك!» وأتبع القول بالفعل مقتلعا من جديد بعض الأشرطة التي كان القس يزهو بها، ثم انقص مسافة الحذر بينه وبين القس رافعا سيفه في

الهواء؛ وبينما كان القس يحاول النيل منه، سدد ضربة حادة إلى طرف سيف المنافس. وكاد السيف ان يسقط من يد القسّ، الذي ضغط بيسراه على نبضه المتوجع.

وصاح قائلا: «يجب في النهاية ان أذبحك، ايها الكافر، ايها المجدف، يا بطن الربّ،بجميع قديسي الفردوس الملعونين، بدم المسيح!»

في تلك الآونة فتحت النافذة، وأطل أحدهم صائحا بشيء ما. كان الحاضرون قد نسوا المهمة التي جاؤوا من أجلها، وأخذوا يطوفون حول المتبارزين، اللذين كانا يصيحان ويدوران حول النافورة، بينما كان سان سافان يفاجىء منافسه بضربات دفاعية في شكل دائرة وبضربات هجومية بطرف السيف.

في الأثناء كان يتهكّم قائلا: «لا تناد لنجدتك بأسرار التجسّد، يا سيدي القس. إن كنيستك الرومانية المقدسة علمتك ان كرتنا هذه المصنوعة من الطين هي نقطة المركز في الكون، وأن هذا الأخير يطوف حولها مثل الشاعر الموسيقي،عازفا لها ألحان الكواكب. حذار، لقد التصقت كثيرا بالنافورة، وبللت طرف جبتك، كعجوز مصاب بداء الحصى... ولكن ان كانت تدور في الفراغ الكبير عوالم لانهائية، كما قال فيلسوف عظيم أحرقه امثالك في روما، والكثير من تلك العوالم آهل بمخلوقات تشابهنا، وان كانت جميعها من خلق إلهك، ماذا نفعل إذن بالخلاص».

عندئذ صرخ القس قائلا: «بل قل ماذا سيفعل بك الرب، ايها الملعون!» وتفادى بصعوبة ضربة معصم مقلوبة.

ـ «ترى هل تجسّد المسيح مرة واحدة؟ واذن حصلت الخطيئة الأصلية مرة واحدة فوق هذا الكوكب؟ يا له من ظلم! إما أنه ظلم تجاه الآخرين، الذين حرموا من التجسيد، أم أنه ظلم تجاهنا نحن، بما انه

في هذه الحالة يكون البشر في جميع العوالم الأخرى كاملين مثلما كان أبوانا قبل الخطيئة، متنعّمين بحبور طبيعي دون أن يثقلهم حمل الصليب. أم ان أوادم لانهائيين ارتكبوا بصفة لانهائية الخطيئة الأولى، بعد ان اغوتهم حواءات لانهائيات بتفاحات لانهائية، ممّا اضطر المسيح إلى ان يتجسد، ويبشر ويتعذب على الصليب مرات لا نهاية لها، وربما يتواصل شقاؤه إلى الآن، وان كانت العوالم لانهائية فستكون مهمته أيضاً لا نهائية. مهمته لا نهائية، وأشكال عذابه لانهائية: فلو كانت هنالك وراء المجرة أرض اخرى اين يملك البشر ستّة سواعد، كما يوجد لدينا في الأرض المجهولة، لسمّر ابن الرب لا فوق صليب بل فوق لوحة في شكل نجمة ـ وهو شيء يبدو لي جديرا بكاتب كوميديات».

فصرخ القسّ وقد طار صوابه: «كفى، سأضع أنا حدا لكوميديتك أنت!» وارتمى على سان سافان مسدداً ضرباته الأخيرة.

وتصدى لها سان سافان بضربات مضادة ناجعة، ثم حدث شيء مفاجيء. بينما كان القس رافعا سيفه بعد ان واجه ضربة سابقة، تحرك سان سافان في محاولة لتسديد ضربة دائرية مقلوبة، وتظاهر بالسقوط إلى الأمام. وتراجع القس جانبيا، مؤملا ان يصيبه اثناء سقطته. الا ان سان سافان، الذي لم يفقد التحكم في ساقيه، انتصب واقفا بسرعة مذهلة، مرتكزا على يسراه المرشوقة في الأرض، بينما ومضت اليمنى نحو الأعلى: كانت تلك «ضربة النورس». وأصاب طرف السيف وجه القس، من قاعدة الأنف إلى الشفة، شاقا الشارب الأيسر.

كان القسّ يلعن مجدفا تجديفا لا يتجرّأ عليه حتى من كان أبيقورياً، بينما كان سان سافان يقف وقفة المحييّ، والحاضرون يصفقون تنويها بتلك الضربة الجريئة.

الا انه في تلك اللحظة بالذات، ظهرت في أسفل الشارع دورية اسبانية، ربما لفتت الضجّة انتباهها. وتلقائيا مدّ الفرنسيون ايديهم إلى

سيوفهم، وعندما رأى الإسبان ستّة أعداء شاهرين السلاح نادوا بالخيانة. وصوب احد الجنود بندقيته وأطلق النار. وسقط سان سافان على الأرض وقد اصيب في صدره. ورأى الضابط ان اربعة اشخاص، عوض ان يواصلوا القتال، هرعوا نحو الجريح وقد القوا بأسلحتهم، ونظر إلى القسّ فرأى وجهه مغطى بالدم وفهم انه شوّش مبارزة، فألقى أوامره إلى رجاله، واختفت الدورية.

وانحنى روبارتو على صديقه المسكين. «أرأيت»؟ قال له سان سافان وهو ينطق بصعوبة «أرأيت تلك الضربة يا لاغريف؟ فكّر فيها وتمرّن عليها. لا أريد ان يموت سرّها معي..».

فقال روبارتو باكيا: «سان سافان، يا صديقي، لا يجب ان تموت بهذه الطريقة السخيفة!»

- «سخيفة؟ لقد انتصرت على رجل سخيف وها أنا اموت فوق ساحة المعركة، وبرصاص العدو. لقد اخترت في حياتي ان اعيش باعتدال متبصّر... الإفراط في جدّية القول يجلب الملل. والإفراط في الهزل يجلب الاحتقار. والتفلسف دائما يجلب الحزن. والسخرية دائما تؤدي إلى المضايقة. لقد قمت بجميع الأدوار، حسب الأوقات والظروف، وكنت احيانا مهرّج البلاط. ولكن هذه الليلة، لو أنت أحسنت رواية هذه القصة، لما كانت ملهاة، بل مأساة جميلة. ولا تحزن على موتي، يا روبارتو»، ولأول مرة دعاه باسمه، «une heure après la mort, notre âme évanouie, sera ce que'elle estoit une heure avant la vie...*» أبيات جميلة، أليس كذلك؟.

ولفظ نفسه الأخير. وقرّر الآخرون بموافقة القس أن يختلقوا كذبة نبيلة، وقيل في المدينة ان سان سافان لقي حتفه في صراع مع بعض المرتزقة كانوا يحاولون الاقتراب من القلعة. وبكاه تواراس وجميع الضباط الآخرين كما يبكى الأبطال. وقال القس انه جرح اثناء

المواجهة، واستعدّ لقبول وظيفة ذات دخل عند عودته إلى باريس.

وهكذا خسر روبارتو في زمن قصير أباه، وحبيبته وصحته وصديقه، وربما أيضاً الحرب.

لم يجد عزاء في الأب ايمانويل الذي كان منشغلا جدا بمسار المفاوضات. وعاد إلى خدمة السيد دي تواراس، آخر من تبقى له من الأشخاص الذين ألفهم، يحمل أوامره ممّا جعل منه شاهدا على الأحداث الأخيرة.

في 13 سبتمبر وصل إلى القلعة مبعوثو ملك فرنسا، ودوق سافويا، والقائد مزاريني. حتى جيش الإنقاذ كان يتفاوض مع الإسبان. ومن غرائب ذلك الحصار ان الفرنسيين طلبوا هدنة لتمكينهم من الوصول في الإبان لإنقاذ المدينة ؛ وقبل الإسبان منح الهدنة لأن معسكرهم أيضاً، الذي اجتاحه الوباء، كان يعاني من ازمة حادة، فقد كثر الفارون من الجيش وسبينولا كان في الرمق الأخير. وفرض القادمون الجدد على تواراس تراتيب المعاهدة، التي تسمح له بمواصلة الدفاع عن «كزالي» بينما فعليا كانت «كزالي» قد سقطت: يبقى الفرنسيون في الحصن، تاركين المدينة والقلعة نفسها للإسبان، على الأقل إلى 15 من اكتوبر. ان لم يصل في حدود ذلك التاريخ جيش الإغاثة، يترك الفرنسيون موقعهم ذلك، منهزمين نهائيا. في الحالة الأخرى يعيد الإسبان اليهم المدينة والقلعة.

وتبعا لذلك، كان على القائمين بالحصار ان يمدّوا المحاصرين بالزاد. ليست هذه دون شك الطريقة التي في تصورنا يمكن ان يقام بها حصار في ذلك الوقت، ولكنها كانت الطريقة التي كان يراد بها في ذلك الوقت ان ينتهي. لم تكن حربا، كانت مثل لعبة النرد، حيث تتوقف اللعبة عندما يذهب احد المتنافسين ليبول. أو مثل الذي يراهن على الجواد الغالب. والجواد هو ذلك الجيش، الذي كان عدده يزداد كل يوم

أكثر في الأذهان بدافع الأمل، ولكن لا أحد رآه إلى ذلك الحين. كانت الحياة تتواصل في «كزالي»، وفي «الحصن»، كما كانت تتواصل فوق دافني: وهو يتخيّل جزيرة بعيدة، بينما الدّخلاء في البيت.

وإن كان سلوك طليعة الجيش الإسباني سلوكا مرضيا، فقد دخل الآن إلى المدينة جلّ الجيش، وصار الكزاليون يواجهون الآن جماعات من المتوحشين يسلبون كل ما يقع تحت ايديهم ويغتصبون النساء ويعنفون الرجال وينغمسون في متع الحياة بعد شهور عديدة قضوها في الغابات والحقول. والشيء الوحيد الذي لم يكن ينقص المحتلّين ولا الذين وقع احتلالهم ولا اولئك المسجونين في الحصن هو الوباء.

في 25 سبتمبر ذاع خبر موت سبينولا. فشاع الفرح بين الموجودين في الحصن، وعمّت البلبلة في معسكر المنتصرين، الذين تيّتموا مثلما تيّتم روبارتو. كانت اياما احلك من تلك التي قضاها على متن دافني، إلى يوم 22 اكتوبر عندما وصل خبر اقتراب جيش الإغاثة، الذي كان بلغ «أستي». وشرع الإسبان في تسليح القلعة، وفي تصفيف المدافع على ضفاف نهر «بو»، دون احترام المعاهدة (كما كان يقول تواراس وهو يجدّف)، التي تنصّ على انسحابهم من «كزالي» اذا ما وصل جيش الإغاثة. ولفت الإسبان، على لسان السيد دي سالزار، نظر الفرنسيين إلى ان المعاهدة تحدد تاريخ 15 اكتوبر كأقصى حدّ، وأنه كان على الفرنسيين ان يتركوا الحصن منذ أسبوع.

في 24 اكتوبر من أعلى اسوار الحصن لوحظت تحركات كبيرة في جيش العدوّ، وتهيأ تواراس بمدافعه لمساعدة الفرنسيين القادمين ؛ في الأيام الموالية بدأ الإسبان في شحن امتعتهم على النهر لإرسالها إلى «اليساندريا»، وكان لهذا وقع حسن على اهالي الحصن. الا ان العدوّ فوق النهر بدأ يهيىء لصنع جسور يستعملها في حالة انسحابه. ولم يستحسن تواراس هذه العملية فأخذ يرميهم بمدافعه. وكردّ فعل اوقف الإسبان جميع الفرنسيين الموجودين في المدينة، أما عن وجودهم إلى

ذلك الحين في المدينة فأعترف ان ذلك أمر استعصى علي فهمه، ولكن هذا ما أورد روبارتو، وصرت مستعدا لقبول كل الاحتمالات من ذلك الحصار.

كان الفرنسيون على مقربة، وكان الجميع على علم بأن مزاريني يعمل ما في وسعه للحيلولة دون مواجهة الجيشين، بتفويض من البابا. كان يتنقل من معسكر إلى آخر، ثم يعود للتفاوض في دير الأب إيمانويل، ليذهب من جديد على جواده حاملا اقتراحات طرف إلى الطرف الآخر. كان روبارتو يراه دائما وفقط من بعيد، قد غشاه الغبار، لا يبخل على أحد بتحيّة من قبعته. في الأثناء كان الطرفان متوقفين، لأن من يقوم منهما بالحركة الأولى سيمنى حتما بفشل ذريع. إلى حدّ ان روبارتو تساءل ان لم يكن جيش الإغاثة من ابتكار ذلك القائد الشاب، الذي بعث نفس الحلم في القائمين بالحصار وفي المحاصرين.

وفعلا منذ شهر يونيو كان المنتخبون الإمبراطوريون يجتمعون في «راتيسبونا»، وأرسلت فرنسا سفراءها، ومن بينهم الأب جيوزيبي. وبينما كانت تقع قسمة المدن والجهات، وصلت الأطراف إلى اتفاق حول «كزالي» منذ 13 اكتوبر. وعلم مزاريني مبكرا بذلك، كما قال الأب إيمانويل لروبارتو، ولم يبق الا اقناع الطرفين، سواء من كانوا في الطريق أو اولئك الذين كانوا ينتظرونهم. وبلغت الإسبان أخبار عديدة، ولكنها متناقضة ؛ وكان الفرنسيون هم أيضاً على علم ببعض الشيء، ولكنهم كانوا يخشون ان لا يكون ريشليو موافقا ـ وفعلا لم يكن موافقا، ولكن منذ تلك الأيام كان الكاردينال المقبل مزارينو يعمل ما في وسعه لتذهب الأمور حسب مشيئته ودون علم ذلك الذي سيصير من بعد ظهيره.

كانت الأمور على هذا النحو عندما تقابل الجيشان في 26 اكتوبر. عند المشرق على خط الهضاب ناحية «فراسّينيتو»، تمركز الجيش الفرنسي؛ وقبالته، على شمال النهر، في السهل الممتد بين الهضاب

والأسوار، وقف الجيش الإسباني، الذي كان تواراس يرميه بالمدافع من الخلف.

كانت تخرج من المدينة عربات حربية تابعة للعدو، وجمع تواراس ما تبقى لديه من الفرسان وأرسلهم خارج الأسوار، ليسدّوا الطريق أمامها. وتوسل روبارتو كي يتركوه يشارك في العملية، ولكن طلبه قوبل بالرفض. وصار الآن يحس بنفسه وكأنه فوق سفينة، لا يستطيع النزول منها، ويشاهد جزءا كبيرا من البحر ومرتفعات جزيرة منعوه من بلوغها.

وفجأة سمعت طلقات نارية، ربما التقت الوحدات المتقدمة من الجيشين: وقرر تواراس القيام بخرجة، ليشغل جند جلالته الكاثوليكية على جبهتين. كانت الوحدات على وشك الخروج من الأسوار، عندما شاهد روبارتو من أعلى الأسوار، فارسا أسود كان يجول بين الجيشين على خطّ النار، دون خوف من الطلقات الأولى، وهو يلوّح بورق صائحا ـ كما روى له الحاضرون ـ «السلام، السلام!».

كان ذلك الفارس هو القائد مزاريني. خلال تنقلاته الأخيرة بين الطرفين، توصل إلى اقناع الإسبان بقبول اتفاقات «راتيسبونا». لقد انتهت الحرب. وبقيت «كزالي» لنيفارس، وتعهد الفرنسيون والإسبان بتركها. وبينما كانت الجموع تتفرق، قفز روبارتو على صهوة جواده المخلص «بانيوفلي» وجرى إلى موقع المواجهة التي لم تقع. وشاهد النبلاء في شكاتهم المذهبة وهم منصرفون إلى التحيات المعقدة، والمجاملات، والخُطا الراقصة، بينما كانت تعدّ الطاولات الصغيرة التي أمكن العثور عليها لإمضاء الاتفاقيات.

في اليوم الموالي شرع الجميع في مغادرة المكان، سبق الإسبان ثم تبعهم الفرنسيون، ولكن في شيء من الفوضى، مع لقاءات عرضية، وتبادل للهدايا، وسط عبارات الصداقة، بينما في المدينة كانت تتعفن تحت الشمس جثث الموبوئين، ويتعالى نحيب الأرامل، وبعض

البورجوازيين وجدوا انفسهم أكثر مالا من ذي قبل وأكثر مرضا بالزهري من ذي قبل، مع أنهم لم يضاجعوا إلاّ زوجاتهم.

وحاول روبارتو أن يعثر على فلاّحيه، ولكن لا أحد كان يعرف شيئا عن جيش لاغريف. ربما مات بعضهم من جراء الوباء، وتشتت الآخرون. وفكر روبارتو انهم ربما عادوا إلى ديارهم، وقد يكونون أعلموا أمه بوفاة أبيه. وتساءل ان لم يكن من واجبه ان يكون بجانبها في هذه الفترة، ولكنه كان لا يفهم جيدا أين واجبه.

من الصعب أن نقول ما الذي زعزع عقيدته أكثر: العوالم الصغيرة إلى ما لا نهاية له أو الكبيرة إلى ما لا نهاية له، السابحة في فراغ ليس فيه رب ولا قاعدة، التي حدثه عنها سان سافان، أم الدروس في الحذر التي لقنه اياها دي ساليتا وسالزار، أم فن الأعمال البطولية التي تركها له الأب ايمانويل كعلم وحيد.

من الطريقة التي كان يذكر بها كل ذلك على دافني أظن انه عندما كان في «كزالي»، وحين فقد اباه وهويته في حرب ذات معان عديدة ودون أيّ معنى، تعلّم روبارتو ان ينظر إلى العالم الكوني كشبكة غير آمنة من الألغاز، لم يعد يوجد وراءها «مؤلف» ؛ او، إن كان موجودا، فهو تائه في اعادة صنع نفسه من زوايا تكاثر عددها.

وإن تراءى لذهنه في ذلك الحين ان العالم لا يملك نقطة دائرة، بل هو فقط خطوط دائرية، فقد كان آنذاك يحس بنفسه حقيقة في أبعد تلك الخطوط؛ لأنه، لو كانت هناك نقطة دائرة، فهي أمامه، وهو ليس الاّ كوكبها الجامد.

15

ساعات (البعض منها نائسة)

أظن انه لهذا الأمر تحدّثت منذ مائة صفحة على الأقل عن أحداث عديدة سبقت الغرق والنجاة فوق دافني، دون أن أجعل أحداثا تقع على دافني نفسها. وإن كانت الأيام فوق سفينة مهجورة أياما فارغة، فلست أنا السبب في ذلك، اذ لا أدري إلى الآن ان كانت هذه القصة تستحق ان تدوّن، كما ان اللوم ليس على روبارتو. على الأكثر، ما يمكن ان نعيب على روبارتو هو انه قضى يوما كاملا (بين أمر وآخر لم تمض اكثر من ثلاثين ساعة منذ ان تفطن إلى ان أحدهم سرق البيض) وهو يبعد عن فكره الاحتمال الوحيد الذي ربما سيجعل اقامته اكثر تشويقا. وكما اتضح له بعد فترة وجيزة، كان من العبث ان يتصور دافني سفينة بريئة. فوق ذلك المركب كان يطوف، أو يختبىء شخص أو شيء بخلاف شخصه هو. حتى فوق تلك السفينة ليس بإمكانه ان يتصوّر حصارا صرفا. العدوّ يوجد في الداخل.

كان عليه ان يرتاب منذ ليلة عناقه للخرائط. عندما عاد إلى وعيه أحس بالعطش. كانت الغرفة فارغة، فذهب للبحث عن برميل من الماء. تلك التي وضعها لجمع ماء المطر كانت ثقيلة، ولكن براميل اخرى أصغر حجما كانت توجد في المخزن. ذهب إلى هنالك، وأخذ اول برميل كان في متناول يده ـ عندما فكر في ذلك من بعد، اعترف انه كان

في متناول اليد بصفة مفرطة ـ وعندما بلغ الحجرة، وضعه على الطاولة، والصق فمه بالحنفية.

لم يكن ماء، وعندما سعل تفطن إلى ان البرميل كان يحوي عرقا. لم يكن يدري عرق ماذا، ولكن خبرته بالفلاحة جعلته يجزم بأنه ليس ماء عنب. ووجد طعم الشراب مستساغا، فأفرط منه وقد ملأه حبور مفاجىء. لم يمر بخاطره انه لو كانت جميع البراميل الصغيرة في المخزن مثل ذلك البرميل، فعليه ان ينشغل بخصوص مؤونته من الماء العذب. كما انه لم يتساءل كيف انه في الليلة الثانية شرب من البرميل الأول في المخزن ووجده مليئا بالماء العذب. ولم يتيقن الا من بعد ان شخصا وضع، بعد البرميل الأول، تلك الهدية الغادرة في متناول يده حتى يأخذها دون غيرها. شخص يريده في حالة سكر، ليخضعه لإرادته. ولكن ان كانت هذه هي الخطة فروبارتو قد تجاوب معها بحماس كبير. لا أظن انه شرب قدرا كبيرا ولكن بالنسبة إلى مبتدىء مثله فبعض الأقداح كافية ان لم نقل فوق ما يلزم.

وما يتبع من هذه القصة يجعلنا نستنتج ان روبارتو عاش الأحداث الموالية في حالة متغيّرة، وانه ظل على هذه الحالة في الأيام الموالية.

وكما يقع عادة للسكارى، غلبه النوم، ولكن عذاب العطش أصبح أكثر حدة. في هذه الغفوة المضنية عادت إلى فكره صورة أخيرة من «كزالي». قبل مغادرة المدينة ذهب لتحية الأب ايمانويل ووجده منكباً على تفكيك ولف آلته الشعرية، للعودة إلى «تورينو». ولكنه، بعد ان ترك الأب ايمانويل، اعترضت طريقه العربات التي كان الإسبان يكومون فوقها قطع آلاتهم الحربية.

كانت تلك العجلات المسننة تملأ حلمه: كان يسمع احتكاك مغالق، وصرير محاور، وكانت اصواتا لا يمكن هذه المرة ان تكون قد أحدثتها الريح، اذ ان البحر كان ساكناً كالزيت. وضايقه ذلك، كمن يستفيق وهو يحلم انه في حلم، وأجهد نفسه ليفتح عينيه، فسمع من

جديد ذلك الصوت، آتيا اما من تحت السطح أو من قاع السفينة.

عندما نهض أحسّ بوجع كبير في رأسه. وحتى يداويه لم يجد افضل من ان يشرب من جديد من البرميل وعندما تركه أحسّ بنفسه أسوأ من ذي قبل. تسلّح، بعد ان أخطأ مرّات عديدة في شدّ الموسى إلى حزامه، ورسم عدّة مرات علامة الصليب ثم نزل وهو يترنّح.

تحته، كما كان يعرف ذلك، كان يوجد مقبض الدفة. نزل أكثر، إلى ان انتهى السلم: لو اتجه نحو الجؤجؤ، لوجد نفسه في الحديقة. نحو الكوثل كان يوجد باب لم يسبق له أن فتحه. من ذلك المكان كانت تأتي، بضجة أصبحت الآن كبيرة، طقطقة متنوعة وغير متساوية، كأنها ايقاعات متعددة متراكبة، كان يميز من بينها احيانا «تك، تك»، احيانا «توك،توك» واحيانا «تاك،تاك»، وجمليا كان صوتا يقول «تيكتيك ـ توك ـ تاكتاك ـ تيك». كما لو كانت وراء ذلك الباب مجموعات من الزنابير والطنانين، في طيران هائج ومدارات مختلفة، تصطدم بالحواجز وتتراجع لتصطدم ببعضها البعض. وكان يخشى لو فتح الباب ان تهاجمه الذرات المجنونة التي تسكن تلك الخليّة.

بعد تردد طويل صمّم، وبظهر البندقية كسر قفل الباب ودخل.

كان المخزن يتلقى النور من كوة أخرى، ويؤوي ساعات.

ساعات عديدة: ساعات مائية، ساعات رملية، مزولات موضوعة قرب الجوانب، ولكن أغلبها كانت ساعات ميكانيكية موضوعة فوق رفوف مختلفة وصناديق، ساعات تحركها مثاقيل تصعد وتنزل ببطء، أو تحركها عجلات مسننة تقضم عجلات اخرى، وهذه بدورها تعض اخرى، إلى ان تصل إلى عجلة اخيرة تشد على شفرتين غير متساوتين لقضيب عمودي، وتديرهما نصف دورة في اتجاهين معاكسين، وبهذه الرقصة الفاحشة كانت تحرك قضيبا افقيا مشدودا إلى الطرف الأعلى؛ وساعات ذات زنبرك فيها مخروط مخدّد يكرّ سلسلة صغيرة، تجذبها

حركة دائرية لبرميل صغير كان يتمكن منها زريدة بعد زريدة.

كانت بعض تلك الساعات تخفي دولابها وراء زخرف قد التهمه الخز أو وراء اعمال منحوتة متآكلة، ولا تظهر الا حركة عقاربها البطيئة ؛ ولكن اغلبها كانت تكشف اسنانها الحديدية، وتذكر برقصات الموت حيث الشيء الوحيد الحيّ هو الهياكل المكشرة التي تحرك منجل الزمان.

كانت جميع تلك الساعات في حركة، تلك الرملية الكبيرة الحجم كانت لا تزال تنفث الرمل، والصغيرة كانت تكاد تكون مليئة في شطرها الأسفل، أما البقية فكنت لا تسمع الا صرير أسنان، ومضغا مربوءاً.

كان يبدو لمن يدخل لأول مرة ان تلك المجموعة من الساعات كانت تمتد إلى ما لا نهاية له: كان قاع الحجرة مغطى برسم يمثّل تتابعا لحجرات تسكنها ساعات أخرى. ولكن حتى بعد التحرر من ذلك السحر، إزاء تلك الساعات الحقيقية، من لحم ودم ان اردنا، كان هناك ما يبعث على الدهشة.

قد يبدو ذلك غريبا ـ بالنسبة اليكم أنتم الذين تقرأون هذه الواقعة بتجرد ـ ولكن غريقا، وسط ضبابات الخمر وفوق سفينة مهجورة، عندما يجد مائة ساعة تقص بتساوق تاريخ زمنه اللامتناهي، سيفكر في القصة قبل ان يفكر في مؤلفها. وهذا ما فعل روبارتو، تأمل في تلك الأُلهيات واحدة بعد الأخرى، كأنها لعب تتسلى بها مراهقته الخرفة هو المحكوم عليه باحتضار لا ينتهي أمده.

ولمع البرق في خاطره من بعد، كما كتب روبارتو، عندما خرج من ذلك الكابوس واتضحت لديه ضرورة ان يجد علة لكل ذلك: فإن كانت جميع الساعات تعمل، فذلك يعني ان أحدا شغلها: حتى وان كان تشغيلها قد صمّم ليدوم طويلا، وحتى وان شغلت قبل وصوله، فقد كان عليه ان يسمعها قبل ذلك عندما مرّ بالقرب من ذلك الباب.

لو كان الأمر يتعلق بآلية واحدة لفكّر انها متهيأة للتشغيل ويكفي

في هذه الحالة ان يعطيها أحد حركة الإنطلاق؛ وربما آنذاك انطلقت بفعل حركة السفينة، أو ان طائرا بحريا دخل من الكوة وحطّ على رافعة، أو على مساك، محدثا سلسلة من الحركات الميكانيكية. الا تحرك الريح احيانا اجراس الكنائس، ولم يحدث أحيانا ان عادت إلى الوراء، من تلقاء نفسها، اغلاق لم تدفع إلى نهاية دورتها؟

ولكن لا يمكن لطائر ان يشغل بضربة واحدة عشرات الساعات. كلا. بقطع النظر عن وجود فيرّانتي ام لا، فعلى السفينة يوجد دخيل، ما في ذلك شك.

هذا الأخير دخل إلى المخزن وشغل جميع آلياته. السؤال الأول هو ما الذي دفعه إلى ذلك، ولكن ما يهم أكثر هو اين اختبأ بعد ذلك.

يجب إذن ان ينزل إلى قاع السفينة: كان روبارتو يقول لنفسه انه لا مفرّ من ذلك، ولكنه بينما كان يعيد على نفسه عزمه القار، كان يؤخر انجازه. فهم انه لا يتحكم في نفسه تماما، صعد إلى سطح السفينة وبلّل رأسه بماء المطر، وبعد ان تلاشى الضباب من ذهنه تهيأ للتفكير حول هوية الدخيل.

لا يمكن ان يكون همجيا من سكان الجزيرة، ولا بحارا بقي على قيد الحياة، والا حاول القيام بشيء ما (ان يهاجمه في وضح النهار، أو يقتله اثناء الليل، أو يطلب العفو) ما عدا إطعام الدجاج وتشغيل آليات. من يختبىء فوق دافني هو إذن رجل مسالم ومن اصحاب العلم، ربما هو ساكن غرفة الخرائط. إذن ـ ان كان موجودا، وبما انه كان موجودا قبل وصوله ـ فهو دخيل شرعي. ولكن هذه النقيضة الجميلة لم تخفف من قلقه الغاضب.

ان كان الدخيل شرعيا، فلماذا يختبىء خوفا من روبارتو اللامشروع؟ وان كان يختبىء، لماذا يفضح وجوده بتخطيط ذلك الحفل الساعاتي؟ ربما كان رجلا ذا عقل منحرف، يخاف منه ويعرف نفسه

عاجزا عن مواجهته، يريد القضاء عليه عن طريق الجنون؟ ولكن ما نفعه من ذلك، بما انه هو أيضاً غريق فوق تلك الجزيرة الاصطناعية، ولا يمكن الا ان يستمد نفعا من موالاة رفيق في البؤس؟ كان روبارتو يقول في نفسه ان دافني ربما كانت تخفي أسرارا أخرى لا يريد الآخر ان يكتشفها أحد.

إذن جواهر وذهب، وجميع ثروات الأرض المجهولة، أو ثروات جزر سليمان التي حدثه عنها كولبار...

وكان ان حدث لروبارتو مثل الوحي عندما تذكر جزر سليمان. هو ذاك، دون شك، الساعات! ماذا تفعل كل تلك الساعات فوق سفينة تجوب البحار حيث الصباح والمساء يعرّف بهما مجرى الشمس، ولا حاجة لغير ذلك؟ لقد وصل الدخيل إلى ذلك الإستوائي النائي ليبحث هو الآخر، مثل الدكتور بيرد، عن el Punto Fijo! الأمر هو دون شكّ على هذا النحو. ومن غريب الصدف ان روبارتو، الذي انطلق من هولندا، جاسوسا في خدمة الكاردينال، ليتبع تحركات سرية لرجل انجليزي يسافر خفية أو يكاد فوق سفينة هولندية، بحثاً عن الـ«punto fijo»، يجد نفسه الآن فوق سفينة (هولندية) تابعة لشخص آخر، لا يدري احد من أي بلد كان قادما، ومنكبّ هو الآخر على اكتشاف نفس السرّ.

16

حديث حول مسحوق الانجذاب

كيف حشر نفسه في تلك الخديعة؟

لا يكشف روبارتو الا قليلا عمّا حدث في السنوات الواقعة بين عودته إلى «لاغريف» ودخوله المجتمع الباريسي. من اشارات متفرقة يتضح انه بقي بجوار امه يساندها إلى حدود سنّ العشرين، متحاورا عن كره مع المزارعين بخصوص البذر وجمع المحاصيل. وما ان تبعت أمه إلى القبر أباه، حتى اكتشف روبارتو نفسه غريبا عن ذلك العالم. ما يدلّ على ذلك انه عهد بممتلكاته إلى احد اقربائه، مقابل إيراد لا بأس به، وأخذ يجوب العالم.

كان قد بقي على اتصال بشخص معروف في «كزالي»، كان يحثّه على توسيع معارفه. لا أدري كيف وصل إلى «اكس أن بروفانس»، ولكن من المؤكد انه ذهب إلى هنالك، بما انه يذكر بشوق سنتين قضّاهما قرب أحد النبلاء أصيل تلك البقاع، مطّلع على كل العلوم ويملك مكتبة ثرية لا فقط بالكتب بل وأيضاً بالتحف الفنية، والآثار القديمة والحيوانات المقششة. وربما يكون قد تعرّف لدى مضيفه على ذلك الأستاذ، الذي يسميه دائما بإجلال «قسّ دينيو»، ويدعوه أحيانا «le doux prêtre». وبرسائل من قبله تمكن اخيرا، في تاريخ غير محدد، من مواجهة باريس.

هنا اتصل فورا بأصدقاء القسّ، وسمح له بالتردد على احد الأماكن الأعلى مقاما في المدينة. كان يذكر دائما صالون الأخوين دوبوي ويتحدث عنه كمكان كانت فيه آفاق فكره تتّسع كل مساء، صحبة رجال ذوي علم. ولكنني أجد أيضاً ذكراً لصالونات أخرى كان يتردد عليها في تلك السنوات، تزينها مجموعات من الميداليات، والخناجر التركية، والعقيق، والندر الرياضية، وأصداف من الهند...

في أي وسط من الأوساط كان يطوف في ربيع أو في أوائل صيف عمره البهيج؟ في هذا الخصوص تخبرنا الاستشهادات المتكررة لتعاليم تبدو لنا في الحقيقة متنافرة. كان يقضي ايامه يتعلم عن القسّ كيف يتصور عالما متكوّنا من الذرات، حسب تعليم ابيقور، ومع ذلك فقد أرادته وسيّرته العناية الإلهية؛ ولكنه، مستجيبا لنفس حبه لأبيقور، كان يقضي الأمسيات صحبة رفاق يقولون عن انفسهم انهم أبيقوريون، ويحسنون تناوب التماش من سرمدية العالم إلى معاشرة سيدات جميلات وخليعات.

غالبا ما يذكر زمرة من الرفاق خليّ البال ولكنهم وإن كانوا في سن العشرين فقد كانوا لا يجهلون ما كان بعضهم يتفاخر بمعرفته في سن الخمسين، لينيار، شبال، داسوسي، فيلسوف وشاعر يطوف متقلدا مزهرا، بوكلان الذي كان يترجم لوقريتيوس ولكنه يحلم ان يصبح مؤلف كوميديات غنائية، هرقل سافينيانو، الذي قاتل ببسالة في حصار «أرّاس»، كان يؤلف خطابات غرامية لمعشوقين خياليين ويظهر ألفة عاطفية مع شبان من النبلاء، متباهياً بأنه اصيب من جرّائهم بالمرض الإيطالي ؛ ولكنه في الوقت نفسه كان يسخر من رفيق في الفجور «qui se plaisoit a l'amour des masles»، وكان يقول متهكما انه ينبغي ان يعذروا خجله، الذي كان يضطره إلى الاختفاء وراء اكتاف اصدقائه.

بعد ان رأى نفسه مقبولا في ذلك المجتمع من ذوي الفكر القوي، صار ـ إن لم نقل عالما ـ لا يطيق التفاهة، التي كان يلاحظها سواء في

نبلاء البلاط، أو في بعض البرجوازيين الأثرياء الذين يعرضون في نظام جميل صناديق فارغة مجلدة بسختيان مشرقي، نقشت على ظهرها بأحرف ذهبية أسماء كبار المؤلفين.

بإيجاز دخل روبارتو دائرة اولئك الأشخاص المعتبرين «honnêtes gens» الذين، وان كانوا لا ينتمون إلى نبالة الدم فقد كانوا مع ذلك من النبالة المسمّاة بـ«noblesse de robe»، ويمثلون خيار أناس ذلك العالم. ولكنه كان شابا، متشوقا إلى تجارب جديدة، وبالرغم من علاقاته العلمية وخرجاته الفاجرة، فقد كان يؤثر فيه سحر النبالة.

بقي مدة طويلة يتأمل من الخارج، عندما يتنزه في المساء عبر شارع سان توماس دي لوفر، قصر رومبوييّ، بواجهته الجميلة المزدانة بالشرفات، والنقوش، والأقواس والأعمدة، في تداول بين الآجر الأحمر، والحجر الأبيض والأردواز القاتم.

كان ينظر إلى النوافذ المنارة، ويرى الأضياف يدخلون، ويتصور جمال الحديقة الداخلية، ويتخيل أجواء ذلك البلاط الصغير الذي كانت باريس بأجمعها تتباهى به، أسّسته سيدة ذات ذوق رَفيع، كان قد بدا لها ذلك البلاط الآخر قليل الظرف، خاضعا لأهواء ملك عاجز عن تذوق دقائق الفكر.

وخمّن روبارتو في نهاية الأمر انه كزائر قادم من وراء الألب سيحظى بقبول حسن من قبل سيدة نشأت من أمّ رومية، من سلالة أعرق من روما نفسها، تعود إلى عائلة من «ألبا لونغا». وليس من الصدف، انه قبل ذلك بخمس عشرة سنة تقريبا، أنار الفارس مارينو للفرنسيين،بينما كان ضيف شرف في تلك الدار، مسالك الشعر الجديد الذي اضمحلّ أمامه فن القدامى.

وتمكن من دخول ذلك المعبد من الأناقة والفكر، الحافل بالنبلاء والسيّدات أو «precieuses» (كما كان يقال في ذلك الوقت)، وبعلماء لا

يعرفون التحذلق، وبظرفاء بعيدين عن الفسق، وبمرحين دون سوقية، وبصفائيين لا تنالهم السخرية. كان روبارتو يجد راحته في ذلك الجو: كان يبدو له انه باستطاعته ان يتنفس هنالك هواء المدينة الكبيرة والبلاط دون عناء الالتزام بقواعد الحذر التي لقنه إياها في «كزالي» السيد دي سالزار. فما كان عليه ان يستجيب لإرادة أحد من ذوي النفوذ، بل كان عليه ان يظهر تفرّده. لا ان يخفي، بل ان يتبارى ـ مع إتباع بعض قواعد الذوق ـ مع من هو أفضل منه. وما كان عليه ان يبدي الممالقة، بل التجاسر، وان يظهر مهارته في تناول الحديث بذكاء وأدب، وان يعبر برقة عن افكار عميقة... لم يكن يشعر بنفسه خادما بل مبارزا، مطالبا ان يظهر كل جسارته الفكرية.

كان يعوّد نفسه على تفادي التكلف، ويعنى في كل شيء بإخفاء الجهد والصعوبة، حتى يبدو ما يفعله أو ما يقوله هبة تلقائية، محاولا ان يصبح استاذا في ما يسمونه في ايطاليا بالطلاقة المستخفّة، وفي اسبانيا بـ «despejo».

كان متعودا على فضاءات «لاغريف» العابقة بالخزامى، وعندما دخل قصر أرتينيس صار روبارتو الآن يتحرك وسط قاعات تفوح دائما بعطور باقات لا يحصى عددها، كما لو كان الفصل دائما ربيعا. في المنازل النبيلة القليلة التي عرفها كانت القاعات منقسمة يفصل بينها مدرج وسطي؛ لدى أرتينيس وضعت المدارج في زاوية عند آخر الساحة، حتى يكون الباقي مجموعة من القاعات والصالات، ذات أبواب ونوافذ عالية، يواجه أحدها الآخر؛ ولم تكن القاعات كلها ملونة بالأحمر المملّ، أو في لون الجلد المدبوغ، ولكنها كانت ذات ألوان مختلفة، والغرفة الزرقاء، غرفة المضيفة، كانت جدرانها مغطاة بمخمل في ذلك اللون، موشحا بالذهب والفضة.

كانت أرتينيس تستقبل أصدقاءها مستلقية في غرفتها، وسط أحجبة وستائر سميكة تقي ضيوفها من البرد: كانت لا تطيق لا نور الشمس ولا

حرارة المواقد. النار وضوء النهار كانا يسخنان دمها في عروقها ويسببان لها فقدان الوعي. وقع مرة ان نسوا موقدا تحت فراشها، فأصيبت بالتهاب الجلد. كانت مثل تلك الأزهار، التي للاحتفاظ بنضارتها، لا تتحمل ان تكون دائما معرضة للنور أو للظل، وتحتاج ان يوفر لها الجنّان فصلا خصوصيا. كانت أرتينيس متحفظة، تستقبل ضيوفها وهي في فراشها، وساقاها في كيس من جلد الدب، وتغطي رأسها بالعديد من قلنسوات النوم حتى انها كانت تقول بكثير من الظرافة انها تأتي صمّاء في سان مارتينو وتستعيد سمعها في عيد الفصح.

ومع ذلك، حتى وان لم تكن صغيرة السنّ، فقد كانت تلك المضيفة صورة من اللطافة، قامتها طويلة متناسقة، وملامح وجهها رائعة. لا يمكن وصف النور الذي يشع من عينيها، فقد كان لا يدفع إلى أفكار غير لائقة بل يوحي بحب تتخلله الخشية، مطهرا تلك القلوب التي أضرمها.

في تلك القاعة كانت المضيفة تدير، دون ان تفرض نفسها، أحاديث حول الصداقة أو الحب، ولكنها كانت تتناول بنفس الظرف مسائل في الأخلاق والسياسة والفلسفة. كان روبارتو يكتشف خصال الجنس الآخر من خلال تعابيرهنّ الأكثر رقة، ويعشق من بعيد أميرات بعيدات المنال مثل الآنسة الجميلة بولي التي تدعى «اللبؤة» لشعرها الغزير، وسيدات كن يعرفن كيف يجمعن بين الحسن وذلك الفكر الذي كانت الأكاديميات البالية تنسبه فقط إلى الرجال.

بعد سنوات قليلة قضاها في تلك المدرسة اصبح جاهزا لملاقاة السيّدة.

رآها لأول مرة ذات مساء وقد بدت في ثوب داكن، متحجبة كقمر خجول يتدارى وراء مخمل السحب. «Le bruit»، ذلك الشكل الوحيد الذي كان في المجتمع الباريسي يقوم مقام الحقيقة، أخبره عنها بأشياء

متناقضة، من انها كانت تعيش ترمّلاً قاسياً، لا لموت زوج، بل لفقدان حبيب، وكانت تعلن ذلك الفقدان بمباهاة كبيرة لتؤكد سيادتها على الكائن المفقود. وهمس أحدهم في أذنه انها تخفي وجهها لأنها كانت مصرية ساطعة الجمال، قدمت من بلاد العرب.

لا يهم اين كانت الحقيقة، اذ أن روبارتو، من حركة ثوبها، وخطاها الخفيفة وسرّ وجهها الخفي، وهبها قلبه. كان يضيء بتلك العتمات الساطعة، ويتصورها طيراً فجرياً من كائنات الليل، ويرتعد امام السحر الذي يجعل النور قاتما والعتمة ساطعة، والحبر حليبا والأبنوس عاجا. كان العقيق يسطع في شعرها، والنسيج الرهيف الذي يوحي،بملامح وجهها وجسدها، بينما كان يخفيهما، كان فضيا مثل ضياء النجوم.

الا أنه بصفة فجائية، وفي ليلة لقائهما الأول بالذات، سقط الحجاب لحظة عن جبينها وتمكن من رؤية شعاع عينيها العميق تحت ذلك الهلال القمري. قلبان يتبادلان النظر ويقولان ما لا تستطيع قوله في يوم كامل لغات العالم ـ هكذا كان روبارتو يهنىء نفسه، وهو متأكد انها نظرت اليه، وانها رأته. وعندما عاد إلى البيت كتب اليها.

«سيدتي،

ان النار التي اضرمتِها فيّ ترسل دخانا هو من الرقة بحيث لا يجعلك تنكرين انه بهرك متعلّلة بتلك الأبخرة المسودّة.ان قوة نظرك وحدها اسقطت من يدي كل اسلحة الكبرياء ودفعتني إلى التوسّل اليك ان تطلبي مني حياتي. ان كل ما فعلته من اجل نصرتك، أنا الذي بدأت القتال كمن يريد ان يخسر المعركة، معرضا لهجماتك اضعف جزء من جسدي، قلبا يبكي دموعا من الدم، يدل على انك افرغت بيتي من الماء حتى يصبح فريسة لحريق كانت التفاتتك الوجيزة هي الطعم الذي شبكه!»

ووجد الرسالة مطابقة بصفة رائعة لقواعد آلة الأب ايمانويل الأرسطوطاليسية، مما يجعلها خليقة بأن تكشف للسيدة طبيعة الشخص الوحيد القادر على عواطف في تلك القوة، حتى انه لم ير ضروريا ان يمضيها. لم يكن يعرف إلى ذلك الحين ان الحسان يجمعن رسائل الحب كما لو كانت خيوط حرير ومشابك، تهمّهن معانيها اكثر من كاتبيها.

لم يحصل في الأسابيع والأشهر الموالية على اشارة تفيد الجواب. في الأثناء تركت السيدة في بادىء الأمر الأثواب القاتمة، ثم الحجاب، وبدت له أخيرا في بياض بشرتها غير الإفريقية، وفي جدائل شعرها الشقراء، وفي شعاع حدقيتها اللتين كفتا عن الهروب، وبدتا كنافذتين يلوح منهما الفجر.

ولكنه الآن عندما اصبحت انظاره تتلاقى بحرية بأنظارها، كان يعرف انه يلتقط نظراتها بينما كانت موجهة إلى غيره؛ وكانت تسعده موسيقى كلمات لم تكن موجهة اليه. لم يكن يستطيع العيش الا في نورها، ولكنه كان محكوما عليه ان يبقى في ظل جسم آخر كان يمتصّ شعاعها.

ذات مساء استرق سمعه اسمها، عندما سمع احدهم يدعوها ليليا ؛ كان دون شك الإسم النفيس لتلك النفيسة، وكان يعرف جيدا ان تلك الأسماء كانت تعطى بدافع اللهو: المركيزة نفسها اتخذت اسم Arthenice بعد صياغة جناسية تصحيفية لإسمها الحقيقي - Catherine ويقال ان اساتذي ذلك الفنّ التركيبي، راكان وملارب، ابتدعا أيضاً Eracinthe و Carinthe. ومع ذلك بدا له ان ليليا هو الإسم الوحيد الذي يمكن ان تدعى به مولاته، التي كانت بحقّ زنبقية في بياضها العاطر.

منذ ذلك الحين اصبحت السيدة بالنسبة اليه ليليا، وباسم ليليا كان

يهديها ابياتا غرامية، لا يكاد يتم كتابتها حتى يمزقها من خشيته ان لا تكون جديرة بها: «آه، يا ليليا العذبة،/ ما ان قطفت زهرة، حتى فقدتك!/ أيؤذيك ان أراك من جديد؟/ أجري وراءك فتهربين، / أكلمك فلا تجيبين..». ولكنه كان لا يحدّثها الا بأنظار ملأها حبّ مشاكس، بما انه كلما زاد حب المرء زاد ميله للمشاكسة، وصار يرتعد من برد النار، تهيجه صحة مريضة، ونفسه جذلانة كريشة من الرصاص، اجتاحته سلطة الهوى دون عاطفة الحب؛ وتمادى يكتب اليها رسائل كان يرسلها دون امضاء إلى السيّدة، وأشعارا إلى ليليا، كان يحتفظ بها لنفسه بغيرة ويعيد قراءتها كل يوم.

وبينما كان يكتب (دون ان يرسل اليها) «ليليا، ليليا، اين انت؟ اين تختبئين؟/ ليليا، يا نور السماء الساطع/ قد جئت كالبرق/ لتجرحيني،ولتتركيني»، كان يكثف من حضوره. كان يتبعها ليلا عندما تعود إلى بيتها صحبة خادمتها (عبر الغابات الحالكة،/ والأزقة المظلمة،/ أسعد وأنا أتبع، دون جدوى/ آثار القدم الرشيقة...)، حتى اكتشف مقرّ سكناها. وأخذ يختبىء قرب بيتها ساعة خروجها للنزهة النهارية، ثمّ يتبعها عندما تخرج. بعد بضعة شهور صار يحفظ عن ظهر قلب اليوم والساعة التي غيرت فيهما تصفيف شعرها (وكتب شعرا يصف فيه تلك الجدائل الحبيبة التي قيّدت روحه، تائهة فوق الجبين الناصع كالحيات المسعورة)، وكان يذكر شهر أبريل الساحر حين ارتدت فيه لأول مرة معطفاً صغيراً في لون الوزال، وهبها مشية رشيقة جعلت منها طائرا شمسيا، بينما كانت تمشي وسط هبّات الريح الربيعيّة الأولى.

أحيانا، بعد اقتفاء أثرها مثل الجاسوس، كان يعود أدراجه بسرعة كبيرة، طائفا بالحي، ثم يخفف من خطاه عند المنعطف الذي ستظهر فيه أمامه، كما لو كان ذلك من قبيل الصدفة ؛ عند ذلك كان يبادرها بتحية مرتبكة. وكانت هي تبتسم باحتشام، وقد فاجأتها تلك الصدفة، ثم ترد على تحيته باشارة خاطفة كما تتطلب قواعد الأدب. ويبقى هو وسط

الطريق كأنه تمثال من الملح، ترشه العربات في الطريق بالمياه الراكدة، وقد أضنته معركة الحب.

في ظرف أشهر عديدة تمكّن روبارتو من تحقيق خمس من تلك الانتصارات: وكان يتأثر بكل انتصار كما لو كان الأول والأخير، مقنعا نفسه، بأنه بما انها تعدّدت على ذلك النحو، فلا يمكن ان تكون من قبيل الصدفة، وأنه ربما لم يكن هو، بل هي التي مهّدت لتلك الصدف.

كان روميو تلك الأرض المقدسة المتهربة، عاشقا متقلبا، يريد لو كان هو الريح التي تعبث بشعرها، والماء الصباحي الذي يقبّل جسمها، والثوب الذي يداعَبها ليلا، والكتاب الذي تداعبه نهارا، والقفاز الذي يدفىء يديها، والمرآة التي تتأمل محاسنها في كل وضع... وعلم مرة ان أحدهم أهداها سنجاباً، وتصور نفسه حيوانا صغيرا فضوليا، وبينما تداعبه يدفن خرطومه البريء وسط نهديها العذريين، بينما ذيله يربت على وجنتيها.

ويرتبك للجسارة التي يدفعه اليها الوله، ويترجم الصفاقة والإحساس بالذنب بأبيات مضطربة، ثم يقول لنفسه ان رجلا نزيها يمكن ان يكون عاشقا كالمجنون، ولكن لا كالأحمق. لن يتقرر مصيره كمحبّ الا بتقديم دلائل عن فطنته عندما يكون في الغرفة الزرقاء. كان لا يزال مبتدئا في تلك الطقوس الرقيقة، وفهم ان مثل تلك الدرة لن يمكنه الظفر بها الا بسلاح الكلام. وأخذ يستمع إذن إلى أحاديث الصالونات، حيث يتنافس النبلاء كما لو كانوا في مباراة، ولكنه لم يكن يحس بنفسه جاهزا.

وأوحت اليه ألفته بعلماء صالون دوبوي كيف ان مبادىء العلم الجديد، التي لا يزال المجتمع يجهلها، يمكن ان تكون محاكاة لخلجات القلب. وأوحى اليه لقاؤه بالسيد ديغبي بالخطاب الذي سيكون سببا في هلاكه.

السيد ديغبي، أو هكذا كانوا يدعونه في باريس، كان انجليزيا تعرّف عليه في البداية لدى آل دوبوي وبعد ذلك التقى به ذات مساء في احد الصالونات.

لم تمض ثلاثة عقود منذ ان أظهر الدوق دي بوكانكون ان أنجليزياً يمكن ان يملك le roman en teste وان يكون قادرا على اعمال جنونية لطيفة: قيل له انه توجد في فرنسا ملكة جميلة ومتكبرة، وكرس حياته كلها لذلك الحلم، إلى حد الموت بسببه، عائشا زمنا طويلا على متن سفينة نصب فوقها هيكلا إجلالا لمحبوبته. وعندما شاع القول ان ديغبي، وبتفويض من بوكانكون نفسه، قبل ذلك باثنتي عشرة سنة تقريبا قام ضد اسبانيا بحرب قرصنة، منذ ذلك الحين وجده عالم الحسان النفيسات رجلا جذّاباً.

أما لدى آل دوبوي، فقد كان الإنجليز فيه غير شعبيين: كانوا بالنسبة اليهم يتطابقون مع شخصيات مثل Robertus a Fluctibus، Medicinae Doctor، Eques Auratus وقيّم اصطبلات اكسفورد، الذين كتبت ضدّهم أهاجٍ مختلفة تدين ثقتهم المفرطة في أعمال الطبيعة الخفيّة. ولكن مع ذَلك كانت تلك الأوساط تتقبل كنسيّاً ممسوساً مثل السيد قفّارال، الذي لا يغلبه أحد في مجال الاعتقاد في أغرب الأشياء، والسيد ديغبي من ناحيته بدا على العكس قادرا على التحدث بعلم واسع عن ضرورة الفراغ - وسط جمع من الفلاسفة الطبيعيين كانوا لا يطيقون من لا يطيق الفراغ.

الا ان الحظوة التي كان يتمتع بها ربما تصدعت قليلا لدى بعض النبيلات، اللاتي نصحهنّ باستعمال مرهم تجميل من ابتداعه، تسبب لإحدى السيدات في ظهور فقاعات، وتهامس البعض انه قبل ذلك ببضع سنوات، ذهبت زوجته الحبيبة نفسها ضحية خلاصة صنعها من إغلاء بعض الحيات. ولكن كان ذلك دون شك ثلباً من قبل بعض حساده، مجت اسماعهم احاديثه بخصوص ادوية اخرى صنعها لمداواة حصى

الكلى، متكونة من سائل مستمدّ من روث البقر وأرانب برية عقرتها الكلاب. وهي أحاديث لا يمكن ان تثير إعجابا كبيرا في اوساط كانت تختار فيها بعناية، لمخاطبة السيدات، كلمات خالية من اي مقطع يمكن صوته ان يخدش ولو قليلا سمعهنّ.

ذات مساء، في احد الصالونات، ذكر ديغبي أبيات شاعر من بلاده:

وإن كانت روحانا اثنتين

فإنهما مثل ثابتي بركار توأمين،

روحك ساقه الثابتة، تراها ساكنة،

ولكنها تتحرك لما تتحرّك الأخرى.

وحتى وان كانت في مركزها،

عندما تبتعد الأخرى أكثر،

تميل، وتتبعها محاذرة،

ثم تعود مستقيمة عندما الأخرى

تعود إلى مأواها.

وهكذا أنت بالنسبة لي، أنا الذي

مثل الآخر أسير منحرفا:

ثباتك يراقب دائرتي

ويعيدني سريعا إلى منشئي.

واستمع اليه روبارتو ونظره ثابت على ليليا، التي كانت تدير ظهرها اليه، وقرر انه سيكون لها إلى الأبد ساق البركار الأخرى، وانه يجب عليه ان يتعلم الأنجليزية لقراءة اشياء أخرى من ذلك الشاعر،

الذي كان يعبّر بذلك الكمال عن مشاعره. لا أحد في باريس كان يقبل في ذلك الوقت أن يتعلم لغة همجية مثل تلك اللغة، ولكن عندما رافق روبارتو السيّد ديغبي إلى فندقه فهم أن هذا الأخير كان يجد صعوبة في التحدّث بلغة إيطالية سليمة، رغم انه زار في سفراته شبه الجزيرة، وكان يحس بالخزي لعدم تمكنه من لغة تعتبر ضرورية لكل رجل مثقف. وقررا ان يتآلفا وان يساعد احدهما الآخر على تعلّم لغته.

هكذا نشأت الصداقة القوية بين روبارتو وذلك الرجل، الذي اتضحت له سعة معرفته في العلوم الطبية والطبيعية.

كان قد عاش طفولة رهيبة. تورط والده في «مؤامرة المساحيق»، وأعدم. ومن نادر الصدف، أو ربما نتيجة لذلك، تبرّرها خلجات النفس الخفية، أن كرّس ديغبي حياته للتفكير في شأن مسحوق آخر. كان قد سافر كثيرا، مقضّيا في البداية ثماني سنوات في اسبانيا، ثم ثلاث سنوات في ايطاليا، وهنالك شاءت صدفة أخرى أن يتعرّف على أستاذ روبارتو الكرمليّ.

وكان ديغبي أيضاً، كما يحتّمه ماضيه كقرصان، مسايفاً ماهراً، وها أنك تراه بعد بضعة ايام يتسلّى مع روبارتو في المبارزة بالسيف. وكان معهما ذلك اليوم فارس ملكي كان يتبارز مع حامل علم من فوج التلاميذ؛ كانت المبارزة بقصد التمرن وكان المتبارزان يقظين، واذا بالفارس يحاول بهجمة قوية ان يسمّر منافسه، مجبرا اياه على ردّ الهجوم جانبيا، فجرح في ذراعه جرحا كبيرا.

وعصّبه ديغبي على الفور بإحدى ربطتي ساقيه، لكي يتوقف النزيف، ولكن في ظرف بضعة ايام اصبح الجرح يهدد بالتحول إلى أكال، وقال الجراح انه يجب قطع الذراع.

عند ذلك عرض ديغبي خدمته على الجريح، محذرا مع ذلك انهم ربما سيعتبرونه خدّاعا، وطلب ان يمنحوه ثقتهم. والفارس الذي أغلقت

في وجهه ابواب الشفاء، أجابه بمثل اسباني قائلا: «Hagase el milagro, y hagalo Mahoma».

آنذاك طلب منه ديغبي قطعة من قماش مشربة بدم الجرح، وأعطاه الفارس قطعة كانت تضمده في اليوم السابق. وجيء لديغبي بوعاء به ماء كان قد طلبه ورمى فيه بمسحوق الزاج، وحله في الماء بسرعة. ثم وضع قطعة القماش في الإناء. وفجأة انتفض الفارس، الذي شرد ذهنه في الأثناء، وقبض على ذراعه؛ ثم قال ان حرق الجرح قد كف عنه، بل أضاف أنه يشعر بإحساس منعش في الجرح.

قال ديغبي: "حسنا، الآن يكفي تنظيف الجرح كل يوم بغسله بالماء والملح، كي يتلقى التأثير اللازم. وأنا سأعرّض هذا الإناء، إلى النافذة أثناء النهار، وإلى زاوية من المدفأة اثناء الليل، حتى تبقى حرارته دائما معتدلة».

وبما ان روبارتو كان يعزو التحسن المفاجىء إلى بعض العوامل الأخرى، أخذ ديغبي وهو يبتسم ابتسامة متفطن قطعة القماش وجففها امام المدفأة، وفي الحال عاد الفارس يتألم، وكان من الضروري ان تعاد الخرقة من جديد إلى المحلول.

وفي غضون أسبوع برأ جرح الفارس.

أظن انه، في زمن كانت فيه عمليات النظافة مختصرة، كان الغسل اليومي للجرح كافيا لكي يجعله يبرأ، ولكن لا يمكن ان نلوم روبارتو ان هو قضى الأيام الموالية في سؤال صديقه عن ذلك العلاج، والذي كان اضافة إلى كل ذلك يذكره بعملية الكرمليّ، التي حضرها وهو طفل. إلاّ ان الكرمليّ وضع المسحوق على السلاح الذي أحدث الجرح.

فأجاب ديغبي «صحيح، إن الجدال حول الـ«unguentum armarium» قائم منذ زمن بعيد، وكان أول من تحدث عنه هو باراسالس العظيم. كثيرون يستعملون طينة دهنية، ويؤكدون ان مفعولها

أنجع على السلاح. ولكن كما تبيّن لك، لا يهمّ إن كان السلاح الذي تسبّب في الجرح أو الخرقة التي عصّبته، لأن المستحضر يجب ان يمسّ شيئا علق به دم الجريح. كثيرون، عندما شاهدوني أعالج السلاح لمداواة آثار الضربة، ظنوا انه ضرب من السحر، بينما مسحوق الانجذاب الذي استعملته يستمدّ أسسه من تفاعلات الطبيعة»!

ـ «لماذا سمّيته مسحوق الانجذاب؟»

ـ «هنا أيضاً يمكن ان يخدعنا الإسم. تحدث الكثيرون عن تطابق أو تجاذب يربط بين الأشياء. يقول أقريبّا إن قوة الكوكب تحدث مفعولها في الأشياء التي تشابهه والتي تتقبل إذن تأثيره. ويسمّي تجاذبا تلك الجاذبية المتبادلة بين الأشياء. مثل أن يهيأ اللوح بالزفت، والكبريت وبالزيت لتقبّل النار، وهكذا باستعمال أشياء مطابقة للعملية وللكوكب، يعود نفع خاص على المادة التي هيأتها بحكمة روح الكون. للتأثير على الشمس ينبغي إذن إحداث فعل على الذهب، الذي هو شمسي بطبعه، أو على تلك النباتات التي تتجه نحو الشمس، أو التي تنحني أو تنغلق عند غروب الشمس لكي تتفتح عند شروقها، مثل اللوتس، والفوانيا، والكليدونيا. ولكن هذه خرافات، لا تكفي مقارنة من هذا النوع لشرح عمليات الطبيعة».

وكشف ديغبي سرّه لروبارتو: الفلك، أو دائرة الهواء، مليئة بالنور، والنور هو جوهر مادي وجسمانيّ؛ وتقبّل روبارتو هذا المفهوم بطيب خاطر لأنه في مجلس دوبوي كان قد سمع ان النور أيضاً ليس في الواقع الا مسحوقا دقيقا جدا من الذرات.

وكان ديغبي يضيف «من الواضح ان النور، في انبعاثه بدون انقطاع من الشمس، وانطلاقه بسرعة فائقة في جميع الاتجاهات في خطوط مستقيمة، عندما تعترض مساره حواجز متكونة من أجرام صلبة أو أكمدة، ينعكس « ad angulos aequales»، ويتخذ مسارا آخر، إلى ان

يتغير اتجاهه لاعتراض جرم صلب آخر، ويواصل على هذا النمط إلى ان ينطفىء. مثل لعبة كرة الحبل، عندما ترمى الكرة على جدار ترتدّ من ذلك الجدار إلى الجدار المواجه، وغالبا ما تقوم بدورة كاملة وتعود إلى نقطة انطلاقها. الآن ماذا يقع عندما يسقط النور على جرم؟ ترتدّ الأشعة مقتلعة بعض الذرات، بعض الأجزاء الصغيرة، مثلما تحمل الكرة معها جزءا من طلاء الحائط. وبما ان تلك الذرات متكونة من العناصر الأربعة، يدمج النور بحرارته الأجزاء اللزجة، ويحملها بعيدا. وما يثبت ذلك هو انه عندما نضع خرقة مبللة أمام النار نشاهد ان الأشعة التي تعكسها الخرقة تحمل معها شيئا مثل الضباب المائي. تلك الذرات المتنقلة هي مثل فرسان فوق خيول مجنحة تتجول في الفضاء إلى ان تسحب الشمس عند الغروب خيولها وتتركها دون مطايا. وعند ذلك تسقط في كتلة نحو الأرض التي انطلقت منها. ولكن هذه الظواهر لا تحدث فقط مع النور، ولكن مع الريح أيضاً، التي ليست الاّ نهرا كبيرا من الذرات المتشابهة، تجذبها الأجرام الأرضية الصلبة..».

فأوحى روبارتو «والدخان،».

ـ «اكيد. في لندن يستمدّون النار من الفحم الأرضي، المجلوب من اسكتلندا، والذي يحتوي على قدر كبير من الملح المتبخر الحامز جدا. ذلك الملح يحمله الدخان في الهواء، فيضرّ بالحيطان، والأفرشة والأثاث ذي الألوان الفاتحة. عندما تبقى الحجرة منغلقة بضعة أشهر، نجد فيها بعد ذلك غبارا أسود يغطي كل شيء، كما نرى غبارا أبيض في الطواحين وفي دكاكين الخبازين. وعند الربيع تبدو الأزهار كلها متسخة بالدهن».

ـ «ولكن كيف يحدث ان تضيع في الهواء تلك الكمية الكبيرة من الأجرام الضئيلة، بينما الجسم الذي تنبعث منه لا يطرأ عليه أي نقص؟»

ـ «ربما يحدث نقص، وتتفطن إلى ذلك عندما تجعل الماء

يتبخر، ولكننا لا نتفطن إلى ذلك مع الأجرام الصلبة، كما اننا لا نتفطن إلى ذلك مع المسك أو مع مواد أخرى فائحة. كل جسم، مهما كان صغر حجمه، يمكن تقسيمه إلى أجزاء جديدة، دون ان نصل أبدا إلى نهاية تجزئته. تصوّر ضآلة حجم الجسيمات التي تنبعث من جسم حيّ، والتي تمكّن كلابنا الإنجليزية، عن طريق الشمّ، من تتبع آثار حيوان. أتظن مع ذلك، ان الثعلب في نهاية سباقه، يصير أصغر من ذي قبل؟ الآن، تلك الجسيمات هي فعلا المتسببة في ظواهر التجاذب التي يسميها بعضهم «تأثير عن بعد»، والتي هي ليست عن بعد، وليست إذن سحرا، ولكنها تحدث للتجول الدائم للذرات. وهذا ما يقع في التجاذب عن طريق الامتصاص، مثل ما يحدث للماء والخمر بواسطة مشعب، وتأثير المغناطيس على الحديد، أو التجاذب عن طريق الرشح، مثل ان تضع شريطة من القطن في وعاء مليء بالماء، تاركا منها جزءا كبيرا يتدلّى خارج الوعاء، وترى ان الماء يصعد متجاوزا حافة الوعاء ويقطر على الأرض. والتجاذب الأخير هو الذي يقع بفعل النار، التي تجذب اليها الهواء الموجود حولها بما يحتويه من جسيمات طائرة: النار، حسب طبيعتها، تحمل معها الهواء الموجود حولها مثل مياه النهر التي تحمل تربة الوادي. وبما ان الهواء رطب والنار جافة، فهما يلتصقان احدهما بالآخر. وإذن، لاحتواء المكان الذي أفرغته النار، من الضروري ان يصل هواء آخر من الفضاء المجاور، والا يتكوّن الفراغ».

ـ «إذن انت تنفي وجود الفراغ؟».

ـ «أبدا. أقول إن الطبيعة ما ان يعترضها فراغ حتى تحاول ملأه بالذرات، في معركة لاحتلال كل جزء منه. وإذا لم يكن الأمر كذلك، فلا يمكن لمسحوق الانجذاب أن يؤثر، بينما العكس هو الذي حدث مثلما أوضحت لك التجربة. النار تحدث تيارا متواصلا من الهواء وأبقراط العظيم طهر من الوباء ولاية كاملة بإشعال نيران كبيرة في جميع أرجاء المنطقة. وعند تفشي الأوبئة كذلك يقع دائما قتل القطط والطيور

وحيوانات اخرى ساخنة تنضح دائما بأنفاس، كي يأخذ الهواء مكان الأنفاس المحرّرة خلال ذلك التبخير، جاعلا تلك الذرات الموبوءة تلتصق بريش أو بشعر تلك الحيوانات، كما ان الخبز الذي يخرج ساخنا من الفرن يجذب اليه رغوة البرميل ويتلف الخمر لو وضعناه على غطاء البرميل. وكما يحدث أيضاً لو عرضت للهواء مقدار ليبرة من الملح والدردي المحمّص والمحرق جيدا، فهو يعطيك عشر ليبرات من الزيت الدردي الجيد. لقد قصّ عليّ طبيب البابا اوربانس الثامن قصة راهبة رومانية، من فرط الصيام والصلاة، حمى جسمها إلى حدّ ان عظامها جفّت. تلك الحرارة الداخلية كانت تجذب فعلا الهواء الذي كان يتجسّد في العظام كما يفعل في الملح الدردي، ويخرج من النقطة التي يوجد فيها منفذ المصالة، ومن هناك إلى المثانة، حتى ان المسكينة كانت تعطي أكثر من مائتي ليبرة من البول في أربع وعشرين ساعة، وهي معجزة لا يشك أحد في انها دليل على قداستها».

ـ «ولكن ان كان كل شيء يجذب كل شيء آخر، ماذا يجعل العناصر والأجسام تبقى منفصلة ولا تصطدم قوة ما بقوة أخرى؟»

ـ «إنه سؤال ذكيّ. ولكن بما ان الأجسام التي من نفس الوزن تتحد سهولة أكبر، والزيت كذلك يتحد سهولة أكبر مع الزيت لا مع الماء، نستنتج ان ما يشدّ الذرات من نفس الطبيعة هو ندرتها أو كثافتها، كما يمكن ان يؤكده لك الفلاسفة الذين تخالطهم.»

ـ «وأكدوا لي ذلك، مستدلين بأنواع الملح المختلفة: انه مهما كانت الكيفية التي نطحنها بها أو نخثرها بها تستعيد دائما شكلها الطبيعي، والملح العادي يظهر دائما في شكل مكعب ذي جوانب مربعة، وملح البارود في شكل اعمدة ذات ستّة جوانب، والملح النشادريّ في شكل مسدّس ذي ستّة حروف، مثل الثلج».

ـ «وملح البول يتشكل في مخمسات، وبهذا فسّر السيد دافيدسون

شكل كلّ من الثمانين حصى التي وجدها في مثانة السيد بلوّتيي. وإن كانت الأجسام ذات الشكل المشابه تختلط سهولة أكبر، فهي إذن تجذب بعضها البعض قوة أكبر. لذا عندما تحرق يدك فأنت تجد راحة من الألم عندما تعرضها قليلا أمام النار».

ـ «أذكر ان معلّمي، عندما لدغت حيّة أحد الفلاحين، وضع على الجرح رأس الحيّة..».

ـ «أكيد. السمّ، الذي كان في طريقه إلى القلب، يعود إلى المنبع الأساسي حيث يوجد بكميات أكبر. لو أنك في فترة وباء حملت معك في صندوق مسحوق علجوم، أو حتى علجوما أو رتيلاء حية، أو أيضاً زرنيخا، تلك المادة السامة تجذب اليها نجاسة الهواء. والبصل المجفف يتخمر في المخزن عندما ينبت بصل الحقول».

ـ «وهذا يفسّر أيضا الأوحام التي تظهر على الرضّع: الأم تشتهي بقوة شيئا ما..».

ـ «في هذا الخصوص من الأفضل ان لا نتسرع في الحكم. أحيانا ظواهر مماثلة تنشأ من علل مختلفة ورجل العلم لا يجب ان يصغي إلى جميع الخرافات. ولكن لنعد إلى حديثنا حول المسحوق. ماذا حدث عندما عرضت لبضعة ايام الخرقة المتسخة بدم صديقنا الجريح على تأثير المسحوق؟ قبل كلّ شيء، الشمس والقمر جذبا من بعيد ذرات الدم التي كانت موجودة في الخرقة، بفضل حرارة المكان، وذرات الزاج الموجودة في الدم لم تجد بدا من تتبع نفس المسار. ثم من ناحية أخرى كان الجرح يواصل اخراج كمية كبيرة من الذرات الساخنة والنارية، جاذبا بهذه الصفة الهواء المجاور. وهذا الهواء كان يجذب هواء آخر، كان بدوره يجذب هواء آخر وذرات الدم والزاج، المتناثرة على مسافات شاسعة، كانت في النهاية تلتقي في ذلك الهواء الذي يحمل معه ذرات أخرى من نفس الدم. الآن، ذرات الدم، تلك الآتية من الخرقة وتلك

الآتية من الجرح، تلتقي، فتطرد الهواء الذي صار عديم الجدوى، وتنجذب نحو مقرها الرئيسي الذي هو الجرح، وبرفقتها ذرات الزاج فتنفذ إلى اللحم».

- «ولكن ألم يكن بإمكانك ان تضع الزاج مباشرة على الجرح؟»

- «كان بإمكاني أن أفعل ذلك، بما ان الجريح كان أمامي. ولكن لو كان الجريح بعيدا؟ ثم لو وضعت الزاج مباشرة على الجرح لحرقته أكثر قوّته الأكّالة، بينما عندما يحمله الهواء يعطي من نفسه فقط ذلك الجزء المريح والشافي، الذي يقدر على حقن الجرح، والذي يستعمل أيضاً في القطرات لمعالجة العيون،» وهنا أرهف روبارتو السمع، مكتنزا تلك النصائح الثمينة لتطبيقها من بعد على نفسه، وهذا ما يفسّر دون شك استفحال المرض الذي اصاب عينيه.

وأضاف ديغبي: «ومن ناحية أخرى، لا ينبغي أبدا استعمال الزاج العادي، كما كان الأمر في السابق، اين كان الضرر أكبر من النفع. إنني أجلب الزاج من قبرص، وقبل استعماله أجصّصه في الشمس: التجصيص ينزع عنه الرطوبة الزائدة، فكما لو انني صنعت منه حساء مركزا؛ ثم ان التجصيص يجعل ذرات هذه المادة قابلة ان تحمل على اجنحة الهواء. وأخيرا أضيف صمغ الكثيراء، الذي يدمل الجرح بسرعة».

لقد توقفت عند الأشياء التي تلقّنها روبارتو عن ديغبي لأن هذا الاكتشاف سيقرر مصيره فيما بعد.

يجب ان أقول أيضاً، ولو ان ذلك لا يشرّف صاحبنا، وهو نفسه يعترف بذلك في رسائله، ان اهتمامه بتلك الاكتشافات الرائعة لم يكن لأسباب تتعلق بعلم الطبيعة، ولكن دائما ومرة أخرى بقصته الغرامية. بعبارات أخرى، ذلك الوصف لكون مليء بالذرات تتلاقى حسب وفاقها، بدا له مجازا لظاهرة الحب، وأخذ يتردد على مجالس المطالعة

باحثا عن كل ما يمكنه ان يجد بخصوص المرهم السلاحي، وفي ذلك الوقت يعني الكثير من الكتب، التي سيزيد عددها أكثر في السنوات الموالية. وبنصيحة من نيافة الأسقف ڤفارال (بصوت خافت لئلاّ يسمعه مخالطو ديبوي الآخرون، الذين لا يؤمنون الا قليلا بهذه الأشياء) كان يقرأ «Ars Magnesia» لكيرشار، و«Tractatus de magnetica vulnerum curatione» لغوكلينيوس، الملقب بـ «Fracastoro»، و«Discursus de unguento armario» من تأليف فلود، و«Hopolochrisma spongus» لفوستر. وكان يشحذ ذهنه ليترجم علمه إلى شعر حتى يتمكن يوما من ان يسطع بالفصاحة، ليصير رسولا للتجاذب الكوني، في تلك الأماكن التي كانت فيها فصاحة الآخرين تشعره دائما بحقارته.

وطيلة شهور عديدة ـ التي دام فيها بحثه المتعنت، بينما كان لا يخطو خطوة واحدة على درب استمالة قلب حبيبته ـ مارس روبارتو نوعا من مبدأ ازدواجية، بل تعددية الحقيقة، وهي فكرة كانت في باريس تبدو لدى الكثيرين جسورة وحصيفة في نفس الوقت. كان أثناء النهار يناقش مسألة أزلية المادة، وأثناء الليل كان يستنفد نور عينيه في دراسات كانت تعده ـ ولو بعبارات العلوم الطبيعية ـ بمعجزات خفية.

في الأعمال الكبيرة ينبغي على المرء ان يحاول لا ان يخلق الفرص، بل ان يستغل الفرص التي تسنح. ذات مساء لدى أرتينيس، بعد مناقشة متحمّسة بخصوص «Astree»، حثّت صاحبة البيت الحاضرين على التمعن في ما يجمع بين الحب والصداقة. وأخذ روبارتو عندئذ الكلمة، ملاحظا ان مبدأ الحب، أكان ذلك بين صديقين أو بين محبين، لا يختلف عن المبدأ الذي يحرك مسحوق الانجذاب. وعند أول بادرة اهتمام من الحاضرين، أعاد على اسماعهم ما قصّه عليه ديغبي، ما عدا قصّة القديسة المبوالة، ثم أخذ يتكلم عن الموضوع، ناسيا الصداقة ومتحدثا فقط عن الحب.

ـ «الحب يخضع لنفس القوانين التي تحرك الرياح، والرياح تحمل

دائما معها أنفاس الأماكن التي تأتي منها، فإن هي جاءت من الجنان والحدائق، فاحت اما بعطر الياسمين، أو النعناع، أو الإكليل، فتبعث في البحارة الرغبة في النزول إلى الأرض التي تبعث اليهم بتلك الوعود. وكذلك أنفاس الحبّ تسكر أنف قلب المحبّ» (ولنغفر لروبارتو هذه الإستعارة القبيحة). «إن قلب المحبّ عود، يتناغم مع أوتار عود آخر، كما تحرّك دقّات الأجراس صفحة الماء، خصوصا أثناء الليل عند غياب جميع الأصوات الأخرى، فتسري في الماء نفس الحركة التي سرت في الهواء. يحدث لقلب المحب ما يحدث للدرديّ، الذي يفوح احيانا بماء الورد، عندما يذوّب في القبو، بعيدا عن النور، في فصل الورود، حين يمتلىء الهواء بذرات الورد، ويتحول إلى ماء بفعل جاذبية ملح الدرديّ، فيعطّر الدرديّ. ولا يمنع جفاء المحب ذلك. فبرميل الخمر، عندما تكون الكروم مزهرة، يتخمر فتبرز خارجه زهور بيضاء، تبقى إلى ان تسقط زهور الكروم. ولكن قلب المحب، الذي هو أكثر ثبراً من الخمر، عندما يزهر بأزهرار القلب المعشوق، لا يزال يعنى ببراعمه حتى بعد ان تجفّ العين».

وبدا له انه لاحظ نظرة ناعمة من قبل ليليا، وواصل: «الحبّ هو مثل استحمام قمريّ. فالأشعة الآتية من القمر هي أشعة الشمس، التي تنعكس وتصل الينا. عندما نكثف أشعة الشمس بواسطة مرآة، نزيد من قوتها التسخينية. وعندما نكثف أشعة القمر بواسطة وعاء فضي، نرى ان قاعه المقعر يعكس أشعته المنعشة لما تحويه من ندى. يبدو من غير المعقول ان يغتسل أحدهم في وعاء فارغ: ومع ذلك يجد يديه مبلّلة، وهو علاج نافع ضد الثؤلول».

فقاطعه أحد الحاضرين قائلا: «ولكن يا سيد دي لاغريف، الحب ليس دواء للثؤلول»!

فأجاب روبارتو متماديا في حديثه، دون أن يتوقف: «أوه، كلاّ، لا شك في ذلك. ولكنني ضربت أمثلة مستمدة من أبسط الأشياء للتذكير

بأن الحب أيضاً يتوقف على مسحوق واحد من الذرات. وهي طريقة أقول بها ان الحب يمتثل لنفس النواميس التي تحكم الأجرام سواء تلك الأرضية أو تلك السماوية، الا انه من تلك النواميس يمثل أنبل تظاهراتها. الحب يتولد من النظر، ويتّقد منذ النظرة الأولى: وما هو النظر ان لم يكن نورا عكسه الجسم المنظور اليه؟ عندما أراه، ينفذ إلى جسمي، أفضل جزء من جسم المحبوب، ذلك الجزء الهوائي، الذي من خلال العينين يصل مباشرة إلى القلب. والحب من أول نظرة هو إذن شرب روح قلب المحبوب. إن الخالق العظيم للطبيعة عندما صنع جسمنا وضع فيه أنفاسا داخلية، هي بمثابة الحرّاس الذين يبلغون معلوماتهم إلى قائدهم، أي إلى المخيلة، الذي هو مثل سيد العائلة الجسمية. وإن أثّر فيها شيء ما، يحدث مثلما يقع عندما نستمع إلى عزف الكمان، نحمل انغامه في ذاكرتنا، ونسمعها حتى اثناء النوم. وخيالنا يصنع من ذلك الشيء صورة، يلتذّ بها المحب، ولكنها مع ذلك تعذّبه، لأنها ليست فعلا الا صورة. لذلك عندما يفاجأ الرجل برؤية الحبيبة، يتغير لونه، فيحمرّ ويصفرّ، حسب تلك الأنفاس الداخلية في ذهابها السريع أو البطيء نحو الشيء والعودة منه نحو المخيلة. ولكن تلك الأنفاس لا تذهب فقط إلى المخ، ولكنها تذهب مباشرة إلى القلب من خلال المجرى الكبير الذي يحمل منه الأنفاس الحياتية إلى المخ وهنالك تصير اهواء حيوانية؛ ودائما من خلال نفس المجرى ترسل المخيلة إلى القلب جزءاً من الذرات التي تلقّتها من بعض الأشياء الخارجية، وهذه الذرات هي التي تحدث ذلك الغليان للأنفاس الحياتية، التي أحيانا تشرح القلب، وأحيانا تؤدي به إلى الغشيان».

ـ «إنك تقول لنا، يا سيدي، ان الحب يتصرف مثل حركة فيزيائية ولا يختلف في نهجه عمّا يبعث على ازهرار الخمر؛ ولكنك لا تقول لنا كيف ان الحب، خلافا لظواهر مادية أخرى، هو قوة انتقائية، يختار. لأي سبب إذن يجعلنا الحب أسرى لمخلوق دون مخلوق آخر؟»

ـ «هذا فعلا ما جعلني أرجع قوى الحب إلى المبدأ نفسه الذي هو مسحوق الانجذاب، أي ان ذرات متساوية ومن نفس الشكل تجذب ذرات مماثلة! فإن أنا بللت بذلك المسحوق السلاح الذي جرح بيلاد، فلن أشفي بذلك جرح أوراستي. الحب يجمع إذن فقط شخصين لهما بشكل ما نفس الطبيعة، روح نبيلة مع روح في نفس النبل وروح من العامة مع روح أخرى من نفس النشأة ـ بما انه يحدث ان يحب الفلاحون أيضاً، مثل الراعيات، كما تخبرنا بذلك قصّة السيّد دورفي الرائعة. الحب يكشف انسجاما بين مخلوقين كتب منذ بداية الأزمنة، مثلما جعلت الأقدار منذ البدء بيرامو وتيسبي يجتمعان في شجرة توت واحدة».

ـ «والحب التعيس؟»

ـ «إنني لا أظن انه يوجد بحقّ حبّ تعيس. هنالك فقط أشواق لم تنضج بعد، حيث لم تلتقط المحبوبة لسبب من الأسباب الرسالة الآتية من عيني المحبّ. ومع ذلك فالمحب يعرف في تلك الآونة مدى انسجام الطبيعة التي كشفت له، ومن قوة تلك العاطفة، يعرف كيف ينتظر، حتى مدى حياة كاملة. فهو يعرف ان كشف أحدهما للآخر والوصال يمكن ان يتحققا حتى بعد الموت، حيث، بعد تبخر ذرات كلا الجسدين اللذين يذوبان في التراب، يجتمعان في بعض السماوات. وربما، مثل جريح، حتى دون ان يعرف ان أحدهم هو بصدد نثر المسحوق على السلاح الذي ضربه، يتمتع بصحة جيدة، من يدري كم من قلب ولهان يتمتع الآن بسعادة روحية مفاجئة، دون ان يدري ان تلك السعادة هي من فعل قلب الحبيب، الذي بدوره خفق بالحب، فأطلق السراح لتلتقي الذرات المتماثلة».

ينبغي ان أقول ان هذه الاستعارة المعقدة تتماسك إلى حد ما، ولربما أظهرت الآلة الأرسطوطاليسية التي صنعها الأب ايمانويل عدم ثباتها. ولكن تلك الليلة اقتنع الجميع بذلك التقارب بين المسحوق،

الذي يشفي من الداء، والحب، الذي كان يؤذي أكثر مما كان يشفي.

لهذا السبب ذاعت قصّة هذا الحديث حول مسحوق الانجذاب وحول الانجذاب الغرامي ولبضعة أشهر أو أكثر تداولتها باريس بأجمعها، بما لذلك من عواقب سيأتي ذكرها.

ولهذا السبب أيضاً، عندما أنهى روبارتو حديثه، ابتسمت له ليليا مرة أخرى. كانت ابتسامة ثناء، أو على الأكثر كانت تدل على الإعجاب، ولكن لا شيء يبدو اكثر بداهة من ان يرى في ذلك علامة حب. وفهم روبارتو الابتسامة على انها قبول لجميع الرسائل التي بعثها. ومن شدة اعتياده على عذاب الفراق، ترك الجلسة، قانعاً بذلك الانتصار. وأساء الفعل، وسنرى من بعد لماذا. منذ ذلك الحين تجرأ روبارتو دون شك على مخاطبة ليليا، ولكنه لقي منها دائما سلوكا متناقضا. أحيانا كانت تهمس اليه: «فعلا كما أتى ذكره ذلك اليوم». وأحيانا أخرى كانت تقول بصوت خافت: «ولكنك قلت شيئا مختلفا تماما». وتارة أخرى كانت تعده، وهي تتركه: «سنرى ذلك من بعد، كن مثابرا».

كان روبارتو لا يفهم ان كانت، لشرود منها، تنسب اليه بين التارة والأخرى أقوال وأفعال شخص آخر، أم انها كانت تشاكسه دلعا منها.

ما حدث له بعد ذلك جعله يقحم تلك الأحداث النادرة في قصّة محيّرة أكثر بكثير.

17

شدّة الرغبة في علم خطوط الطول

كان ذلك ـ ها نحن نجد أخيرا تاريخا يرشدنا ـ مساء الثاني من ديسمبر 1642. كانا خارجين من المسرح، حيث لعب روبارتو سريّا بين الجمهور دور المحبّ. وعند باب الخروج أمسكت ليليا خفية يده وهمست اليه: "لقد صرت إذن خجولا، يا سيد دي لاغريف. لم تكن كذلك تلك الليلة. إذن، نلتقي غدا من جديد، على نفس الركح».

خرج وهو يكاد يجن من الاضطراب، لقد دعته إلى مثل ذلك الموعد في مكان لم يسبق له ان عرفه، وطلبت منه ان يعيد ثانية ما لم يتجرأ أبدا على فعله. ومع ذلك لا يمكن ان تكون استبدلته بأحد آخر لأنها نادته باسمه.

آه ـ كتب ما كان قد قال لنفسه آنذاك ـ اليوم تجري الوديان نحو عيونها، فرسان بيض يتسلقون أبراج «نوتردام دي باريس»، النار تتقد ضاحكة في الجليد، بما أنه حدث لي فعلا انها استدعتني أم لا، اليوم يسيل الدم من الصخرة، والحنش يجامع دبّة، والشمس صارت سوداء، لأن حبيبتي مدّت اليّ كأسا لا يمكنني أبدا أن أشرب منها، بما انني لا أدري أين مدّت السفرة...

وعلى بعد خطوة من السعادة جرى يائسا إلى منزله، المكان الوحيد الذي لن يجدها دون شكّ فيه.

يمكن فهم كلمات ليليا بمعنى يبدو أقلّ غموضا بكثير: كانت بكل بساطة تذكره بالحديث الذي تناوله منذ مدة حول مسحوق الانجذاب، وتحثّه على المزيد، في نفس ذلك الصالون، صالون «أرتينيس» اين سبق له ان تحدّث. منذ ذلك الحين كانت قد رأته صامتا وذائبا في العشق، وكان ذلك يخلّ بقواعد اللعبة، لعبة الإغراء، ذات القواعد الصارمة. كانت تذكّره، كما يمكن ان نقول اليوم، بواجبه الإجتماعي. هيّا، كانت تقول له، لم تكن خجولا تلك الليلة، أعد علينا نفس المشهد، فأنا في انتظارك. ولا يمكننا ان ننتظر تحديا غير هذا من قبل امرأة متحذلقة.

ولكن روبارتو فهم انها تقول له: «انك خجول، ولكنك قبل الآن ببضع ليال لم تكن كذلك، وبرهنت لي.». (أتصور ان الغيرة تمنعه وفي نفس الوقت تدفعه إلى تصور بقية الجملة). «إذا غدا من جديد، على نفس الركح، في نفس المكان الخفي».

كان من الطبيعي ـ بما ان مخيلته اتخذت أوعر المسالك ـ ان يفكر انه حدث خلط بين شخصين، وان يتصوّر شخصا قدّم نفسه على انه هو، وبتلك الصفة نال من ليليا ما كان يصبو اليه مقابل حياته. وها أن فيرّانتي يبرز من جديد وجميع خيوط ماضيه تترابط من جديد. ذاته الأخرى الماكرة، فيرّانتي أقحم نفسه حتى في تلك القصة، مستغلاً غياباته، وتأخيراته، وذهابه المبكّر، وفي الوقت المناسب جنى ثمرة خطاب روبارتو حول مسحوق الانجذاب.

وبينما كان يتقلب همّاً وحيرة، اذ سمع دقاً على الباب. يا للأمل، حلم بأعين صاحية! وهرع إلى الباب ليفتحه وهو لا يشكّ في انه سيجدها على العتبة: الاّ انه رأى أمامه ضابط حرس الكاردينال، مع رجلين من اتباعه.

وبادره الضابط: «السيد دي لاغريف، حسب ما أعتقد،» ثم قدّم نفسه على انه القائد دي بار وأضاف: «إنني آسف لما أنا بصدد القيام به.

ولكنك، يا سيدي، موقوف لذا أرجوك ان تسلّمني سيفك. ومن الأفضل ان تتبعني عن طيب خاطر، وسنصعد العربة التي تنتظرنا كما لو كنا صديقين، دون ان يكون في ذلك ما يخجلك». وأوضح له انه يجهل أسباب الإيقاف، مؤملا ان يكون ناتجا عن سوء فهم. وتبعه روبارتو صامتا، وقد تشبث بنفس الأمل، وعند نهاية الرحلة عهد به،بعد اعتذارات شتى،إلى حارس كان يغلب عليه النعاس، وهكذا وجد نفسه في إحدى زنزانات «الباستيل».

قضى هنالك ليلتين مثلّجتين، ما من زائر له الا بعض الفئران (كأن القدر هيأه منذ ذلك الحين إلى الرحلة على متن أماريلّي) وحارس كان يجيبه عند كل سؤال انه مرّ بذلك المكان العديد من الضيوف العظام حتى انه كفّ عن التساؤل لماذا انتهى بهم المطاف هنالك؛ وبما انه يقيم هنالك سيد كبير مثل باسومبيار منذ سبع سنوات، فلا داعي ان يتشكّى روبارتو بعد بضع ساعات.

وتركوه على ذلك الحال يومين ليذوق فيهما جرعة السجن المرة، وفي ثالث يوم عاد دي بار، وبعد ان مكّنه من الاغتسال، أخبره انه دعي للمثول أمام الكاردينال. وفهم روبارتو على الأقل انه سجين الدولة.

وصلا إلى القصر في ساعة متقدمة من الليل، ومن الحركة التي كانت على الباب كان يبدو انها ليلة ليست ككلّ الليالي. كان المدرج مليئاً بأناس من طبقات مختلفة يهرعون في اتجاهات متعاكسة؛ وفي المدخل أشراف وكنسيون يدخلون مضطربين، ويتبوّلون بأدب على الجدران المطلية، ثم يتخذون هيئة متألمة ويدخلون إلى قاعة أخرى، كان يخرج منها بعض العاملين في القصر، ينادون بصوت عال خدماً لا أثر لهم، ويشيرون إلى الجميع بملازمة الصمت.

وأدخل روبارتو إلى تلك القاعة، فشاهد فيها فقط أشخاصا يولون له ظهورهم، وهم يطلّون من باب على قاعة أخرى، واقفين على

أطراف أرجلهم، دون جلبة، كمن ينظر إلى منظر محزن. وأدار دي بار نظره من حوله كأنه يبحث عن شخص، وأخيرا أشار لروبارتو ان يمكث جانبا، ثم ابتعد.

وحارس آخر كان يحاول إخراج الكثير من الحاضرين، بطرق مختلفة حسب الدرجة، عندما رأى روبارتو بلحيته الطويلة، وبثيابه التي عانت من وسخ السجن، سأله بلهجة جافة عما يفعل هنالك. وأجابه روبارتو ان الكاردينال ينتظره وردّ عليه الحارس ان الكاردينال، لسوء حظ الجميع، هو المنتظر من قبل من لا يعلوه أحد.

إلا أنه تركه هنالك لشأنه، وشيئا فشيئا، بما ان دي بار (الوجه الصديق الوحيد الذي بقي له) لم يعد، اقترب روبارتو من الجمع، وبعد شيء من الانتظار وشيء من الدفع، بلغ عتبة القاعة الأخيرة.

هنالك، في فراش قد اتكأ فوقه على وسائد ناصعة، شاهد روبارتو وتعرف على شبح الشخص الذي كانت فرنسا بأجمعها تهابه وقلّة كانوا يحبونه. كان الكاردينال العظيم محاطاً بجمع من الأطباء في لباس قاتم اللون، كانوا منشغلين عنه بنقاشاتهم، بينما كان إكليريكيّ يمسح شفتيه اللتين كان السعال ينثر عليهما رغوة محمرة اللون، وكانت الأغطية توحي بتنفس صعب صادر عن جسم أضناه المرض، بينما اليد الخارجة من كمّ القميص كانت تشدّ على صليب. وفجأة أجهش الإكليركيّ بالبكاء. فأدار ريشليو بصعوبة رأسه، وبشبه ابتسامة همس قائلا: «أكنت تظن إذن انني خالد؟»

وبينما كان روبارتو يتساءل من الذي دعاه إلى فراش رجل يحتضر، اذ حدثت من ورائه ضجة كبيرة. وتهامس الكثيرون باسم قسّ سان اوستاش، ثم فتح طريق بين المجتمعين ودخل القسّ مع اتباعه، يحمل الزيت المقدس.

وأحسّ روبارتو بأحد يلمس كتفه، وإذا به دي بار الذي قال له:

«هيا بنا، الكاردينال ينتظرك». ودون ان يفهم، تبعه روبارتو مجتازا الرواق. وأدخله دي بار قاعة، مشيرا اليه بالانتظار، ثم تركه.

كانت القاعة فسيحة تتوسّطها كرة أرضية كبيرة الحجم، وساعة فوق منضدة صغيرة في إحدى الزوايا، من ورائها ستار أحمر اللون. على شمال السجف، تحت صورة كبيرة وكاملة تمثل ريشليو، أبصر روبارتو أخيرا شخصا يدير اليه ظهره، لابسا زيّ كاردينال، وكان واقفا يكتب شيئا ما فوق مقرأ. وأدار المطران رأسه قليلا مشيرا إلى روبارتو بالإقتراب، وعندما تقدّم روبارتو، انحنى أكثر فوق سطح المقرأ، واضعاً يده اليسرى ليحجب بها حافة الورق حتى وإن تعذر في الحقيقة على روبارتو، من المسافة التى كانت لا تزال تفصله عنه، أن يقرأ شيئا ممّا كان مكتوبا.

ثم استدار اليه الكاردينال، في جبته القرمزية وبقي بضع لحظات مستقيما، كأنما يحاكي الرسم الكبير الموجود خلفه، ويده اليمنى فوق المقرأ بينما اليسرى كانت على مستوى صدره وراحتها مفتوحة بشيء من التكلف. ثم جلس على كرسي بجانب الساعة وداعب بدلال شاربه وعثنونه، ثم سأل: «السيّد دي لا غريف؟»

كان السيد دي لا غريف مقتنعا أنه يعيش كابوسا يرى فيه ذلك الكاردينال نفسه الذي يحتضر على بعد عشرة أمتار أو أقل من هنالك، ولكنه الآن يراه قد استعاد شبابه، وصارت ملامحه أقل ذبولا، كما لو أضاف أحدهم إلى الوجه الأرستقراطي المرسوم على اللوحة ألوانا حيّة وأعاد رسم الشفتين بخطّ دقيق يكاد يتحرّك؛ ثم ذلك الصوت ذو اللهجة الأجنبية أعاد إلى ذهنه ذكرى قديمة: ذلك القائد الذي كان يركض، قبل ذلك بعشر سنوات، وسط الجيشين المتنازعين في «كزالي».

كان روبارتو أمام الكاردينال مزارينو، وفهم ان الرجل، اثناء احتضار حاميه، كان يسيطر شيئا فشيئا على مهامّ المحتضر، وان العون قد سمّاه «الكاردينال» كما لو لم يكن هنالك كاردينال آخر غيره.

همّ روبارتو بالإجابة على ذلك السؤال الأول، ولكنه تفطن سريعا إلى ان الكاردينال بينما يسأل كان في الحقيقة يؤكد، مقتنعا ان مخاطبه لا يمكنه في كل الحالات إلا ان يردّ بالإيجاب.

وفعلا أضاف الكاردينال مؤكدا: «روبارتو دي لا غريف، من عائلة أسياد «بوتسو دي سان باتريتسو». إننا نعرف القلعة، كما نعرف جيدا كامل جهة «مونفيرّاتو». وهي خصبة كما لو كانت فرنسا. لقد قاتل أبوك، ايام حصار كزالي، بولاء كبير، وكان مخلصا لنا أكثر من مواطنيك الآخرين». وكان يقول «لنا» كما لو كان في ذلك الوقت صنيعة ملك فرنسا. وأنت أيضا تصرفت تصرّفاً لائقاً، كما أبلغونا. ألا تظن ان هذا يجعلنا نأسف، وأقولها لك كما لو كنّا أبا لك، عندما نرى انك نزلت ضيفا عندنا دون ان تراعي واجبات الضيافة؟ ألا تعرف ان القانون في هذه المملكة يطبق بنفس الطريقة سواء على الرعايا أو على الضيوف؟ طبعا، طبعا لن ننسى ان النبيل يبقى دائما نبيلا، مهما كان الذنب الذي اقترفه: ستحظى بنفس المزايا التي منحناها لـ«سانك مارس»، الذي لا يبدو عليك انك تنبذ ذكراه كما كان عليك ان تفعل. ستموت أنت أيضا بشفرة المقصلة لا شنقا بالحبل».

كان روبارتو لا يجهل قصّة تتحدّث عنها فرنسا بكاملها. كان المركيز دي سانك مارس قد حاول إقناع الملك بطرد ريشليو، وريشليو أقنع الملك بأن سانك مارس كان يحبك المؤامرات ضدّ المملكة. وفي ليون وقف المتهم امام الجلاّد وقفة شرف ووقار، ولكن هذا الأخير لعب برقبته بشراسة فيها من الإهانة ما جعلت الجموع المستنكرة ترتمي عليه وتمثّل به.

وعندما أراد روبارتو أن يجيب، وقد تملّكه الرعب، أوقفه الكاردينال بحركة من يده قائلا: «كفى، يا سان باتريتسيو،» وفهم روبارتو انه استعمل ذلك الإسم ليذكره بأنه أجنبيّ؛ ومن ناحية أخرى كان يحدّثه بالفرنسية، بينما كان بإمكانه ان يخاطبه بالإيطالية. «إنك قد

استسلمت إلى رذائل هذه المدينة وهذا البلد. وكما كان يقول نيافة الكاردينال، خفّة عقل الفرنسيين المعتادة تجعلهم يرغبون في التغيير لما يشعرون به من ضيق بالأمور الراهنة. والبعض من هؤلاء النبلاء خفيفي العقل، والذين خففهم الملك من رؤوسهم، استهواك بخطاباته المخربة. إن حالتك لا تستدعي ان تهتمّ بها أي محكمة. فالدول، التي نحن لا ندخر وسعا في الحفاظ عليها، ستتعرض قريبا للخراب لو طالبنا بخصوص المؤامرات التي تدبّر ضدّها ببراهين في نفس وضوح البراهين التي تتطلبها الجرائم العادية. لقد شاهدوك منذ ليلتين تتحادث مع بعض أصدقاء «سانك مارس»، الذين تلفظوا مرة أخرى بأحاديث فيها خيانة عظمى للدولة. من رآك بينهم يملك ثقتنا، بما انه حشر بينهم بإذن منا. وهذا يكفي. هيّا إذن،» ـ وأومأ بضيق ـ «لم نطلبك لنسمع منك احتجاجات بأنك بريء، إهدأ إذن واصغ اليّ».

لم يهدأ روبارتو، ولكنه خرج ببعض الاستنتاجات: في نفس الوقت الذي كانت فيه ليليا تلمس يده، كان أحد يشاهده في مكان آخر يتآمر ضدّ الدولة. كان مزارينو مقتنعا اقتناعا يجعل الظن يصبح أمرا واقعا. كان الكثيرون يقولون ان غضب ريشليو لم يهدأ بعد، وكثيرون كانوا يخافون ان يختارهم ليجعل منهم عبرة جديدة. وروبارتو، مهما كانت الطريقة التي اختير بها، كان لا محالة هالكا.

كان بإمكان روبارتو ان يفكّر في أنه توقف مرّات عديدة، وليس فقط منذ ليلتين، للتحادث مع آخرين عند خروجه من صالون رامبويّي؛ وأنه ليس من المستحيل ان يكون من بين المتحادثين بعض من أصدقاء دي مارس؛ وأن مزارينو، ان كان يريد هلاكه لسبب ما، كان يكفيه ان يؤوّل تأويلا لئيما أي جملة نقلها اليه جاسوسه... ولكن أفكار روبارتو كانت بطبيعة الحال أفكارا أخرى تؤكد تخوّفاته: وهي ان أحدهم شارك في اجتماع تدبّر فيه الدسائس مستعملا وجهه واسمه.

وهذا يكفي لكي يعدل عن كل محاولة للدفاع عن نفسه. ما لم يفهمه إلى الآن هو لأي سبب ـ إن كان الحكم بشأنه قد صدر ـ يتحمّل الكردينال مشقّة إعلامه بالمصير الذي ينتظره. فهو ليس المتلقّي لأيّ رسالة، بل هو اللغز، والأحجية التي ينبعي على آخرين، في شكّهم حول إرادة الملك، أن يفكّوا رموزها. بقي صامتا ينتظر توضيحا.

«انظر يا سان باتريتسيو، لو لم يشرفنا البابا وإرادة الملك منذ عام بتعييننا في هذا المنصب الكنسي، لقلنا ان العناية الإلهية هي التي قادت تهوّرك. كنّا نراقبك منذ وقت غير قصير، ونتساءل كيف سيمكننا ان نطلب منك ان تقدّم لنا عملا لست مطالبا بالقيام به. وتقبّلنا الانزلاقة التي وقعت فيها منذ ثلاث ليال كهبة طريفة من السماء. الآن أنت مدين لنا، ووضعيتنا إزاءك تغيرت، ولا أتكلّم عن وضعيتك أنت».

ـ «مدين؟»

ـ «مدين لنا بالحياة. بطبيعة الحال ليس بمقدورنا ان نعفو، ولكن التوسّط لصالحك يبقى من مشمولاتنا. لنقل أنه بإمكانك ان تفلت من صرامة القانون بالهرب. بعد سنة، أو ربما أكثر، ستختلط دون شك ذاكرة الشاهد، وسيحلف دون خوف من العار ان الشخص الذي رآه منذ ثلاث ليال ليس أنت؛ وربما تأكد بعد ذلك انك كنت في تلك الساعة في مكان ما تلعب التريك تراك مع القائد دي بار. عندئذ ـ وليس هذا قرارا، انه افتراض، وربما حدث عكس هذا، ولكننا واثقون من حدسنا ـ سيعترف لك بحقك وترد اليك كامل حريتك». ثم أضاف «اجلس من فضلك. أريد أن أعرض عليك مهمّة».

جلس روبارتو مستفهما: «مهمّة؟»

ـ «مهمّة دقيقة. ولا أخفي عنك انه لن تنقصك أثناءها الفرص لكي تفقد الحياة. ولكن هذا هو الاتفاق: سنمنحك الطريقة للنجاة من الجلاّد، وستبقى لك فرص سانحة عديدة للرجوع حيّاً وبعافية، اذا ما كنت حصيفا. لنقل سنة من المحن، مقابل حياة كاملة».

فقال روبارتو، الذي رأى ان صورة الجلاد على الأقلّ بدأت تتلاشى: «يا نيافة الكاردينال، إنني فهمت انه لا جدوى لي من أن أحلف على شرفي أو على الصليب، أنه..».

ـ «سنكون عديمي الرحمة لو نفينا مطلقا براءتك أو نفينا قطعا أننا ضحية التباس. الا ان الالتباس يتفق تماما مع مشاريعنا ولا نرى داعيا لرفعه. ومن ناحية أخرى لا أظنك تقصد أننا نعرض عليك صفقة دنيئة، كمن يقول إمّا أن تكون بريئا تحت شفرة الجلاد أو مجرما معترفا بجرمه، كذبا، في خدمتنا..».

ـ «حاشا أن تكون لديّ هذه الظنون المنافية لمشاعر احترامي، يا نيافة الكردينال».

ـ «إذا نحن نعرض عليك بعض المخاطر المحتملة، ومجداً مؤكداً. وسنقول لك كيف وقع نظرنا عليك، قبل ان نعلم بوجودك في باريس. المدينة، كما تعلم، تتحدث كثيرا عمّا يقع في الصالونات، وباريس كلّها تحدّثت منذ مدّة عن سهرة تميّزت خلالها ولفتّ أنظار العديد من السيدات. باريس بأجمعها، ولا تخجل. إننا نشير إلى تلك الأمسية التي تحدّثت فيها ببراعة عن فضائل ما يسمّى بمسحوق الانجذاب، وبطريقة (هكذا يقال في تلك الأماكن، أليس كذلك؟) تضيف السخرية فيها إلى ذلك الموضوع طعما، والجناس لطافة، والحكمة وقارا، والمبالغات ثراء، والمقارنات نفاذ بصر..».

ـ «يا نيافة الكاردينال، لقد أعدت أشياء سمعتها، لا غير..».

ـ «إنني أقدّر تواضعك، ولكن يبدو لي أنك برهنت عن معرفة طيبة ببعض أسرار الطبيعة. ولذا يلزمني رجل له نفس هذا العلم، رجل غير فرنسي، ليتسلّل، دون ان يعرّض اسم الملك للشبهات، فوق سفينة ستبحر من أمستردام قصد اكتشاف سرّ جديد، له علاقة، بشكل ما، باستعمال ذلك المسحوق».

ودحض مرة أخرى اعتراضا من قبل روبارتو: «لا تخف، إننا بحاجة إلى ان تعرف جيدا عمّا نبحث، حتى تتمكن من قراءة الدلالات الأكثر غموضا. نريدك مطلعا اطلاعا كاملا على الموضوع، بما اننا نرى انك مستعدّ كامل الاستعداد لخدمتنا. سيكون لك أستاذ متميّز، ولا يخدعنّك صغر سنّه». ثم مدّ ذراعه وجذب حبلا. لم يسمع روبارتو شيئا ولكن الحركة أحدثت دون شكّ صوتا ما عن طريق جرس أو شيء آخر ـ أو هذا ما استنتج روبارتو في زمن كان فيه كبار الأسياد لا يزالون يصيحون بصوت مرتفع لمناداة الخدم.

وفعلا بعد برهة صغيرة دخل القاعة وهو ينحني بتبجيل، شاب لا يبدو عليه انه تجاوز سن العشرين.

وبادره مزارينو: «أهلا بك يا كولبار، هذا هو الشخص الذي حدثتك عنه اليوم»، ثم أضاف متحدثا إلى روبارتو: "كولبار، الذي بدأ يتعلّم شيئا فشيئا الأسرار التي تحكم إدارة الدولة، أخذ يهتمّ منذ مدة بمسألة كانت من أهمّ مشاغل الكاردينال دي ريشليو، وإذن من أهمّ مشاغلي. ربما أنت تعرف، يا سان باتريتسيو، انه قبل ان يمسك الكاردينال بدقّة هذه السفينة الكبيرة التي قبطانها هو لويس الثالث عشر، كانت البحرية الفرنسية لا اعتبار لها أمام بحريات أعدائنا، سواء كان ذلك في الحرب أم في السلم. اليوم بإمكاننا ان نفتخر بترساناتنا، وبأساطيلنا سواء في المشرق أو في المغرب، وأنت تتذكر دون شك النصر الباهر الذي حققه منذ ما لا يزيد عن ستة أشهر مركيز بريزي، عندما نشر أمام برشلونة أربعا وأربعين سفينة حربية، وأربعة عشر قادسا، ولا أذكر عدد المراكب الأخرى. ودعّمنا مستعمراتنا في «فرنسا الجديدة»، وأكّدنا سيطرتنا على المارتنيك وعلى الغوادالوب، وعلى جزر عديدة أخرى في بحر البيرو، كما كان يحلو للكاردينال ان يقول. وبدأنا في تكوين شركات تجارية، حتى وان لم نحصل بعد على نجاح كبير إلاّ أنه للأسف، في المقاطعات المتحدة، في انجلترا، وفي

البرتغال وفي إسبانيا ليست هناك عائلة من الأشراف لا تملك عضوا منها يتاجر عبر البحار؛ إلاّ في فرنسا، للأسف. وهذا دليل على أننا ربما نعرف ما فيه الكفاية عن «العالم الجديد»، ولكننا لا نعرف الا قليلا عن العالم الجديد جدا. بيّن يا كولبار لصديقنا كيف ان تلك الجهة من الكرة الأرضية لا تزال تبدو خالية من الأراضي».

فحرّك الشاب الكرة الأرضية وابتسم مزارينو بحزن: "للأسف، هذه المساحات المائية ليست فارغة لأن الطبيعة بخيلة بالأراضي؛ انها فارغة لأننا لا نعرف الاّ القليل عن سخائها. ومع ذلك، بعد اكتشاف طريق غربية نحو جزر «مولوخ»، صار الرهان متمثّلا في كامل تلك المنطقة الشاسعة والمجهولة الممتدة بين السواحل الغربية للقارة الأمريكية والامتداد الأخير الشرقي لآسيا. أتحدث عن المحيط المسمّى بالهادي، كما أراد البرتغاليون ان يسمّوه، والذي توجد فيه دون شك الأرض الجنوبية المجهولة، التي لا نعرف منها الا جزرا قليلة وبعض السواحل، ولكننا نعرف انها تحتوي على خيرات لا حدّ لها. فوق تلك البحار يجول اليوم ومنذ زمن مغامرون كثيرون لا يتكلمون لغتنا. وصديقنا كولبار يغذي الأمل، الذي لا أظنه مجرّد أحلام شبابية، في خلق حضور فرنسي في تلك البحار. إضافة إلى اننا نعتقد أن أول من وضع قدمه على تلك «الأرض الجنوبية» هو فرنسي، السيّد دي قونّوفيل، وذلك قبل ستة عشر عاما من بعثة ماجلاّن. ومع ذلك، فإن ذلك الرجل النبيل أو ذلك الكنسيّ مهما أردنا أن نسمّيه، نسي أن يسجّل على الخارطات المكان الذي وصل اليه. هل يمكن ان نظن أن رجلا شريفا ونزيها مثله تغافل إلى هذا الحدّ؟ بدون شك لا، إلاّ أنه في تلك العهود الغابرة لم يعرف كيف يحلّ مسألة من المسائل حلاّ كاملا. وهذه المسألة، التي تتساءل بكل تأكيد عن طبيعتها، لا تزال إلى اليوم أمرا غامضا بالنسبة الينا نحن أيضا».

ثم توقف برهة، وفهم روبارتو أنه بما أن الكردينال وكذلك كولبار

كانا يعرفان، إن لم نقل الحلّ، فعلى الأقلّ اسم السرّ الغامض، فالاستراحة ليست الاّ دعوة موجهة اليه للتدخل. ورأى انه من الأفضل ان يلعب دور المتفرّج المفتتن، وسأل: «وما هو هذا السرّ الغامض، من فضلك؟»

عندئذ ألقى مزارينو على كولبار نظرة تواطؤ وأجاب: "إنه سرّ خطوط الطول». وأيّده كولبار بوقار.

وواصل الكردينال: «ولحلّ مسألة الـPunto Fijo هذه، وعد فليب الثاني منذ سبعين عاما بثروة عظيمة، وبعده وعد فيليب الثالث بإيراد أبدي بستة آلاف دوكا وبدخل عمري يساوي ألفين، و"الدول العامة الهولندية» وعدت بثلاثين ألف فلورينا. ولم نبخل من جهتنا بالمساعدات المالية لفائدة علماء قديرين في الفلك... بالمناسبة يا كولبار، ذلك الدكتور موران، منذ ثماني سنين وهو ينتظر..».

ـ «يا نيافة الكردينال، لقد قلتم شخصيا ان قصّة اختلاف المنظر القمري ليست الا وهما..».

ـ «صحيح، إلاّ انه للدفاع عن فرضيته القابلة جدا للشك، درس وبحث بجدّ وانتقد الفرضيات الأخرى. لنشركه في هذا المشروع الجديد، ربما أنار السيد دي سان باتريتسيو. لنمنحه جراية، لا شيء مثل المال يشجع على المثابرة. إن كانت فكرته تحتوي على حبّة من حقيقة فسنتمكن من التأكد منها وفي نفس الوقت نتفادى،لو أحسّ بنفسه منبوذا في بلده، أن يستجيب لدعوات الهولنديين. يبدو لي ان الهولنديين فعلا، إزاء تردّد الإسبان، بدأوا يتعاملون مع ذلك المسمّى غاليلي، ويجب ان لا نبقى خارج هذا السباق..».

عند ذلك تدخل كولبار مترددا: «يا نيافة الكردينال، أذكّر حضرتك ان غاليلي توفي في بداية هذه السنة..».

ـ «صحيح؟ نرجو من الإله ان يسعده في الآخرة، أكثر ممّا قدّر له أن يسعد في هذه الدنيا».

ـ «وعلى كل حال حتى الحلّ الذي أتى به والذي كان يبدو نهائيا، اتضح في نهاية الأمر انه ليس كذلك..».

ـ «لقد سبقت أفكارنا يا كولبار. ولكن لنفترض ان حلّ موران هو الآخر لا يساوي فلساً. لا بأس، سنسانده على كل حال، حتى تتّقد من جديد نار النقاش حول تلك الأفكار، ولنستثر فضول الهولنديين: لنُغْرِهِ بمواصلة العمل ونضع أعداءنا لمدة من الزمن في طريق خاطئة. لن نخسر على كل حال الأموال التي صرفناها. ولكننا تحدثنا عن هذا بما فيه الكفاية. واصل من فضلك، وبينما يتعلّم منك سان باتريتسو، أتعلّم أنا أيضا».

فردّ كولبار وقد احمرّ وجهه خجلا: «القليل الذي تعلّمته يعود الفضل فيه إلى حضرتكم. ولكن طيبة قلبكم تشجّعني على أن أبدأ» ربما جعلته هذه الكلمات يحسّ بنفسه في مكان أليف، لأنه رفع رأسه، بينما كان قد تركه إلى ذلك الحين منخفضا، واقترب بخفّة من الكرة الأرضية قائلا: «يا حضرات السادة، وسط المحيط ـ حيث حتى عندما تعترضنا أرض لا نعرف تحديدا أي أرض هي، وعندما نبحر نحو أرض معروفة نتقدم أياما وأياما وسط امتدادات لا تنتهي من المياه ـ لا يملك البحّار من وسيلة الاّ الكواكب لمعرفة موقعه. وبآلات اشتهر بها الفلكيون القدامى، يرسم ارتفاع الكوكب على الأفق، ومنه يستمدّ المسافة التي تفصله عن السمت وبمعرفة انحنائه، وبما ان البعد عن السمت وكثرة أو قلة الانحناء تعطينا خط العرض، فنحن نعرف على الفور على أي خط استواء نوجد، أو بالأحرى موقعنا شمالا أو جنوبا من نقطة ما معروفة لدينا. يبدو لي ان هذا واضح».

فقال مزارينو: «في متناول طفل صغير،»

وواصل كولبار: «ربما اعتقدنا أنه بمقدورنا أن نعرف أيضا موضعنا شرقا أو غربا من نفس النقطة المذكورة، أعني على أي خط طول، أو بالأحرى على أي هاجرة. كما يقول ساكروبوسكو، الهاجرة هي دائرة

تمرّ من قطبي الكرة الأرضية، وعلى خط السمت الموجود فوق رؤوسنا. ويسمّى الهاجرة، لأنه مهما كان المكان الذي يوجد فيه المرء ومهما كانت الفترة من السنة، عندما تصل الشمس إلى سمتها، في ذلك المكان وبالنسبة إلى ذلك المرء يكون منتصف النهار. ولكن للأسف، ولسرّ طبيعي خفيّ، جميع الطرق المستنبطة لتحديد خط الطول أخفقت. وربما تساءل الجاهل ما أهميّة ذلك؟ أجيبه ان لذلك أهميّة بالغة».

كانت ثقته بنفسه تزداد شيئا فشيئا، وأدار الكرة الأرضية مشيرا إلى حدود أوروبا: «خمس عشرة درجة من الهاجرة تقريبا، تفصل باريس عن براغ، أكثر من عشرين بقليل عن جزر كناري. ماذا ستقول عن قائد جيش بري يظن أنه يقاتل في الجبل الأبيض وعوض ان يقتل بروتاستيين يقتل دكاترة السربون في جبل سانت جينوفياف؟»

فابتسم مزارينو وبسط يديه إلى الأمام، كمن يأمل ان تقع أشياء من ذلك القبيل على خط الطول الصحيح.

وواصل كولبار قائلا: "المأساة هي أن مثل هذه الأخطاء تقع بسبب الاعتماد على الوسائل المستعملة حاليا لتحديد خطوط الطول. وهكذا يحدث مثلما حدث منذ ما يقرب من قرن لذلك الإسباني مندانيا، الذي اكتشف جزر سليمان، وهي أراض حباها الرب بالغلال على سطح الأرض وبالذهب في باطن الأرض. مندانيا هذا حدّد موضع تلك الأرض التي اكتشفها، ثم عاد إلى وطنه لتبليغ الخبر، وفي أقل من عشرين سنة جهزت له أربع سفن للعودة اليها وليبسط عليها نهائيا سلطة جلالتهم المسيحية كما يقال هنالك، وماذا حدث؟ لم يقدر مندانيا على العثور من جديد على تلك الأرض. والهولنديون لم يبقوا مكتوفي الأيدي، وفي بداية هذا القرن أحدثوا شركة بلاد الهند، وجعلوا من باتافيا في آسيا نقطة الانطلاق لبعثات عديدة أخرى نحو الشرق وصلت إلى هولندا الجديدة؛ بينما أراض أخرى تقع تقريبا شرقي جزر سليمان، اكتشفها في الأثناء قراصنة أنجليز، لم تتوان محكمة سان جياكومو عن منحهم ألقابا

شرفية. ولكن لم يعثر أحد على جزر سليمان، وهذا ما جعل الكثيرين يظنون انها ليست الاّ أسطورة. إلاّ أنه، أسطورية كانت أم حقيقية، فمندانيا قد بلغها حقّا، ولكنه حدّد موقعها على خط العرض تحديدا صحيحا ولكنه أخطأ في تحديد موقعها على خط الطول. وحتى إن هو حدّدها، بمعونة إلهية، بطريقة صحيحة، فالملاّحون الآخرون الذين بحثوا عن خطّ الطول ذلك (وهو نفسه في سفرته الثانية)، لم يكونوا يعرفون بوضوح موقعهم على خط الطول. وحتى إن كنّا نعرف أين توجد باريس، ولكننا لا نقدر على تحديد إن كنّا نوجد في إسبانيا أو في بلاد الفرس، فهذا يعني، يا حضرات السادة، أننا مثل عميان يقودون عميانا آخرين».

فجازف روبارتو قائلا: «غريب، إنني لا أكاد أصدّق أننا لا نعرف الاّ القليل، مع كلّ ما سمعته عن تقدّم العلوم في عصرنا هذا».

ـ «لن أحدّثكم عن كل الوسائل التي جرّبت، ايها السادة، من تلك التي تستعمل الكسوف القمري إلى تلك التي تأخذ بعين الاعتبار تغيرات الإبرة المغناطيسية، التي انكبّ عليها حديثا بالدرس صاحبنا لي توليّي، ولا أذكر منهج لوش، الذي علّق عليه صديقنا شومبلان آمالا كبيرة... ولكنه اتضح انها جميعها عديمة الجدوى، وسيبقى الأمر على هذا الحال إلى ان تجهّز فرنسا مرصدا، تجرّب فيه جميع الافتراضات. هناك بطبيعة الحال طريقة ناجعة: أن نجعل على متن السفينة ساعة تحمل توقيت هاجرة باريس، وأن نحدّد في البحر ساعة المكان، ثمّ نستنتج من الفارق ابتعاد خطّ الطول. هذه هي الكرة الأرضية التي نعيش فوقها، ويمكنكم أن تلاحظوا كيف ان حكمة القدامى قسّمتها إلى ثلاثمائة وستين درجة من خطوط الطول، وينطلق الحساب عادة من الهاجرة التي تمرّ عبر جزيرة الحديد في كناري. والشمس في تحركها عبر السماء (وإن كانت هي التي تتحرك، أو كما يقال الآن، الأرض هي التي تتحرّك، فهذا لا يهمّ بالنسبة إلى ما يشغلنا) تقطع في ظرف ساعة

خمس عشرة درجة من خطوط الطول، وعندما يكون في باريس، كما هو الآن، منتصف الليل، على بعد مائة وثمانين درجة من خط طول باريس يكون منتصف النهار. لذا يكفي ان نعرف بيقين ان الساعة في باريس تشير فرضاً إلى منتصف النهار، وان الساعة في المكان الذي نوجد فيه تشير إلى السادسة مساء، ثم نترجم فارق الساعات بحساب خمس عشرة درجة بالنسبة إلى كلّ ساعة، وسنعرف اننا نوجد على بعد تسعين درجة من باريس، وإذن، حسب التقريب، هنا،» وأدار الكرة الأرضية مشيرا إلى نقطة في القارة الأمريكية. «إلاّ أنه، إن كان من السهل تحديد ساعة المكان المسجّل، فمن الصعب جدا الاحتفاظ على متن السفينة بساعة تشير دائما إلى الساعة الصحيحة بعد شهور من السفر فوق سفينة تهزّها الرياح، وتحمل حركتها حتى أحذق الآلات الحديثة على الخطأ، ولا أتحدث عن الساعات الرملية وتلك المائية،التي لكي تعمل بطريقة صحيحة، تحتاج إلى سطح مستو وثابت».

عندئذ قاطعه الكاردينال: «لا أظن ان السيد دي سان باتريتسيو يحتاج إلى أكثر من هذه المعلومات، يا كولبار. سيحصل على توضيحات أخرى أثناء سفره نحو أمستردام. بعد ذلك لن نكون نحن معلّميه بل نأمل ان يعلّمنا هو أشياء جديدة. وفعلا، يا عزيزي سان باتريتسيو، الكاردينال، الذي كان نظره ولا يزال ـ طويلا ان شاء الله ـ أبعد من نظرنا، وضع منذ مدة طويلة شبكة من المخبرين الأوفياء، يسافرون من بلد إلى آخر، ويتردّدون على الموانى، يسألون الربابنة الذين يستعدون للإبحار أو العائدين من السفر، للاطلاع على ما تفعله الدول الأخرى وما تعرفه ولا نعرفه نحن، بما أن البلد ـ وهذا يبدو لي واضحا ـ الذي يكتشف سرّ خطوط الطول، ويمنع ان يتفشّى ذلك السرّ، سيكون له تفوق كبير على الآخرين. الآن،» ـ وهنا توقف مزارينو مرّة أخرى، ومرّة أخرى أيضاً مسح شاربيه، ثم جمع راحتيه كمن يركّز وفي نفس الوقت يستلهم عونا من السماء.

ـ «الآن بلغنا ان طبيبا أنجليزيا، الدكتور بيرد، ابتدع طريقة جديدة وغريبة لتحديد الهاجرة، تعتمد على استعمال مسحوق الانجذاب. لا تسألنا كيف، يا عزيزي سان باتريتسيو، لأنني لا أعرف إلاّ بعناء اسم هذه البدعة الشيطانية. نعرف بكلّ تأكيد ان المعني بالأمر هو ذلك المسحوق، ولكننا نجهل المنهج الذي ينوي بيرد اتباعه، وجاسوسنا ليس عالما بالسحر الطبيعي. إلاّ أنه من المؤكد ان الأميرالية الإنجليزية سمحت له بتجهيز سفينة لعبور بحار المحيط الهادي. والأمر على قدر من الخطورة جعل الإنجليز يتحرزون من إعلان ان السفينة سفينتهم. إنها على ملك هولندي يتظاهر بالشذوذ ويزعم انه يريد اقتفاء أثر اثنين من مواطنيه، اكتشفا قبل الآن بخمس وعشرين سنة ممرّا جديدا بين الأطلنطي والهادي، فيما وراء مضيق مجلاّن. ولكن بما ان كلفة المغامرة يمكن ان تشير إلى وجود تمويل من قبل دولة لها مصلحة في ذلك، أعلن الهولندي انه يقبل على سفينته بضاعة ومسافرين، كمن يريد ان يواجه بذلك كلفة الرحلة. ومن غريب الصدف انه من بين المسافرين سيكون هناك الدكتور بيرد وثلاثة من مساعديه، يقدمون أنفسهم على انهم من جامعي النباتات الغريبة. في الحقيقة ستكون الرحلة تحت مراقبتهم الكليّة. وستكون أنت من بين المسافرين يا سان باتريتسيو، وسيهتمّ عوننا في أمستردام بكل شيء. وستتقدّم على أنك واحد من أشراف سافويا، تفتّش عنه العدالة في جميع أنحاء البلد، رأى أن يختفي مدّة طويلة في البحر. كما ترى، لن تضطرّ حتى إلى الكذب. صحّتك رقيقة جدا ـ والألم الذي تحسّ به في عينيك، كما قيل لنا، سيكون اللمسة التي ستكمل مشروعنا. أنت مسافر يقضي أغلب وقته في مكان مغلق، وعلى وجهه بعض المراهم، وما عدا ذلك لا يرى أبعد من أنفه. وبينما تتجول وأنت تهذر ذاهلا، في الحقيقة تفتح جيدا عينيك وترهف سمعك. نحن نعرف انك تفهم الإنجليزية، تظاهر بجهلك اياها، وهكذا يتحدث أعداؤنا بحرية مطلقة في حضورك. وإن كان هناك أحد على متن السفينة يفهم الإيطالية أو الفرنسية، إلق بعض الأسئلة، وتذكر الأجوبة

التي سيعطونك اياها. ولا تزدر التحادث مع رجال من السوقة، فببعض المال سيخرجون لك حتى أمعاءهم. وليكن المال قليلا، حتى يبدو هبة، لا مكافأة، وإلاّ ساورتهم الشكوك. ولا تسأل أبدا بطريقة مباشرة، والسؤال الذي ألقيته اليوم، أعده بعبارات مختلفة في اليوم الموالي، فإن كذب عليك في المرّة الأولى، فسيتّضح ذلك في تناقض أجوبته: فالسوقة ينسون الهراء الذي تلفظوا به، وفي اليوم الموالي يبتدعون أشياء تناقض أقوالهم الأولى. ومن ناحية أخرى ستتعرّف بسهولة على الكاذب: عندما يضحك تتكون في خدّيه شبه حفرتين، ويحمل أظافر قصيرة جدا؛ وحاذر كذلك من قصار القامة، لأنهم يكذبون بدافع الزهو. على كلّ حال ستكون محادثاتك مع هؤلاء قصيرة، ولا تظهر لهم أنك استمددت منها فائدة: الشخص الذي يجب أن تتحدّث معه كما ينبغي هو الدكتور بيرد، وسيبدو ذلك طبيعيا لأنه الوحيد الذي يوافقك من ناحية الثقافة. إنه رجل علم، وهو يتكلّم الفرنسية، وربما الإيطالية، وأكيدا أيضا اللاتينية. وأنت مريض، وستطلب منه بعض النصح والمساندة. لن تفعل مثل أولئك الذين يأكلون التوت أو التراب الأحمر زاعمين انهم يبصقون الدم، ولكنك ستجعله يقيس نبضك بعد العشاء، ففي تلك الساعة يبدو المرء دائما وكأنه مصاب بالحمّى، وستقول له انك لا تغمض عينا أثناء الليل؛ وهذا سيبرّر تجوالك أثناء الليل صاحيا، وسيحدث ذلك دون شك اذا ما قاموا بتجاربهم مع النجوم. بيرد هذا هو دون شك من الموسوسين، مثل جميع أهل العلم: ابتدع أشياء غريبة وحدّثه عنها، كما لو أطلعته على سرّ من أسرارك، وسترى أنه سيطلعك هو الآخر على الغرائب التي ابتدعها والتي تمثّل سرّه المكنون. بيّن له اهتمامك، ولكن تظاهر بأنك لا تفهم الا القليل أو لا شيء، بهذه الطريقة سيحدّثك عنه مرة ثانية وبتفصيل أكبر. أعد ما قاله لك كما لو فهمت، وارتكب بعض الأخطاء، حتى يسارع من غروره إلى تصويبك، مفسّرا بدقّة ما كان يجب عليه ان يكتم. لا تؤكد أبدا شيئا ما، بل لمّح دائما: التلميح مجعول لجسّ النبض، واستنطاق القلوب. اجعله يطمئن إليك:

إن كان ميالاً للضحك، اضحك معه، وإن كان صفراويّ المزاج تصرّف كما لو كنت أنت أيضا صفراوي المزاج، ولكن عبّر دائما عن إعجابك بعلمه. إن كان غضوبا وأهانك، تحمّل الإهانة، واعلم انك بدأت في عقابه قبل ان يبدأ هو في إهانتك. في البحر الأيام طويلة والليالي لا نهاية لها، ولا شيء يخفّف من السأم على انجليزي أكثر من كؤوس عديدة من تلك الجعة التي يحمل الهولنديون منها دائما ذخيرة في قاع السفينة. تظاهر بحبّك الشديد لذلك الشراب وشجّع صديقك الجديد على تناوله واجعله يشرب أكثر منك. ربما ساورته الشكوك يوما بخصوصك، وأمر بتفتيش غرفتك: لذا لن تترك أي ملاحظة مكتوبة، ولكن ستكون لك يوميّة تكتب فيها عن حظك التعيس، أو عن العذراء أو عن القديسين، أو عن المحبوبة وعن يأسك من رؤيتها يوما ما، وفي اليومية ستدوّن بعض الملاحظات حول خصائل الدكتور، وستثني عليه كالصديق الوحيد الذي تملكه على متن السفينة. ولا تنقل من أحاديثه شيئا عن الموضوع الذي يعنينا، بل اذكر ما تفوّه به من أقوال حكيمة، لا يهمّ فحواها أو طبيعتها: مهما كانت غثّة فبالنسبة اليه ليست كذلك بما أنه تفوّه بها، وسيسرّ لأنك احتفظت بها. باختصار، ليس هدفنا ان نلقنّك دروسا في علم المخابرات: ليست أشياء يتقنها رجل دين. اعتمد على حدسك، كن حذرا بتبصّر وكن بصيرا بحذر، واجعل حدّة نظرك متناسبة عكسا مع صيته ومتناسبة مع حضور بديهتك».

ونهض مزارينو، موضّحا للزّائر ان المحادثة قد انتهت، وحتى يبيّن سيطرته عليه قبل ان ينهض بدوره، أضاف «اتبع كولبار. سيضيف لك معلومات أخرى ويعهد بك إلى الأشخاص الذين سيقودونك إلى أمستردام للإبحار. انصرف وليكن حظك سعيدا».

كانا على وشك الخروج عندما ناداهما الكاردينال من جديد: «آه، لقد نسيت يا سان باتريتسيو. لقد فهمت دون شك أننا سنقتفي أثرك من هنا إلى المرفأ الذي ستبحر منه خطوة خطوة، ولكنك تتساءل كيف لا

نخشى بعد ذلك، وعند أول محطّة، أن يسترجع طائر الغاب حريّته. لا نخاف ذلك ولا نظنّه في صالحك. لن يمكنك الرجوع إلى هنا، حيث ستصبح هاربا يفتّشون عنه في كل مكان، وإن نفيت نفسك في مكان ما هنالك، ستعيش دائما مع الخوف من أن يجدك أعواننا. وفي كلتا الحالتين ستضطرّ إلى التنازل عن اسمك وعن مقامك. ولا نظن أبدا أن رجلا مثلك يمكن أن يبيع نفسه إلى الإنجليز. وماذا سيمكنك أن تبيع؟ فكونك جاسوسا هو سرّ، إن أنت أردت بيعه، فذلك يعني أن تفشيه، وإذا ما أفشيته فلن يساوي بعد ذلك شيئا، إلاّ ربما ضربة خنجر. أما إذا عدت الينا، بمعلومات حتى وان كانت متواضعة، فستستحقّ تقديرنا. لن نفعل حسنا لو طردنا رجلا أظهر قدرته على مواجهة مهمّة في مثل هذه الصعوبة. ما تبقّى هو رهين قرارك. حظوة العظام ينبغي المحافظة عليها بغيرة، حتى لا تضيع، وينبغي تطعيمها بالخدمات حتى تدوم: ستقرّر عند ذلك الحدّ ان كان اخلاصك لفرنسا من المتانة بحيث ينصحك ان تكرّس مستقبلك لملكها. يقولون انه حدث لبعضهم ان ولدوا في بلدان أخرى ووجدوا حظّهم في باريس».

كان الكاردينال يقدّم نفسه كمثال للمخلص الذي كوفىء على ولائه. ولكن بالنسبة لروبارتو لم تعد المسألة عند ذلك الحدّ مسألة مكافأة. لقد فتح الكاردينال أمامه أبواب المغامرة، وأفقاً جديداً، ونفخ في روحه حكمة الحياة التي كان جهله اياها، ربما حرمه إلى ذلك الحين من تقدير الآخرين. ربما يحسن به ان يقبل دعوة القدر، الذي يبعده عن آلامه. أما تلك الدعوة الأخرى، قبل ذلك بثلاث ليال، فقد اتّضح كل شيء لديه ما إن بدأ الكاردينال حديثه. فإن اشترك شخص آخر في تدبير مؤامرة، وظن الجميع أنه هو، فقد أوحى اليها دون شك ذلك الآخر تلك الجملة التي عذّبته فرحا وهيّمته غيرة. هناك «آخرون» كثيرون بينه وبين الواقع. وإذن، مرحبا بالانفراد فوق البحار، حيث سيمكنه ان يمتلك الحبيبة بالطريقة الوحيدة المتاحة له. وأخيرا، ليس الكمال في الحب ان تكون معشوقا، بل ان تكون عاشقا.

انحنى على احدى ركبتيه وأجاب: «إنني في خدمة نيافتكم».

أو على الأقلّ هذا ما أرجو، بما انه لا يبدو لي من اللائق ان أجعله يتسلّم تصريح أمان يقول: "بأمر مني وخدمة للدولة قام حامل هذا التصريح بما قام».

18

طرف غريبة

إن كانت دافني،مثل أماريلّي، قد أرسلت للبحث عن الـpunto fijo، فالدخيل إذن خطير. لقد أصبح روبارتو على علم بالصراع العنيف بين دول أوروبا للاستحواذ على ذلك السرّ. كان عليه أن يتهيأ جيّدا وأن يعمل بذكاء. من الواضح ان الدخيل في بداية الأمر كان يعمل أثناء الليل، ثم تحرّك في الخارج عندما بدأ روبارتو يسهر، وإن كان في حجرته، أثناء النهار. أيحسن إذن ان يدخل الفوضى على حساباته، ان يوهمه انه ينام في النهار ويبقى صاحيا أثناء الليل؟ ولماذا، سوف يغيّر عندئذ عاداته. كلاّ، من الأفضل ان يفشل جميع توقّعاته، ان يجعله حائرا بخصوص مشاريعه نفسها، ان يوهمه بأنه نائم بينما هو مستيقظ وان ينام بينما الآخر يظنه مستيقظا...

كان عليه ان يتصوّر ماذا سيظنّ الآخر أنه يظن، أو ماذا يظن انه يظن ماذا هو يظنّ... كان الدخيل إلى ذلك الحين مثل ظلّه، الآن على روبارتو ان يصبح ظلّ الدخيل، وان يتعلّم كيف يتبع أثر من يقتفي أثره هو. ولكن هذه الشباك التي ينصبها احدهما للآخر لا يمكن أن تتواصل إلى ما لا نهاية له، ينفذ احدهما من سلّم بينما ينساب الآخر من السلّم المقابل، أو ينزل الأول إلى قاع السفينة بينما الآخر يقظ على السطح،

أو يهرع احدهما تحت السطح بينما الآخر يصعد ربّما من الخارج محاذيا جوانب السفينة؟

من له شيء من التبصّر سيقرّر في هذه الحال ان يواصل استكشاف باقي السفينة، ولكن لا ننس ان روبارتو لم يعد متبصّرا. لقد استسلم من جديد لشرب العرق، مقنعا نفسه انه يفعل ذلك لتنشيط جسمه. بالنسبة لرجل ألهمه العشق دائما الانتظار، لا يمكن أن يلهمه شراب السلوان قوة العزم. كان يتقدّم إذن ببطء، بينما يظن نفسه مثل البرق. كان يبدو له انه يقفز قفزا، بينما كان في الواقع يحبو على أربع. زد على ذلك انه كان لا يجرؤ إلى ذلك الحين ان يخرج مكشوفا أثناء النهار، ويحسّ بنفسه أكثر قوة في الليل. إلا انه أثناء الليل كان يشرب، ويسلك سلوك الكسول. ما الشيء الذي يبحث عنه عدوّه، كان يتساءل في الصباح. ولكي ينفخ الشجاعة في نفسه، يعود إلى البرميل.

على كلّ حال، في مساء اليوم الخامس قرّر ان يتوغّل في ذلك الجزء من قاع السفينة الذي لم يزره بعد، تحت مخزن المؤن. ولاحظ انه على متن دافني وقع استغلال الفضاءات إلى أقصى حدّ، وبين السطح الثاني والقاع ركّبت ألواح وطوابق، تكونت منها مقاصير يؤدي بعضها إلى البعض بواسطة سلالم متزعزعة؛ ودخل إلى حفرة الحبال، متعثرا في لفائف من مختلف انواع الحبال، لا تزال مشربة بماء البحر. وواصل نزوله إلى ان وجد نفسه في غاطس ثان، وسط صناديق وطرود مختلفة الأنواع.

هنالك وجد مؤنا أخرى من الأكل وبراميل من الماء العذب. كان عليه ان يبتهج لذلك، الا ان الدافع لابتهاجه كان فقط لأنه سيكون بإمكانه مواصلة مطاردته بصفة لانهائية، مع التمتّع بلذّة تأجيلها. التي هي لذّة الخوف.

وراء براميل الماء وجد أربعة أخرى مليئة بالعرق. فصعد إلى

المخزن وتثبّت من البراميل الموجودة هنالك. كانت كلّها مليئة بالماء، ممّا يدلّ على ان برميل العرق الذي وجده في اليوم الفارط حمله أحدهم من الأسفل إلى السطح، قصد اغرائه.

وعوض ان ينشغل بالفخ الذي نصب له، نزل من جديد إلى قاع السفينة، وحمل إلى فوق برميلا صغيرا آخر من العرق، وشرب من جديد.

ثم عاد إلى قاع السفينة، ويمكننا ان نتصوّر الحالة التي كان عليها، وتوقّف عندما وصلت إلى خياشيمه رائحة العفن السائل في القاع. لم يكن باستطاعته ان ينزل أكثر.

كان عليه إذن ان يعود إلى الوراء، نحو مؤخرة السفينة، الا ان الفتيلة كانت على وشك الانطفاء وتعثر بشيء ما، ففهم انه كان يتقدم وسط الصابورة، في ذلك المكان بالضبط حيث هيأ الدكتور بيرد على متن أماريلّي موضع الكلب.

ولكنه في قاع السفينة بالذات، وسط برك من الماء وبقايا مختلفة من الطعام المحفوظ، لاحظ أثر قدم.

تأكّد له حينئذ انه يوجد على متن السفينة دخيل وتأكد له ذلك بصفة جعلت فكرته الوحيدة هي انه تحصّل أخيرا على برهان انه لم يكن مخمورا، وهو دائما البرهان الذي يبحث عنه المخمور عند كل خطوة. على كل حال كان البرهان ساطعا، ان أمكننا ان نصف كذلك تقدّمه وسط عتمة القاع وظلال الفتيلة. تأكد لديه الآن ان الدخيل موجود، ولم يمرّ بخاطره انه في ذلك الذهاب والإياب، ربما ترك هو ذلك الأثر. صعد من جديد وقد قرّر ان يمرّ إلى المواجهة.

كان الوقت عند الغروب. وكان أول غروب يشاهده روبارتو بعد خمسة أيام لم ير منها الا الليل أو الفجر أو الصبح. قليل من السحب السوداء تكاد تكون متوازية تحاذي الجزيرة الأكثر بعدا متجمّعة حول

قمّتها، ومن هنالك تتفرّع كالرماح، نحو الجنوب. وكان الساحل يبرز قاتما على صفحة الماء التي صارت في لون الحبر الفاتح، بينما باقي السماء كان يظهر في لون البابونج باهتا ومنهكا، كأن الشمس لم تكن تقيم هنالك في الأفق حفل تضحيتها، وإنما يأخذها النعاس شيئا فشيئا بينما تطلب من السماء ومن البحر ان يرافقا بهمس خافت استسلامها للنوم.

أما روبارتو فقد عادت اليه على العكس هواجسه الحربية وقرّر ان يدخل الارتباك على العدوّ. ذهب إلى موضع الساعات وحمل منها قدر المستطاع إلى سطح السفينة، مصفّفا اياها مثل أقزام البليار، واحدة حذو الصاري الرئيسي، ثلاثة في طرف المؤخرة، واحدة قرب الرحوية، وساعات أخرى حول شراع الميزان، وواحدة عند كلّ باب وعند كلّ كوّة، بطريقة تجعل من يحاول المرور من هنالك في الظلام يتعثر بها.

ثم دوّر جميع تلك الميكانيكيات (دون ان يتفطّن انه بذلك سيجعلها واضحة للعدوّ الذي يريد مفاجأته)، وقلب الساعات الرملية. وتأمّل راضيا سطح السفينة الموشّح بآلات الزمن، مزهوّا بكل تلك الضجة التي كانت تحدثها، واثقا من انها ستدخل الارتباك على العدوّ وستعثّر طريقه.

بعد أن هيأ تلك الفخاخ المسالمة، كان هو أول من سقط ضحيتها. بينما كان الليل يهبط فوق بحر هادىء مثل الزيت، كان هو ينتقل هنا وهناك بين تلك الحشرات المعدنية، ينصت إلى طنينها المعبّر عن كنه ميّت، ويتأمل في تلك القطرات من السرمدية تذوب دمعة بعد دمعة، يوجس خيفة من تلك الجيوش من السوس دون فم وهي تنهش بنهم (هذا فعلا ما كتب)، تلك العجلات المسننة التي تمزق يومه فتحيله إلى مزق من اللحظات وتفني الحياة وسط موسيقى توحي بالموت.

وتذكر جملة كان يقولها الأب إيمانويل، «يا للروعة لو تمكنّا من

رؤية حركات القلب من خلال زجاج الصدر كما نرى في الساعات!»
بينما كان يتبع في نور النجوم تتابع حبات الرمل وهي تتساقط في شبه همس من إحدى الساعات الرملية، ويتفلسف حول تلك الأكداس من اللحظات، حول أشكال الزمن المتتابعة، حول تلك الشقوق التي تسيل منها الساعات سيلاناً.

الاّ أنه كان يستنتج من نسق الزمن الذي ينقضي إيحاء بموت شخصه، يقترب منه خطوة بعد خطوة، ويقرّب نظره الأحسر ليفكّ رموز لغز الزمن الهارب، وباستعارة قلقة يبدل آلة مائية إلى تابوت سائل، وفي النهاية كان يرغي ويزبد ضدّ اولئك الفلكيين اللئيمين الذين لا يعرفون الاّ تذكيره بالساعات التي انقضت.

ومن يدري ماذا سيكتب بعد هذا لولا انه أحسّ بحاجة إلى ترك روائعه الشعرية، مثلما ترك قبل ذلك روائعه الكرونوميترية ـ وليس لإرادة منه، وإنما لأن في عروقه كان يجري من ماء الحياة أكثر مما يجري فيها من حياة، فترك تلك التكتكة تصير شيئا فشيئا هدهدة مخدّرة.

في صباح اليوم السادس، عندما استفاق على صوت الآلات الأخيرة التي بقيت تعمل، رأى، وسط الساعات، التي حوّلت جميعها من مكانها، كركيان صغيران ينبشان (أكانا حقيقة كركيين؟)، وأثناء نقرهما المضطرب قلبا وكسرا ساعة مائية كانت من أجمل الآلات الموجودة هنالك.

الدخيل، الذي لم يكن خائفا البتّة (وفعلا، لِمَ يخاف وهو الذي يعرف تمام المعرفة من يوجد على متن السفينة؟)، في ردّه على حيلة سخيفة بحيلة لا تقلّ عنها سخفا، حرّر من تحت سطح السفينة الطائرين. كي يدخل الفوضى على سفينتي، كان روبارتو يبكي، كي يظهر لي انه أقوى مني...

وتساءل لماذا اختار الدخيل طائري الكركي، وقد اعتاد ان يرى في

كل حدث دلالة وفي كل دلالة رمزا. ماذا كان يريد ان يقول؟ وحاول ان يتذكر المعنى الرمزي لطائر الكركي، مستحضرا ما قرأه عن بيشينلّي أو عن فاليريانو، دون ان يجد أي جواب. الآن نعرف جيدا انه لم يكن هناك هدف معين أو معنى خفي من وراء ذلك المعرض الحيواني المذهل، وان الدخيل فقد هو الآخر صوابه مثله تماما؛ الا ان روبارتو لم يكن يعرف ذلك، فكان يحاول ان يقرأ ما لم يكن في الحقيقة الا خربشة غضوبة.

سأقبض عليك، سأقبض عليك ايها الملعون، كان يصيح. ومع انه كان لا يزال مثقلا بالنوم، فقد قبض على السيف وهرع من جديد نازلا إلى قاع السفينة، متعثرا في السلالم إلى ان سقط في مكان لم يسبق له ان اكتشفه، وسط حزم من الحطب واعواد قطعت منذ وقت غير بعيد. الا انه في سقوطه اصطدم بالأعواد، وتدحرج معها إلى ان وجد وجهه ملتصقا بدقران تنبعث من تحته رائحة الفنطاس الكريهة. ورأى بطرف عينه عقارب تتحرّك.

من المحتمل ان بعض الحشرات صعدت إلى السفينة مع الحطب الذي حمل فوقها، ولا أدري ان كانت فعلا عقارب، الا ان روبارتو رآها كذلك، قد جلبها بطبيعة الحال الدخيل قصد تسميمه. وللنجاة من ذلك الخطر أخذ يحاول جاهدا ان يصعد عبر سلم صغير؛ ولكن فوق الألواح كان لا يتقدم خطوة واحدة، بل كان يفقد توازنه وحتى لا يسقط كان يتشبث بالسلّم. في نهاية الأمر تمكن من الصعود إلى السطح ورأى انه جرح في إحدى ذراعيه.

من الأكيد انه جرح نفسه بسيفه. وها هو روبارتو، عوض ان يفكر في الجرح، يعود إلى موضع الحطب، ويبحث بلهفة بين الأعواد عن سلاحه الذي كان متسخا بالدم، فيحمله إلى طرف السفينة ويصب ماء الحياة على الشفرة. وعندما رأى ان ذلك لم يخفّف من ألمه، كذّب كلّ مبادىء العلم وصبّ الكحول مباشرة فوق ذراعه. ومن الألم سبّ وشتم

بعض القدّيسين، ثم جرى إلى الخارج حيث بدأ المطر يسقط مدراراً وغاب الكركيان طائرين في السماء. تلك الزخة من المطر أفاقته شيئا ما: تذكر الساعات وأخذ يجري هنا وهنالك ينقلها لحمايتها من المطر، وها هي قدمه تتعثر في شبكة حديدية جعلته يعود إلى حجرته من الألم وهو يقفز على ساق واحدة مثل الكركي، وهناك خلع ثيابه وكردّ فعل وحيد على كل تلك الأحداث عديمة المعنى، أخذ يكتب بينما المطر يزداد كثافة في بداية الأمر، ثم هدأ، وعادت الشمس بضع ساعات، وأخيرا هبط الليل.

ومن حسن حظنا انه واصل الكتابة، لأننا بذلك عرفنا ماذا حدث له وماذا اكتشف طيلة سفرته فوق أماريلّي.

19

فـنّ الملاحـة الساطع

انطلقت سفينة «أماريلّي» من هولاندا وتوقفت مدة قصيرة في لندن. هناك شحنت خفية شيئا ما أثناء الليل، بينما وقف النوتية في صفّ بين السطح وقاع السفينة، ولم يتمكن روبارتو من الاطلاع على سرّ كل تلك الحركة. ثم أبحرت نحو الجنوب الغربي.

ويصف روبارتو متسلّيا الرفاق الذين وجدهم على متن السفينة. ويبدو ان القبطان لم يدخر جهدا في اختيار مسافرين غريبي الأطوار، شاردي الأذهان، مستعملا اياهم كتعلّة للسفر دون الاكتراث بما يمكن ان يحدث لهم اثناء السفرة. وينقسمون إلى ثلاث فئات: اولئك الذين فهموا ان السفينة ستبحر نحو الغرب (مثل زوجين من غاليتسيا كانا يريدان الالتحاق بابن لهما في البرازيل وشيخ يهودي أقسم العهد على ان يحجّ إلى بيت المقدس متخذا أطول طريق)، ثم اولئك الذين لم تكن لهم فكرة واضحة عن امتداد الكرة الأرضية (مثل بعض المغامرين كانوا يريدون الذهاب إلى جزر «ملوخ» بحثا عن الثروة، وكان بإمكانهم ان يصلوها بطريقة أسرع عن طريق الشرق)، وأخيرا اولئك الذين خدعوا بصفة واضحة، مثل مجموعة من الهراطقة قادمين من وديان البيمونتي كانوا يريدون الالتحاق بالطهريين الإنجليز على السواحل الشمالية للعالم الجديد، ولم يكونوا يعرفون ان السفينة على العكس ستتجه مباشرة نحو

الجنوب، مع محطّة أولى في «ريسيف». وعندما تفطنوا إلى الخدعة، كانت السفينة قد بلغت فعلا تلك المستعمرة ـ كانت آنذاك في أيدي الهولنديين ـ وقبلوا على كل حال ان يبقوا في ذلك المرفأ البروتستاني خوفا من التعرض إلى أخطار أكبر بين البرتغاليين. في «ريسيف» صعد على متن السفينة فارس من فرسان مالطة على وجهه سمات القراصنة، كان يريد العثور على جزيرة، حدّثه عنها بندقيّ، أطلق عليها اسم اسكونديدا، وكان هو لا يعرف موقعها، ولا أحد فوق أماريلي سبق له أن سمع بها. وهذا يدلّ على ان القبطان اختار من المسافرين ما قلّ وندر وجود امثالهم على الأرض.

ولم يعر اهتماما لظروف عيش تلك المجموعة الصغيرة التي احتشدت تحت السطح: طالما كانت السفينة تجتاز المحيط الأطلنطي لم ينقص الغذاء، وتزودت السفينة احيانا على السواحل الأمريكية. الاّ انه بعد ابحار طويل وسط سحب طويلة قطنية وسماء باهتة، وبعد ان فاتت السفينة مضيق ماجلاّن، جميعهم تقريبا، ما عدا الضيوف ذوي المقام، بقوا مدّة شهرين على الأقلّ يشربون ماء يحدث الدوران، ويأكلون خبزا جافا له رائحة بول الفئران. وهلك بعض النوتية مع مسافرين كثيرين آخرين من داء الحفر.

وللبحث عن المؤن صعدت السفينة نحو الغرب طول سواحل «شيلي»، ورست في جزيرة خالية من السكان تطلق عليها خرائط القبطان اسم «ماس أفويرا». وهناك توقفوا ثلاثة أيام. كان طقسها سليماً، ونباتها وافراً، حتى ان فارس مالطة قال انه سيكون من حسن حظ امرء لو القت به الأمواج يوما على تلك السواحل، سيعيش فيها دون شك سعيدا ولن يرغب في الرجوع بعد ذلك إلى بلده ـ وحاول ان يقنع نفسه انها جزيرة «اسكونديدا». على كل حال أكانت «اسكونديدا» أم لا، لو بقيت فيها ـ كان يقول روبارتو لنفسه على دافني ـ الآن لن أكون هنا، خائفا من دخيل لا لشيء الا لأنني رأيت أثر قدمه مطبوعا في قاع السفينة.

ثم هبّت رياح معادية، كما كان يقول القبطان، واتجهت السفينة خلافا لكلّ منطق وجيه نحو الشمال. روبارتو لم يحسّ بتلك الرياح المعادية، بل بالعكس، عندما قرّر القبطان تغيير الوجهة كانت السفينة تسري ناشرة جميع القلوع، حتى ان تحويل الوجهة اضطر المركب إلى ان يميل. من المحتمل ان الدكتور بيرد ورفاقه كانوا في حاجة إلى ان يبقوا على نفس خط الطول للقيام بتجاربهم. على كلّ، مهما كان الأمر فقد انتهى بهم المطاف إلى جزر «غالاباغوس»، حيث تسلّوا بقلب سلاحف عظيمة على ظهرها، وبطهيها داخل دروعها. وتمعّن المالطيّ طويلا في بعض أوراقه ثم قرّر ان تلك الجزيرة ليست «إسكونديدا».

ثم أعيدت الوجهة نحو الغرب، وبعد ان نزلت السفينة إلى ما وراء الدرجة الخامسة والعشرين من خط العرض الجنوبي، تزودوا من جديد بالماء في جزيرة لا تذكرها الخرائط. لم تكن تمنح لزائرها شيئا غير الوحدة الاّ ان الفارس ـ الذي لم يكن يطيق الطعام الذي كانوا يعطونه على السفينة ويضمر كراهية لا حدّ لها للقبطان ـ قال لروبارتو كم يكون جميلا لو وجد إلى جانبه مجموعة من الشجعان، ذوي جسارة وإقدام، يستحوذ معهم على السفينة، ويترك القبطان ومن يريد اتباعه في زورق صغير، ثم يحرق أماريلّي ويستقرّ في تلك الجزيرة، بعيدا عن العالم المعروف، لإنشاء مجتمع جديد. فسأله روبارتو ان كانت تلك الجزيرة «إسكونديدا»، ولكن الآخر هزّ رأسه حزينا.

وبعد ان صعدوا نحو الشمال الغربي بمعونة من الرياح، وجدوا مجموعة من الجزر يسكنها متوحشون ذوو اجسام في لون العنبر، تبادلوا معهم الهدايا وشاركوهم احتفالاتهم، التي كانت مرحة جدا تنشطها صبايا يرقصن بتموجات تشبه بعض الحشائش على الشاطىء تميل وتتموج على سطح الماء. والفارس، الذي لم ينذر دون شكّ على نفسه نذر الطهارة، بتعلّة تصوير بعضهن (وكان يفعل ذلك بشيء من المهارة)، كانت له بالتأكيد علاقات جنسية مع البعض من تلك الفتيات. وأراد

النوتية ان يقلّدوه، فقرّر القبطان تقديم موعد الإبحار. وتردّد الفارس في البقاء: كانت تبدو له طريقة جميلة ان يختم حياته هناك مقضيا أيامه في الرسم والتصوير. ولكنه أعلن في نهاية الأمر ان تلك الجزيرة ليست «إسكونديدا».

ثم واصلوا إبحارهم بعد ذلك دائما نحو الشمال الغربي ووجدوا جزيرة ذات أهالٍ وديعين مسالمين. وتوقفوا فيها يومين وليلتين، وأخذ فارس مالطة يقصّ عليهم حكايات: كان يقصّها في لهجة حتى روبارتو لم يكن يفهمها، فما بالك بأناس الجزيرة، ولكنّه كان يستعين بالرسم على الرمال، ويقوم بحركات مثل ممثّل، مثيرا إعجاب اهل الجزيرة الذين هتفوا به على أنه «توزيتالا، توزيتالا!». وفكّر الفارس مع روبارتو قائلا كم يكون جميلا لو أنهيا أيامهما بين أولئك الأناس، يقصّان عليهم جميع أساطير الدنيا. فسأله روبارتو «ولكن أهذه هي إسكونديدا؟» وهزّ الفارس رأسه بالنفي.

لقد مات أثناء غرق السفينة، كان يفكّر روبارتو فوق دافني، وربما وجدت أنا جزيرته إسكونديدا، ولكنني لن أتمكّن أبدا من ان أقصّ ذلك عليه، ولا على أي أحد آخر. ربما لهذا السبب كان يكتب إلى مولاته. للبقاء على قيد الحياة يجب ان نقصّ الحكايات.

وكانت إحدى تخيّلات الفارس الأخيرة ذات ليلة، قبل أيام قليلة من الغرق وغير بعيد عن موقعه. كانت السفينة تحاذي أرخبيلاً، قرّر القبطان ان لا يقترب منه، بما ان الدكتور بيرد كان يبدو متلهفا لمتابعة الطريق من جديد نحو خط الإستواء. أثناء السفر كان يبدو واضحا لروبارتو ان سلوك القبطان كان مخالفا لسلوك البحارة الذين سمع عنهم انهم يسجّلون بدقة جميع الأقاليم الجديدة التي يمرّون بها، مكملين بهذه الصفة خرائطهم، ويصوّرون أشكال السحب، ويرسمون خطوط السواحل، ويجمعون أشياء محليّة... أمّا أماريلّي فكانت تتقدّم مثل مغارة عائمة يعمل فيها خيماويّ لا يهمّه الاّ ان يواصل عمله السرّي، غير

مكترثة بالدنيا العظيمة التي تنفتح أمامها.

كان الوقت عند الغروب، والسحب في لعبها مع السماء، على صفحة الظل الذي تكوّنه جزيرة، كانت ترسم من جهة مثل أسماك زمرّدية تسبح على القمم. ومن الجهة الأخرى، كانت تنبعث كرات نارية متوغدة. ومن فوق، سحب رمادية. وفورا بعد ذلك كانت تغيب شمس محترقة خلف الجزيرة، ولون وردي فسيح كان ينعكس على السحب، التي كانت دموية في حاشيتها السفلى. بعد بضع ثوان من ذلك،من وراء الجزيرة اتّسع الحريق إلى ان جثم على السفينة. وصارت السماء موقدا عظيما فوق أفق من خطوط قليلة مزرقة. وبعد ذلك، دم في كل مكان، كما لو ان جمعا من العصاة التهمتهم مجموعة من سمك القرش.

وأضاف فارس مالطة «يكون من الحسن ان يموت المرء الآن. ألا تأخذك الرغبة في ان تعلّق نفسك إلى فوهة مدفع ثم تترك جسمك يسقط في البحر؟ سيكون الأمر سريعا، وفي تلك اللحظة سنعرف كلّ شيء..».

فقال روبارتو «صحيح، ولكن في اللحظة نفسها التي سنعرفه فيها، سنكفّ عن معرفته».

وواصلت السفينة سفرتها، متقدّمة في بحار في لون الحبّار.

كانت الأيام تمرّ، متماثلة لا تتغيّر. وكما توقّع مزارينو، لم تكن لروبارتو علاقات الا مع النبلاء. فقد كان البحارة جمعا من اللئام لا يستحسن ان يعترضهم المرء أثناء الليل فوق سطح السفينة. والمسافرون كانوا جائعين، مرضى ومتبكّين. ومساعدو بيرد الثلاثة كانوا لا يتجرّأون على الجلوس إلى مائدته، وينسحبون في صمت ممتثلين لأوامره. أما القبطان فقد كان وكأنه غير موجود: في المساء لا تجده الا مخمورا، وعلاوة على ذلك كان لا يتكلّم الاّ اللغة الفلمندية.

كان بيرد بريطانياً هزيلاً وجافّاً ذا رأس عظيم محمرّ الشعر يمكن

أن يصلح منارة لسفينة. وروبارتو، الذي كان يغتسل متى أمكنه ذلك، منتهزا سقوط المطر لغسل أثوابه، لم يره أبدا طيلة شهور عديدة من السفر يغيّر قميصه. من حسن الحظ أنه، حتى بالنسبة إلى شاب مثله اعتاد ارتياد الصالونات الباريسية، كانت رائحة السفينة نتنة إلى حدّ ان رائحة الآخرين تصير معها لا محسوسة.

وكان بيرد شرّيب جعة، وتعلّم روبارتو كيف يجاريه في ذلك، متظاهرا بالشرب بينما كان يترك الشراب في كأسه تقريبا في نفس المستوى. ولكن يبدو ان بيرد تعلّم فقط ان يملأ الكؤوس الفارغة. وبما ان كأسه كان دائما فارغا، فقد كان يملأه دائما ويرفعه على نخب الآخرين. أما الفارس فقد كان لا يشرب، كان يستمع اليه ويلقي بعض الأسئلة.

وكان بيرد يتكلّم الفرنسيّة، مثل كلّ انجليزي في ذلك الوقت ان كان يريد السفر والخروج من جزيرته، وبقي معجبا بروايات روبارتو حول زراعة الكروم في مونفيرّاتو. واستمع روبارتو بأدب إلى أحاديثه حول كيفية صنع الجعة في لندن. ثم تبادلا الحديث حول البحر. كان روبارتو يركب البحر للمرّة الأولى بينما بيرد كان يبدو انه لا يودّ الدخول كثيرا في هذا الموضوع. والفارس كان لا يلقي الاّ أسئلة تتعلق بالنقطة التي يمكن ان توجد فيها «إسكونديدا»، وبما أنه كان لا يضيف أي معلومة، فقد كان لا يحصل على أي جواب.

في الظاهر كان الدكتور بيرد يقوم بتلك السفرة لدراسة الأزهار، وامتحنه روبارتو قليلا في ذلك الموضوع. وفي الحقيقة لم يكن بيرد جاهلا بالعلوم النباتية، ممّا جعله ينطلق في شروح طويلة كان روبارتو يصغي اليها متصنعا الاهتمام. وفي كلّ من الأقاليم التي يرسون فيها كان بيرد ورجاله يجمعون فعلا أنواعا من النباتات، حتى وان لم يكن ذلك بدقّة الباحثين الذين يبحرون قصدا لذلك الغرض، وقضوا ليال عديدة في فحص الأشياء التي جمعوها.

أحمد الصمعي يدرّس اللغة الإيطالية والأدب الإيطالي المعاصر بكلّية الآداب منوبة-جامعة تونس.

ترجم من الأدب الإيطالي

- إيطلو كالفينو، خرافات إيطالية، منشورات فانزي، تونس 1986.
- أومبرتو إيكو، اسم الوردة، دار التركي للنشر، تونس 1991، الطبعة الثانية، دار أويا، طرابلس ليبيا، 1998.
- جيوزيبي بونافيري، خياط الشارع الطويل، فانزي للنشر والإبتكار الفني، تونس 1998.
- جزيرة اليوم السابق، دار أويا، طرابلس، ليبيا، الصيف، حزيران يونيو 2000.

أومبرتو إيكو

جزيرة اليوم السابق

نقله عن الإيطالية

د. أحمد الصمعي



من منّا لم يحلم بجزيرة نائيةٍ، واقعة في أطراف الدنيا، نائمة بين زرقة السماء ولازورد البحر؟ «أين منّي جزيرة نائية لم تطأها قدم رجل؟» كما يقول أحد أبطال نجيب محفوظ.

كل منّا يبحث عن جزيرته، وكل منّا يريدها ويتصورها حسب الآمال التي يجري وراءها، دون الفوز بها، فمثلنا مثل «الفارس المالطي» في هذه الرواية، الذي يبحث عن جزيرة «إسكونديدا» وكلما بدا له أنه عثر عليها، بقي شيء في دخيلته يتنازعه ويجعله يقطع بأن تلك الجزيرة ليست «إسكونديدا» التي يبحث عنها، أو أولئك الذين يبحثون عن جزيرة سليمان للظفر بالكنز العظيم الذي يقال إن سيدنا سليمان جمعّه فيها، فيقضون حياتهم وراء هذا الأمل ويموتون من أجله. وجميعنا يقضى كامل العمر في البحث عن جزيرته دون بلوغها، وكثيرون تقف مراكبهم أمام الجزيرة المأمولة، دون القدرة على النزول إليها، فتمر بهم الآيام بين الحسرة على الأمس وحيرة اليوم والرجاء في الغد.

إن هذا الكتاب رحلة ينبغي أن يستعد لها القارىء وتلك الصفحات المشبعة بالتعاليق والهواجس والأفكار هي مثل الحركات التسخينية التي تهيء اللاعب لمباراة صعبة. هي فعلاً رحلات شاقة ولكنها جعلت من روايات إيكو غلّة غريبة ونادرة لا يلتذ بها إلاّ المغرمون بالألوان المجهولة من الطعام.



دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع والتنمية الثقافية
زاوية الدهماني - السوق الأخضر هاتف: 3338571 • 4449903 • 4448750-21-218+
فاكس: 4442758-21-218+ ص.ب: 13498 طرابلس - الجماهيرية العظمى

توزيع: دار الكتاب الجديد المتحدة
أوتوستراد شاتيلا - الطيونة - شارع هادي نصر الله - بناية فرحات وحجيج - طابق 5
خليوي: 03-933989 هاتف وفاكس: 542778-1-961+

ISBN 9959-29-031-X

